
قصص عربية
الكتاب الماسي
تاريخ ما اهمله التاريخ
أندلس العرب
بقلم حبيب جاماتي

الكتاب الماسى

قصص عربية

تاريخ ما أهمله التاريخ
أندلس العرب

بقلم
حبيب جاماتى

إهداء

الى شعب المغرب العربى الأصيل ، الذى حافظ بأمانة جديرة بالاعجاب ، على التراث الاندلسى الثمين ، فى عاداته ، وتقاليده ، وصفاته ، وهندسة قصوره ودوره وجوامعه ، والذى احتفظ بعض أبنائه ، فى بيوتهم ، ببقية باقية من « مفاتيح الأندلس » التى حملها أجدادهم معهم يوم رحلوا عن « الفردوس المفقود » ـ أهدى هذه المجموعة من قصص الحب والوفاء والثأر والشهامة والشجاعة ، المستوحاة من تاريخ أندلس العرب .

حبيب جاماتى

تصـــدير

يجد القراء فى هـذه الصـفحات مجموعة اخرى ، هى « الحلقة الرابعة » من أقاصيص « تاريخ ما أهمله التاريخ » وقد سبقتها حلقات ثلاث جعلت عناوينها : « بطولات عربية ـ والناصر صلاح الدين ـ ومصر مقبرة الفاتحين ... » وهذه الحلقة الجديدة ترفع الستار عن بعض ما أهمله التاريخ من حوادث الجماعات والافراد ، فى بلاد الأندلس التى حكمها العرب نحو ثمانية قرون وخلفوا فيها آثارا مادية وثقافية وعلمية وعاطفية بقيت حية على كر الايام .

دخلوها فى سـنة ٧١١ للميلاد = ٩٣ هجرية ـ بقيـادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وكان رحيلهم نهائيا عنها فى سنة ١٤٩٢ ميلادية ٨٩٧ للهجرة ، فى عهد أبى عبد الله بن محمد ، آخر ملوك غرناطة .

أنشأوا فيها دولة موحدة متماسـكة الاطراف . وخشى العـالم الغربى كله جانبهم فراح يخطب ودهم ويسعى الى التحالف معهم .

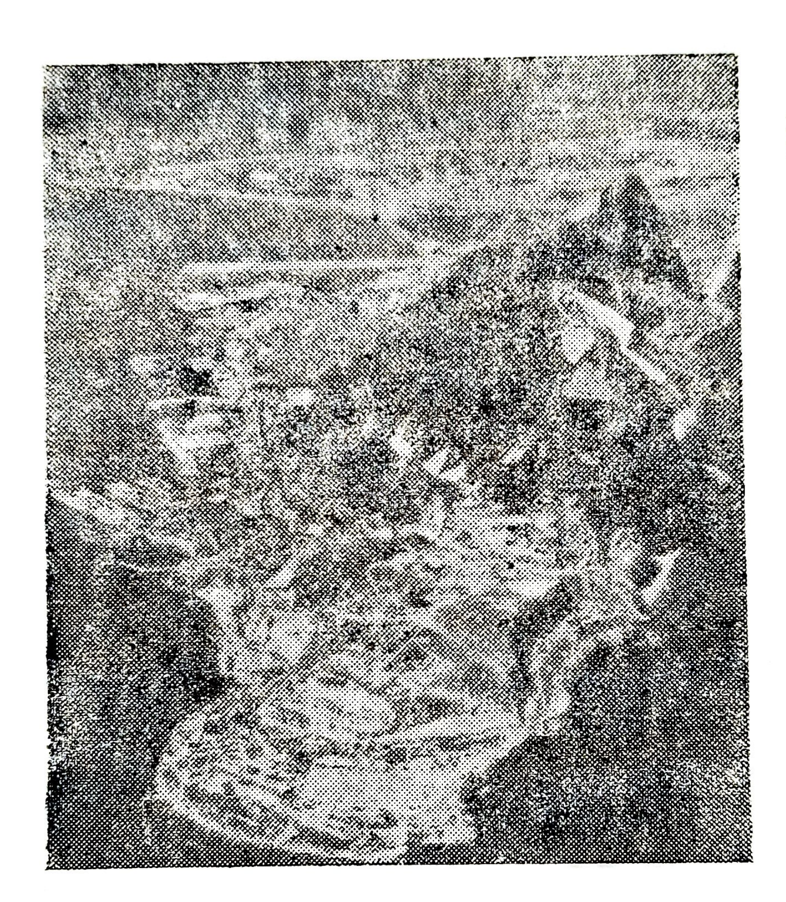
ثم دب الشقاق شيئا فشيئا ، واتسع الخلاف بين الطامعين فى الحكم ، فتفككت أوصال الدولة الواحدة القوية ، وتجزأت الى دويلات وامارات ، وقامت فيها حروب أهلية ، سهلت للاسبانيين ـ أصحاب البلاد الأصليين ـ السير بحرب « الاسترداد » الى النصر الاخير .

واليوم ، بعد مرور أجيال على أفول نجم الاندلس العربية ، لايزال ذكر الدولة الزاهرة يعطر تاريخ العرب ، والاسبانيون أنفسهم يفاخرون بالتراث الذى تركه لهم العرب فى بلادهم . وقد احتفلوا فى سنة ١٩٦١ بمرور الف عام على وفاة عبد الرحمن الناصر ، ملك قرطبة ، وأول من حمل بعث « خليفة » من أمويى الاندلس . وقد توفى ذلك العاهل العظيم فى سنة ٩٦١ للميلاد = ٣٥٠ للهجرة ـ وهو الذى جعل من عاصمة ملكه درة المدن والحواضر فى عصره !

وقد انجبت الاندلس العربيـة رهطا مبـاركا من العلماء والأدباء والشعراء والرياضيين ، منهم ابن رشد الفيلسوف ، وابن جابر الذى ينسب اليه علم الجبـر ، وابن حيـان ، وابن الخطيب ، والادريسى ، وابن جبير ، وأبو القاسم محمد بن هانىء ، وغيرهم كثيرون ...

بلاط الشهداء

تضاربت الآراء فى شرح العوامل والاسباب التى أدت
الى انسحاب العرب من معركة « بلاط الشهداء »



صــخرة جبل طــارق أو جبــل الفتــح
من هنــا ، دخل العــرب البلاد الاســبانية

فى سنة ٩٣ هجرية – ٧١١ للميلاد – اقدم موسى بن نصير اللخمى ، حاكم افريقية المقيم بالقيروان ، على وضع الخطة التى رسمها لغزو أسبانيا فى موضع التنفيذ ، بعد أن أقره عليها الوليد بن عبد الملك ، سادس خلفاء بنى أمية بدمشق .

فاجتاز جيش يضم نحو ثلاثة عشر ألفا من العرب والبربر المستعربين مضيق « العدوة » بقيادة طارق بن زياد ، عند الصخرة المسماة « كالبى » والتى أطلقوا عليها اسم قائدهم فعرفت به ولا تزال الى الآن تسمى « جبل طارق » وتحرف باللغات الافرنجية الى « جيبر التار » ويسميها العرب أيضا « جبل الفتح » .

وبعد سنة واحدة من بدء تلك الغزوة الموفقة ، كان العرب قد اجتاحوا شبه الجزيرة الاسبانية ، من جنوبها الى شمالها ، ورفعوا أعلامهم فى أرجائها ، وقسموها الى ولايات وقطاعات ، ووقفت طلائعهم عند سفوح جبال « البرانس » تتحفز لاستئناف الزحف لدى صدور الأوامر اليها .

وراود موسى بن نصير حلم على جانب عظيم من الروعة .. فقد فكر ذلك القائد المقدام فى اجتياز الفواصل الجبلية ، وغزو بلاد « غاليا » التى كان العرب يسمونها « الارض الكبير » وهى « فرنسا » اليوم ، ومواصلة الزحف على طول الشاطىء ، لفتح سواحل أوربا الجنوبية ، والعودة الى الشرق بطريق ايطاليا والبلقان والامبراطورية الرومية البيزنطية !

لكن الخليفة استدعاه الى دمشق . كما استدعى القائد الموفق ابن زياد ، وبقى من خلفهما فى حكم أسبانيا يواصلون تنظيم شئون البلاد المجتاحة ، وتراودهم أيضا فكرة اقتحام الجبال والوصول الى ما ورائها !

وكانت بلاد غاليا ، أو الارض الكبيرة ، مقسمة الى امارات عديدة ، من أهمها وأكبرها امارة « أكيتانيا » التى كان يحكمها « الدوق أود » الخصم العنيد لكبير الأمراء الغاليين « شارل » حاكم « أوسترازيا »

أراد العرب أن يستغلوا الشقاق المستحكم بين أولئك الامراء ، كما استغلوا من قبل انقسام حكام أسبانيا بعضهم على بعض ، فشرعوا فى مناوشتهم على الحدود ...

وكان أول من اجتاح جنوب بلاد غاليا من قادة العرب « السمح بن مالك » وذلك فى سنة ١٠٠ هجرية ـ ٧١٨ للميلاد ـ فتصدى له الدوق اود مع من التحق به من جيرانه .

وهاجم السمح بن مالك مدينة « تولوز » فدارت حولها معركة عنيفة فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ٧٢١ ميلادية ـ ١٠٣ للهجرة ـ قتل فيها السمح ـ ويسميه الافرنج « زاما » ـ وارتد رجاله عن المدينة ، وانطلقوا الى جهات أخرى ، يغزونها ويعودون منها بالغنائم والاسلاب .

واعتقد الدوق أود أن خير وسيلة لاتقاء خطر العرب هى التحالف معهم ، فأعطى ابنته « لامباجيا » زوجة للقائد البربرى « المنيذر » ولكن هذا لم ينقذه من الخطر . فقد رفع المنيذر راية العصيان وانقض على الخلافة ، فمشى اليه عبد الرحمن الغافقى وحاربه وقتله . وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد ولاه امارة « الاندلس » وهو الاسم الذى اطلقه العرب منذ ذلك الوقت على البلاد الاسبانية كلها . ويعرف المنيذر عند الافرنج باسم « مونونزا » .

ودخل عبد الرحمن مدينة « بوردو » التابعة لأمير أكيتانيا ، وكان ذلك فى سنة ١١١ هجرية ـ ٧٢٩ للميلاد . وتاهب لتوسيع نطاق فتوحاته . فدب الرعب فى نفس الدوق أود ، وعاد الى مصالحة خصمه السابق شارل ، حاكم أوسترازيا ، على أمل أن يستعين به ضد العرب ، كما استعان من قبل بالعرب ضد مواطنيه الغاليين .

* * *

وصل رسل الأمير الاكيتانى الى مقر شارل ، وأفضوا اليه برسالة سيدهم ، وهى تقول :

« لقد اجتاحت جيوش العرب بلادى ، وهزمت فرسانى ، وساقت الأسرى والسبايا الى الاندلس ، فأسرع الى أيها الصديق بأبطالك قبل أن يعم الخطب ويحل بك وبشعبك ما حل بى وبشعبى ! المعونة يا شارل . المعونة ! »

لبى شارل النداء ، ونفخ فى بوق الحرب ، وسار على رأس جيش لجب ، لملاقاة الفزاة الفاتحين ، ومحاولة ردهم على أعقابهم ..

والتقى الجيشان ، جيش العرب المسلمين وجيش الافرنج النصارى ، فى السهول الواقعة بين تور وبواتيه ، على ضفاف نهر لوار ، وعرفت تلك المعركة فى التاريخ باسمين : باسم معركة « بواتيه » عند الافرنج ، وباسم معركة « بلاط الشهداء » عند العرب

وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم لكثرة ما أريق فيها من دماء ، واستشهد فيها من أبطال صناديد ...

ويقال ان المكان الذى عرف بهذا الاسم عند العرب ، هو الطريق الرومانى القديم الممتد فى تلك الجهات ، والذى دار حوله القتال فى معركتى تولوز وبواتيه على السواء .

وقد بالغ المؤرخون الافرنج فى وصف معركة « بلاط الشهداء » واهميتها . فادعوا أن عدد القتلى الذين سقطوا فيها من العرب يزيد على مائة الف فارس وراجل . وسموا أمير ارسترازيا منذ ذلك الوقت « شارل مرتيل » أى « شارل المطرقة » باعتبار انه حطم صفوف الجيش العربى تحطيما . ولكن ذلك كله اصبح فيما بعد ، لما أزف وقت تحكيم العقل والمنطق ـ موضع أخذ ورد ! وكثيرون من مؤرخى الافرنج أنفسهم ، اليوم ، ينظرون الى تلك المعركة التاريخية من غير زاوية الحقد والتعصب ، وينكرون على شارل مرتيل تلقيبه بالمطرقة !

دارت رحى معركة بلاط الشهداء فى بواتيه فى الرابع من شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ للميلاد ـ ١١٤ هجرية ـ وكان بين شهدائها القائد عبد الرحمن الغافقى نفسه . وهو الذى يسميه الافرنج « الامير ابدرام ! » ونسبه أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقى ، أصله من غافق من قبائل اليمن .

وفى ذلك اليوم ، سقط فى حومة الوغى ثمانية أخوة كانوا يحاربون فى صفوف العرب ، وليس فى عروقهم دم عربى يجرى . وقد استشهدوا فى سبيل الفتح الاسلامى ، وليس الاسلام دينهم !

وفى ذلك اليوم أيضا سقط فى حومة الوغى رجل كان يحارب فى صفوف الافرنج ولم يكن منهم . وقد استشهد فى الدفاع عن النصرانية فى الغرب ، وما كان يدين بدين المسيح !

ذلك الرجل هو « عامر المسعودى » الذى كان الافرنج يسمونه « الفارس المقنع » لانه كان يخفى وجهه بقناع احمر ، ولا ينزعه أمام الناس فى حال من الاحوال !

أما الفرسان الثمانية فهم أبناء فيليب النافارى Philippe Le Navarais قتل الدوق أود أباهم ظلما وعدوانا ، فعزموا على الثأر والانتقام وراحوا يطلبونهما فى ميادين القتال ، لا شأن لهم بالغاية التى من اجلها تتصادم الجيوش وتتذابح الفرسان ، ولا مرمى يقصدون اليه غير اذلال الامير الذى أذلهم وقتل أباهم !

فى مكتبة الفاتيكان البابورية ، بين اكداس المخطوطات التى لا يدخل

حددها تحت حصر ، رقعه قديمة باللغة دون فيها راهب أسبانى عاش فى القرن الثامن للميلاد ، قصة « الفارس المقنع » عامر المسعودى العربى ، والاخوة الثمانية أبناء فيليب النافارى ، الذين لقوا حتفهم فى معركة بواتيه

وقد حمل تلك الرقعة القديمة الى مكتبة الفاتيكان ، فى الجيل الثامن عشر ، حبر مسيحى هو الاب سمعان السمعانى المارونى اللبنانى ، الذى عهد اليه البابا فى ذلك الوقت أن يبحث عن المخطوطات القديمة فى أديرة مصر وسورية ولبنان ، فعثر فيها على تلك الرقعة التى كتبها راهب أسبانى لم يذكر فيها اسمه ، ولا يعرف أحد كيف انتقلت تلك الوثيقة التاريخية من بلاد الاندلس الى أديرة الرهبان فى الشرق !

والوثيقة مكتوبة باللغة اللاتينية . وقد عثرت على نسخة منها ، فى عام ١٩٢٠ ، فى متحف خاص كان قد أنشأه بالقاهرة ، العالم الفرنسى شارل جلياردو ، باسم « متحف بونابرت » فى دار قديمة تعرف بدار ابراهيم كتخدا السنارى بحى السيدة زينب . وقد تبعثرت محتوياته بعد وفاة منشئه الذى عاش ومات فى الشرق .

وهى منقولة هنا الى العربية ، بقدر ماتسمح الدقة والامانة فى النقل . وينبغى ألا يغرب عن البال ان كاتبها مسيحى ، وانه قد دون فيها مادونه بوصفه مسيحيا وراهبا . وهذه ترجمتها :

« قص على أحد الفرسان العرب الذين حاربوا فى جيش القائد المسلم عبد الرحمن ، فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عاشر خلفاء بنى أمية ، قصة ثمانية من الافرنج المسيحيين لم يتورعوا عن امتشاق الحسام ومحاربة اخوانهم فى كثير من المواقع ، فأراد الله لهم العقاب فماتوا فى معركة بواتيه . أولئك الاخوة الثمانية هم أبناء الطاغية فيليب النافارى ، الذى أمر الدوق أود الاكيتانى بضرب عنقه لانه سرق أموال الفقراء . قال محدثى ان أولئك الاخوة الثمانية حضروا ذات يوم الى معسكر المسلمين ووضعوا أنفسهم فى خدمة الامير العربى عبدالرحمن قائد المسلمين ، فرحب بهم ، ولكنه لم يلحقهم بكتيبة واحدة من كتائب جيشه ، بل فرقهم وأرسل كلا منهم الى ناحية ، خوفا من أن يكون وراء انضمامهم اليه مكيدة مدبرة . فان ذلك الرجل العظيم قد داخله الريب فى مسلك أولئك الاخوة الثمانية ، الذين جاءوا يطلبون اللحاق بالمسلمين وهم يحاربون النصارى . ولكن محدثى يقول أن الفرسان الافرنج قد أبلوا فى القتال بلاء حسنا واستبسلوا فى الدفاع عن انفسهم وامتنعوا عن الرحيل مع الكتائب العربية عندما صدرت اليها الاوامر بالابتعاد عن ميدان القتال بعد مقتل قائدها عبد الرحمن فى بواتيه .

فان هذا القائد المحنك قد لقى حتفه فى حومة الوغى ، ولم تتفق كلمة العرب على من يحل محله بعد موته فى القيادة ، فخشى امراء المسلمين أن يفنى جيشهم عن آخره ، بعد أن قتل منهم من قتل فى المعارك ، فراوا ان الرحيل تحت جنح الظلام خير من البقاء واوفى . اما الاخوة الثمانية ، فقد مكثوا فى أماكنهم ، وتصدوا لجيش الافرنج عندما هجم على معسكر العرب الخالى من الجند ، فقتلوا جميعا وماتوا موت الابطال وقد بكى محدثى وهو يقص على قصة الاخوة الثمانية ، لا على موت أولئك الاغراب الذين لم تربطه بهم رابطة دين او نسب ، بل على هزيمة العرب فى تلك الموقعة العظيمة . لقد بكى ذلك الجندى الشجاع موت القائد عبد الرحمن وتخاذل الامراء بعد موته وتناحر العرب فى الاندلس وتنافر قوادهم فى الميادين وأحجام من كانوا وراء جبال البرانس عن الاسراع لنجدة اخوانهم فى تور وبواتيه ، ان كل ذلك قد اسفر عن تلك الهزيمة التى أوقفت تقدم المسلمين وتوغلهم فى بلاد الافرنج ، وانقذت تلك الاقطار من الغزو والحروب وحالت دون وصول المسلمين الى روما المقدسة الخالدة !

« والجندى الذى قص على قصة الاخوة الثمانية ، أحد أولئك الابطال العرب الذين حاربوا فى اكيتانيا وشهدوا مجزرة بواتيه . وهو يمت بالنسب الى فارس عربى حل به فى ذلك اليوم المشهود ماحل بالاخوة الثمانية أبناء فيليب النافارى ، وذلك الفارس العربى هو عامر المسعودى « الفارس المقنع » الذى أسره « القوط » فى احدى المعارك فاشترى منهم حريته بأن أفضى اليهم بأسرار خطيرة واطلعهم على دخائل المسلمين . وقد أمر عبد الرحمن بضربه فضرب على مرأى من الناس ثم طرح فى السجن ففر منه والتحق بجيش الافرنج سعيا وراء الثأر والانتقام ، ومحدثى يلعن كل يوم فى أوقات الصلاة ذكرى ذلك الفارس الجاحد والمسلم الخائن . وقد مات ذلك الرجل فى معركة بواتيه . ومات ثلاثة فرسان من ابناء عمومته كانوا يحاربون فى جيش عبدالرحمن ويطلبون ذلك الخائن فى الميادين . ونحن اليوم نعيش فى وفاق مع العرب والبربر ، وكل من الفريقين لايتجاوز الحدود التى رضينا جميعا بتخطيطها . ولكن الحرب على الابواب ، ولايمكن أن يعيش سيدان فى بيت واحد ... »

هذه ترجمة الرقعة القديمة التى عثر عليها السمعانى فى احد أديرة الشرق فحملها الى مكتبة الفاتيكان .

وقد رأيت أن فى نقلها الى العربية فائدة تاريخية قد تسترعى أهتمام الباحثين فى زوايا التاريخ ، الناشرين لما اهمله المؤرخون فى تدوين الحوادث العظمى ، والوقائع الخطيرة .

فان تلك الوثيقة الخطية القديمة ، التى يرجع عهدها الى الزمان الذى وقعت فيه معركة بواتيه ، تلك الرقعة البالية التى ظلت ألف سنة مهملة فى زوايا دير من أديرة الشرق ، حتى جاء السمعانى فى الجيل الثامن عشر فبعثها من رمسها ، تلك الحجة التى دونها راهب مجهول من الرهبان المسيحيين فى بلاد الاندلس . تضىء بنورها حادثا عظيما من حوادث التاريخ ، طالما ثارت حوله المجادلات ، وتناقضت فيه الاقوال ، وراجت عنه الاشاعات !

كان الافرنج يعتقدون — ولا يزال كثيرون منهم على اعتقادهم — أن العرب قد انهزموا فى واقعة بواتيه أو بلاط الشهداء وأن الامير شارل قد حطم صفوفهم فاستحق من أجل ذلك لقبه المعروف ، « شارل مرتيل » أى « شارل المطرقة » .

لكن كبار المؤرخين قد بحثوا فيما بعد عن الاسباب التى أدت الى فوز الافرنج وانكسار العرب فى بواتيه ، فوجدوا أن للخيال نصيبا كبيرا فى اذاعة الاخبار عن تلك المعركة الفاصلة ، وأن الذين نقلوا تفاصيلها قد بالغوا فى سردها ولم يكونوا للحقيقة محترمين وللعرب منصفين !

نعم ان العرب هجموا على الافرنج ...

فتحطمت هجماتهم على دروع أولئك الذين صمدوا لهم فى السهول والهضاب .

وصحيح أيضا أن العرب فقدوا فى تلك المعركة عشرات الآلاف من الفرسان . ولكن هزيمتهم لم تكن تامة ولم يكن رجوعهم على أعقابهم نتيجة جبن أو عجز أو احجام ...

لقد مرت أجيال على ذلك الحادث العظيم ...

وهدأت فى النفوس ثورة الاحقاد والضغائن ، ففى استطاعتنا الآن أن ننظر الى موقعة بلاط الشهداء بعين الروية والانصاف ، ونلقى على أنفسنا أسئلة لا نجد صعوبة فى الرد عليها ، اذا كنا منصفين ننشد الحقيقة المجردة عن الاهواء :

هل حطم شارل « المطرقة » صفوف العرب فى بواتيه ففروا لا يلوون على شىء ؟

كلا . بل انهم تراجعوا بانتظام وخشى الافرنج أن يتعقبوهم خوفا من الوقوع فى كمين ، ومن ارتداد العرب عليهم وايقاد نار القتال من جديد ...

اذن لماذا خسر العرب معركة بواتيه ؟

هذا هو السؤال الذى يلقيه الباحثون بعد مضى القرون على تلك الملحمة الرائعة .

نعم : لماذا خسر العرب معركة بواتيه ؟

لان الافرنج قاموا بحركة بارعة جعلت العرب يعتقدون ان أسلاب الحرب التي كرسوها فى معسكرهم معرضة لخطر النهب من جانب اعدائهم ، فأرادوا انقاذها ، وكان ذلك من الاسباب التى جعلت الدائرة تدور عليهم ...

هذا أولا ...

وثانيا لانهم فقدوا قائدهم عبد الرحمن الغافقى فى ميدان القتال ، ففقدوا معه وحدة القيادة ، وهبت على امرائهم ريح الخلاف ، والجيش الذى لا رأس له لاقيمة له ، فرأى اولئك الامراء أن خير ما يصنعونه أن ينسحبوا من الميدان ويتجنبوا كارثة كان لابد من وقوعها ..

ولماذا لم يسرع أمراء الاندلس الى نجدة اخوانهم وشد أزر عبد الرحمن الغافقى بعد أن تحالف عليه الدوق أود الاكيتانى والامير شارل الافرنجى ؟

ذلك لان الامراء المسلمين فى الاندلس كانوا من ناحيتهم فى خلاف مستمر وتناحر يؤسف له ، فتركوا عبد الرحمن الغافقى وشأنه ، وأحجموا عن مساعدته عندما اقتضت الضرورة والاحوال .

هذا ماتوحيه تلك الرقعة الخطية الى الباحث المفكر ، عن موقعة بواتيه ، التى حاول بعض المؤرخين أن يجدوا وجه شبه بينها وبين موقعة حطين ، وهم فى محاولتهم مخطئون .

ان الافرنج لم يفنوا جيوش العرب بحد السيف فى بواتيه ، ولم يأسروا قائدهم ، بل أوقفوهم عن التقدم ، ثم ارغموهم على التقهقر بعد أن قتلوا عبد الرحمن الغافقى والسيف بيده ..

أما صلاح الدين ، فانه أفنى جيش الافرنج فى حطين فلم ينج منه غير عشرات معدودة ، واسر ملكهم وساقه امامه .

ان معركة حطين فى عام ١١٨٧ ميلادية = ٥٨٣ للهجرة ، كانت ضربة « قاضية » هدمت دولة الافرنج فى أورشليم .

اما معركة بواتيه او بلاط الشهداء ، فى عام ٧٣٢ للميلاد – ١١٤ للهجرة – فكانت ضربة « موفقة » فقط ، أوقفت زحف العرب شمالا ، ولكنها لم تزعزع الدولة التى انشأوها فى اسبانيا ، وعرفت بدولة الاندلس .

عبد الرحمن ومرتا

غمرها القائد العربى النبيل بعطفه ، فماتت فى
سبيله يوم سقط فى الميدان والسيف بيده !

هزم فرسان العرب على ابواب « بوردو » جيش الافرنج هزيمة بشعة ، ودخلوا المدينة فاتحين ، وأسروا حاميتها ، وضربوا عنق حاكمها، وعللوا النفس بعد ذلك الانتصار الباهر بفتح بلاد « غاليا » من جنوبيها الى شماليها .

وارسل الدوق أود ، امير اكيتانيا ، يستنجد بامير او سترازياشارل فأسرع الى نجدته ، وتدفقت جيوش الافرنج من كل فج وصوب على الاقاليم التى يحتلها العرب ، واستعد عبد الرحمن الغافقى ، قائد المسلمين ، للقاء تلك القوة الهائلة الزاحفة على معسكره !

والتقى الفريقان فى سهول « بواتيه » حيث كان العرب قد ضربوا مضاربهم ، ووضعوا فيها نساءهم وأسلابهم ، وصمدوا للافرنج . لكن الافرنج لم يبدأوا بالهجوم ، بل صمدوا للعرب من ناحيتهم ، وظل كل فريق يرقب حركات الفريق الآخر ، منتظرا الفرصة السانحة للانقضاض عليه .

* * *

كان عبد الرحمن ، فى اليوم الذى بدت فيه طلائع الافرنج بين الهضاب المحيطة ببواتيه ، جالسا فى خيمته ، وحوله أمراء الجيش وأصحاب الرأى الراجح فيه ، يتباحث معهم فى الخطة التى يرون اتباعها، واذا بحامل سلاحه يدخل عليه ويقول ان امرأة تطلب المثول بين يديه ..

سأله عبد الرحمن من تكون تلك المرأة ، فأجاب حامل السلاح انها معروفة فى الجيش ، مشهورة فى تلك البلاد ، وتعرف باسم « مرتا النصرانية » .

عرفها عبد الرحمن فأمر بادخالها فدخلت . وبادرها القائد العربى بقوله :

— أهلا بك يامرتا . خذى مجلسك بين أمراء العرب هؤلاء ، وتكلمى على مسمع منهم اذا كان لديك ما تطلبين ، فاننا لن نرفض لك طلبا ،ولن نرد لك رجاء .

فجلست مرتا بعد أن حيت الحاضرين وقالت :

— جئتك أيها الامير طالبة تحقيق أمنية طالما عللت النفس بها منذ شهور !

ـ وماهي تلك الامنية ؟

ـ وصلت منذ ساعة الى معسكرك ومعي عشرة من أبنـــاء قومي وقد جئنا نطلب الالتحاق بجيشك ومقاتلة الافرنج في المعركة القادمة

ـ لقد عهدناك يامرتا شديدة الاخلاص لزوجك العربي ، ولكننا لم نعهدك عدوة قومك فما الداعي الى هذا الانقلاب ؟

ـ كنت حافظة عهد قومي عندما كانوا من جهتهم حافظين عهدي . أما الان فقد خانوا ذلك العهد فأصبحت من جهتي في حـل من واجب الاخلاص لهم !

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد قتلوا زوجي فجئت مع عشرة من ذوي وذويه نسعى الى الثأر ونطلب الانتقام . فاسمح لنا ياعبد الرحمن بأن نقاتل في صـــفوف جيشك ، راجين لك ولانفسنا النصر المبين !

ـ لك ماتريدين يامرتا !

قال عبد الرحمن الغافقي هــذا ، وأمـــر بأن يعطى رفاق المرأة ما يلزمهم من سلاح ، وان يلحقوا بالكتيبة التي يقع اختيارهم عليها ...

***

من هي تلك المرأة التي لقبها العرب بمرتا النصرانية ، وكيف انقلبت على قومها وحاربتهم ؟

هي مرغريت دي فونتان ، ولدت من أبوين افرنجيين ، في أسبانيا النصرانية ، وفي سنة ٧١١ للميلاد الموافقة لسنة ٩٣ للهجــرة ، كانت الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، عندما اجتاز العرب والبربر بقيادة طارق بن زياد مياه المضيق ، وتدفقـوا على أوربا ، وأنشـــأوا دولة الاندلس .

أحبت الفتاة مرغريت شابا عربيا يدعى « قاسم بن عامر » جاء مع الجيش الفاتح الى الاندلس ، بعد أن حارب في الشام ومصر والقيروان والمغرب ، واكتسب في ميادين القتال شهرة واسعة . وكان الشاب قد أصيب بجرح خطر في احدى المعارك التي دارت رحاها بين العرب والقوط في شمالي أسبانيا ، فأنقذه والد الفتاة من الموت ، وآواه في بيته ، حيث رأته الفتاة للمرة الاولى ، فعلق به قلبها ، وبادلها الشاب العربي حبا بحب ، ورضي والد الفتاة بأن تصبح ابنته زوجة لذلك الغريب الشجاع ، فتم للعاشقين ما أرادا ...

لحقت مرغريت بزوجها الى الميادين منذ ذلك الوقت ، واطلق عليها العرب اسم « مرتا النصرانية » وشهدت بجانب قاسم المعارك الدموية التي تطاحنت فيها جيوش العرب والافرنج في بلاد غاليا حول مدن نربون وتولوز وبوردو .

وفي سنة ٧٢١ ميلادية — ١٠٣ للهجرة — لما انتصر الدوق اود امير اكيتانيا ، على العرب بقيادة السمح بن مالك ، اثار ذلك الانتصار غضب العرب في الاندلس ، فراح ضحية غضبهم كثيرون من الافرنج في الاقاليم الاسبانية ، وقتل والد مرتا في مناوشة بين فريق من العرب وسكان القرية التي فيها قصره .

وبعد أسبوع من مقتل الرجل ، لحقت به زوجته ..

ومنذ ذلك الوقت ، أقامت مرتا مع زوجها العربي في بلاد اكيتانيا ، وظلت ناقمة على العرب لانهم قتلوا أباها وعجلوا بوفاة أمها . وامتنعت عن خوض غمار المعارك في صفوف العرب ، وصنع قاسم بن عامر مثلها ، ونزل الاثنان في بيت منعزل ، على مقربة من مدينة بوردو ...

وحدث بعد ذلك أن عقد زواج القائد العربي المعروف بالمنيذر على ابنة الدوق اود الاكيتاني ، وخرج ذلك القائد على قومه واصلاهم حربا عوانا . وكان قاسم يمت بالنسب الى المنيذر الخائن . لكنه لم ينضم اليه في تمرده وعدوانه ، وظل محافظا على حياده ، لا يقاتل الافرنج ولكنه لا يساعدهم على بني قومه !

وأراد عبد الرحمن الغافقي أن يضرب ضربة قوية في بلاد غاليا . فاجتاز بجيشه الجبال الفاصلة بين أسبانيا وغاليا ، وقتل المنيذر في معركة حامية ، وانتشر فرسانه في السهول والبطاح ودكوا الاسوار وفتحوا المدن ورفعوا عليها أعلام المسلمين !

وغضب الافرنج لانتصارات العرب المتوالية ، كما غضب العرب من قبل لانتصار الدوق أود الاكيتاني ، فراح ضحية غضبهم كثيرون من العرب في الاقاليم الباقية تحت سيطرة الافرنج ..

وقتل زوج مرتا النصرانية ، قاسم بن عامر ، بيد الافرنج ، كما قتل أبوها من قبل بيد العرب !

***

عندما أمر عبد الرحمن الغافقي بأن يعطى للمرأة ورفاقها مايريدونه من سلاح وأن تترك لهم الحرية في الالتحاق بالكتيبة التي يقع عليها اختيارهم ، لم يكن القائد العربي قد عرف بعد . تفاصيل ماحدث لمرتا

النصرانية ، فطلب اليها ان تقص عليه قصتها فاجابته الى طلبه وصدعت لامره . وختمت حديثها بهذه الكلمات :

ــ ليست المراة التى تخاطبك الان ياعبدالرحمن افرنجية ولا هى عربية ! انما هى امراة فقط ! امراة قتل زوجها ظلما وعدوانا ، بعد ان قتل ابوها ظلما وعدوانا أيضا ! لقد ثأرت لابى بامتناعى عن محاربةالافرنج فى صفوف العرب ، وحملنى زوجى ايضا على الامتناع عن القتال . فقد حرمتكم فى السنوات الاخيرة من سيفه القاطع ورأيه الصائب . والآن ، لابد لى من أن آخذ بثأره . ولا سبيل الى ذلك الا بمحاربة الافرنج الذين سفكوا دمه وافقدونى الشخص الوحيد الذى بقى لى فى هذا العـالم . أما الشبان الذين لحقوا بى الى هنا ، والذين جاءوا أيضا يطلبون الحرب والطعان ، فانهم من أبناء هذه البلاد ، لهم على أمير اكيتانيا ثأر يسعون اليه ، وجميعهم يعرفون زوجى ، وأنا الكفيلة لك بأنهم لن يخونوا العرب فى الميدان !

مضت أيام لم يقع فيها حادث يذكر ، ولم يشتبك فيها العـرب والافرنج الا فى مناوشات لا أهمية ولا نتيجة لها ...

وقرر عبد الرحمن الغافقى أن يبدأ بالهجوم مادام الافرنجيترددون فى مهاجمته . فأصدر أمره الى فرسانه ، فانطلقوا على خيولهم كالشهب المارقة ...

لكن هجماتهم المتكررة تحطمت على صفوف الافرنج الذين صمدوا لهم بدروعهم الفولاذية وأسلحتهم الثقيلة

لم يكن عبد الرحمن ينتظر تلك المقاومة ، وأدرك بعد مضى ساعات ان العدو الذى أمامه أثبت قدما فى القتال من الاكيتانيين والقوط وغيرهم من أبناء البلدان التى اجتاحها بجيشه ...

وبينما كان القائد العربى الشجاع يفكر فى خطة جديدة يعمد اليها لاختراق ذلك السور الحديدى ، اذا بالافرنج يعمدون من ناحيتهم الى خطة شيطانية قضت على آمال القائد فى ذلك اليوم المشهود .

فقد ابتعد الدوق أود الاكيتانى برجاله عن ميدان القتال ، وطوق الجيش العربى ، واندفع بفرســانه نحــو المعســكر حيث النســاء والاسلاب !

ورأى العرب ذلك ، فتركوا الميدان وعادوا مسرعين الى المعسكر ، لانقاذ مايستطيعون انقاذه من نسائهم وأسلابهم !

وحاول عبد الرحمن أن يعيدهم الى جبهة القتال وأن يحول دون

الانهزام ، ولكنه اخفق فى محاولته ، وهجم الافرنج بقيادة شارل على كتائب العرب المضعضعة ، وكان ماكان ...

قتل عبد الرحمن الغافقى فى تلك المعركة التاريخية ، المعـروفة بمعركة بواتيه ، أو بلاط الشهداء .

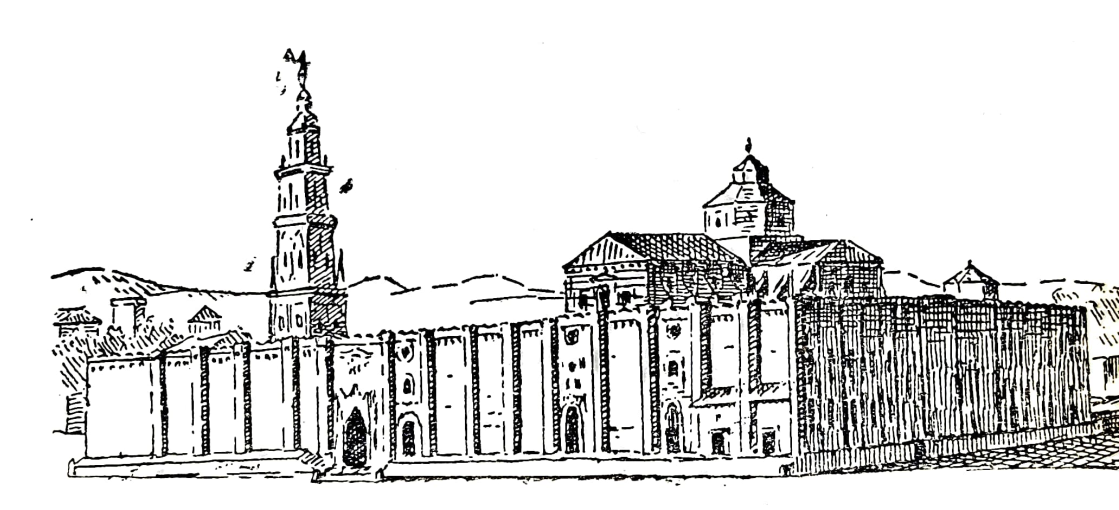
وفى صبيحة اليوم التالى ، هم الافرنج بالهجوم على معسـكر العرب ، لكنهم وجدوه خاليا من الجيش لان العرب كانوا قد انسلوابعيدا عن ذلك المكان ، بعد أن ذاع فى المعسكر خبر مصرع عبد الرحمن الغافقى الذى سقط فى الميدان والسيف بيده !

أما جثة عبد الرحمن الغافقى ، فقد وجدت وراء صخرة كبيرة ، بجانب جثة الجواد الادهم الذى كان القائد يمتطيه فى تلك المعـركة ، ووجدت بجانب الصخرة أيضا جثة امرأة أصيبت فى وجهها بثلاثةجروح وفى صدرها نصل سيف كانت أصابع يدها لا تزال منضمة على قبضته!

تلك المرأة هى مرتا النصرانية ، التى حاربت بجـانب عبد الرحمن الغافقى الى أن أدركه الاعداء وعندما يئست من الحياة أغمدت سيفها فى صدرها !

صقر قريش

احبته فى صمت وكتمت حبها فى صدرها .ولما ادرك المحبوب الحقيقة .. كان الوقت قد فات !



مسجد عبد الرحمن الداخل بقرطبة

نام الامويون عن مصالحهم فضاعت تلك المصالح . واغفلوا تدبير شؤونهم فدارت عليهم الدائرة . وتلك عاقبة النيام الغافلين !

***

قال الطبرى فى تاريخه ان نصر بن سيار الكنانى ، حاكم خراسان للامويين ، لما كثرت الخوارج وبلغه أن أبا العباس بن محمد الامام ، من آل أبى الطالب – وهو الذى لقب فيما بعد بالسفاح – مختبىء بدار مسيلمة بالكوفة ، كتب الى أمير المؤمنين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية بدمشق ، يخبره أن الناس مرادهم أن يبايعوا العباس وقال شعرا :

ارى تحت الرماد وميض نـــار	ويوشك أن يكون لهـــا ضرام
فان النـار بالعــودين تـذكى	وان الحرب أولهـــا كـــلام
فان لم يطفهـــا عقلاء قـــوم	يكون وقـــودها جثث وهـــام
فقلت من التعجب ليت شـعرى	أأيقـــاظ أميـــة أم نيـــام

***

كان الامويون نياما !

فقد بايع الناس أبا العباس بالكوفة . وسار بجمع غفير من الانصار الى دمشق . فالتقى الفريقان – فريق العباسيين وفريق الامويين – فى معارك عديدة ، وبطش أبو العباس وأشياعه بخصومهم ، وتولى أبومسلم الخراسانى مهمة ابادة الامويين فتتبعهم فى كل مكان . وظن العباسيون بعد مذبحة أبى فطرس ومصرع مروان فى مصر ، انهم أتوا على آخر الامويين وانه لم يبق منهم أحد على قيد الحياة ، وكان ذلك فى عامى ١٣١ و ١٣٢ للهجرة – أى ٧٤٩ و ٧٥٠ للميلاد .

ولكن الاقدار شاءت أن يفلت من يد السفاحين شـاب حفظ له التاريخ أجمل ذكرى بما أسسه من دولة فتية فى الاندلس ، وماتركه من أثر نفيس فى قرطبة ...

ذلك الشاب هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذى قدر له أن يوطد فيما بعد دعائم الدولة الاندلسية ، ويرفع منـار العلم والادب فى بلاد العرب ...

ولد فى دمشق . ومات أبوه وهو طفل فنشأ يتيما فى قصور الخلفاء

افلت عبد الرحمن من المذبحة وكان فى العشرين من عمره ومعه اخوه الصغير .

ولجأ عبد الرحمن واخوه فى بادىء الامر الى قرية صغيرة على ضفاف الفرات ، وتخفيا هنالك مدة من الزمن فى منزل رجل أمين من صنائع آبائهما وأجدادهما ، أضافهما ونصب نفسه حارسا على حياتهما وراحتهما ...

وعلم العباسيون بخبر نجاة الشاب فأطلقوا الخيل فى أثره ، وبحثوا عنه فى كل مكان ، ولكن العناية الالهية كانت تحرس الامير الشريد الطريد ، وكان من ناحية شديد الحذر ، قويا بالثقة التى امتلأت بها نفسه ، فلم تصل اليه يد أعدائه .

وكان لصاحب المنزل الذى لجأ اليه عبد الرحمن وأخوه فتاة تدعى « زبيدة » لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، تقوم بالاعمال المنزلية فى غياب أبيها ، الذى كان يزاول صيد الاسماك فى الفرات ...

وقعت عيناها على عبد الرحمن الفض الاهاب ، الجميل الطلعة ، فعلقته وأقامت من وراء خدرها ترقبه وترعاه فى روحاته وغدواته .

وكانت منذ البدء قد تسترت بلباس الرجال ، وبعلم أبيها الذى وافقها على هذه الحيلة ، زيادة فى الحذر ، وكيلا يشعر ضيفه الشاب بأى حرج خلال اقامته فى منزله .

خرجت الفتاة يوما لتمترى الماء ، فاذا بأعلام سود بدت من بعيد تخفق بين الاشجار . وأدركت زبيدة أن طلائع فرسان العباسيين تحوم فى ذلك المكان ، وتجوب البلاد طلبا لبقايا بنى أمية . فدلها قلبها على مصاب يهدد من تهواه ، وأسرعت عائدة الى المنزل ، وكان أبوها غائبا عنه ، لكى تنبه الضيف أيضا الى الخطر الداهم ...

لكنها فطنت الى أن بتنبيهه الى الخطر خطرا على حبها وحرمانا لها من استجلاء ذلك المحيا . فأنتجت لها فطنتها ان ترافق الشاب فى هربه وتقاسمه آلام النفى ومشاق الاسفار ...

تمنع عبد الرحمن فى بادىء الامر قائلا انه يؤثر الفرار بصحبة أخيه الصغير دون أن يعرض أحدا من أصحابه وأعوانه للهلاك . ولكن الفتاة ألحت عليه طالبة أن تكون دليلا له فى الصحراء . فقبل الشاب شاكرا مسرورا ، وخرج الثلاثة من منزل الصياد قبيل غروب الشمس ، والقوا بأنفسهم فى النهر لاجتيازه سباحة .

نزلوا الى الفرات وهم ثلاثة . لكن الفتى الصغير غرق فى النهر ،

ويقال ان سهما أصابه من مطارديه زبانية العباسيين ، فلم يصل الى الضفة الاخرى الا عبد الرحمن ورفيقته زبيدة . وكان عبد الرحمن يعرفها باسم « عبد الله ! »

***

اجتاز الفتيان قفار الشام فجبال لبنان ففيافى فلسطين فصحراء سيناء شريدين تائهين ، يختفيان نهارا ويسيران ليلا ، متسللين كاللصوص عائشين من الاستعطاء واستجداء الاكف ، حتى بلغا مصر وجاوزا القيروان

وهنالك كادت سيوف العباسيين أن تنالهما لان العيون والارصاد كانت قد نقلت الى الحاكم العباسى خبر الامير الهارب . وانما قدر الله ان يفلت البطل ويتابع السير مع رفيقته ولحق به خادم أمين يدعى «بدر» حمل اليه مالا وجواهر من أخته « أم الاصبع » . وانطلق الثلاثة — عبد الرحمن وبدر وزبيدة أو عبد الله — مبتعدين عن مواطن الخطر ، وبلغوا المغرب الاقصى حيث نزلوا على أعوان الامويين ومريديهم من البربر، وكانت أم عبد الرحمن بن معاوية من هؤلاء .

***

بعث عبد الرحمن بالفتاة والخادم — وهو لايزال يظن زبيدة رجلا — الى من كان بالاندلس مقيما على الولاء لبنى أمية .

وكان أهل الاندلس يومئذ على شقاق وانقسام مابين عربى يطالب بالسيادة ، وبربرى ينازع العربى فيها ، زد على ذلك انقسام العرب انفسهم الى مضرى ويمنى .!

أخذ بدر يبث الدعوة لمولاه ، وعرفت زبيدة كيف تستجلب القلوب الى من كان قلبها يهواه ، وأن تحمل رجال الجيش الذين كانوا من أصل شامى على أن يبايعوا سليل بنى أمية ، فأرسلوا وفدا منهم للترحيب به واستدعائه الى الجلوس على عرش آبائه . وكان ذلك فى أواخر الشهر التاسع سنة ٧٥٥ ميلادية — ١٣٧ للهجرة .

تغلب عبد الرحمن على أعدائه ومنافسيه ، واستقام له الامر، فجدد مجد العرب فى الغرب ، وبنى لعاصمة ملكه قرطبة سورا جديدا ، وشيد مسجدها الكبير ، وقصرها المنيف . وصار الخليفة المنصور يرهب جانبه ويقال انه هو الذى لقبه بصقر قريش !

وجعل عبد الرحمن بن معاوية فى بادىء الامر الخطبة للخليفة العباسى ، حتى اذا ما استقر فى ملكه الجديد وانتظم له الامر ، وأصبح فى وسعه الاعتماد على انصاره ومريديه اعتمادا كافيا ، قطع خطبة العباسيين واستقل بحكم امارته الاندلسية .

وعرف عبد الرحمن فى التاريخ باسم « الداخل » أى أول من دخل الاندلس من أمراء بنى امية ، بعد انتقال الملك منهم الى بنى العباس .

ولم ينس الشاب فى عزه ومجده شريكة شقائه وآلامه ، الفتاة زبيدة . فشاء أن يرفعها ، وهو لا يزال يظنها رجلا ، الى مصاف الوزراء !

***

خلت الفتاة بأميرها بعد أن خلعت عنها ثياب الرجال ، واذا به يرى فتاة ترنو بعينيها اليه . ولكن عبد الرحمن الذى عرف كيف يستعيد مجد آبائه ، لم يعرف أن يقرأ مافيهما من غرام ، وما تنمان عليه من وجد وهيام . فأعظم نفس الفتاة وبأسها ، ودعا رجال جيشه وعظماء قواده وفاخرهم « بفارسه الجميل » ، ذلك هو اللقب الذى خلعه عبد الرحمن على « زبيدة » .

ولكن الفتاة لم تركب متن الاهوال وتهجر خدر أبيها ووطنها طمعا فى نيل شهرة أو احراز جاه ، انما حملها الحب وحده على جناحيه ، فجرت تقطع الصحارى والديار لتنعم يوما بلقاء من تحب !

على أنها قرأت فى عينى عبد الرحمن سطورا غير التى كتبتها هى فى عينيها . فأصابها من ذلك غم وهم ، وأدركها وجد سار بها فى طريق اليأس !

لكنها عللت النفس بالآمال وباتت ترقب ساعة اللقاء ، ولم تدر أن عبد الرحمن كان منصرفا عنها الى رفع شأن مملكته ، والحنين الى بلاده ومسقط رأسه ، وقد نم عن حنينه الابيات الآتية التى نظمها فى ديار الغربة :

أيها الراكب الميمم أرضى	أقر منى بعض السلام لبعضى
ان جسمى كما تراه بارض	وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضى

***

فكر عبد الرحمن فى أمر الفتاة زبيدة ، واراد أن يعقد زواجها على قائد من كبار قواده ، أو أمير من أمراء مملكته ، ففاتح فى ذلك صديقه القائد الشاب عبد الملك بن قيس الغسانى ، فقبل الرجل شاكرا فرحا ماعرضه عليه مولاه !

ولما أفضى عبد الرحمن الى صديقته زبيدة بما يجول فى خاطره وبما

عزم على تنفيذه من امر زواجها ، طرحت نفسها على قدميه وبللتهما بالدموع قائلة :

ـ افعل ماشئت يامولاى فالامر أمرك والارادة ارادتك !

وامر عبد الرحمن باقامة الافراح فى القصر احتفالا بزفاف زبيدة . ودعا أمراء مملكته وقواد جيشه الى وليمة تصدرها بنفسه ، فتجلت قرطبة فى تلك الليلة بأبهى حلة من الانوار

لكنهم بحثوا عن زبيدة فلم يجدوها فى خدرها ... بل وجدوها فى حجرة الامير ، تذرف الدموع وتتأوه !

فأبلغوا الامر الى عبد الرحمن الداخل ، وصعد الامير بنفسه الى حجرته ، واذا به أمام الفتاة المسكينة تسلم الروح !

رفعت اليه نظرها ، فزالت الفشاوة عن عينيه وقرأ فى ذلك النظر ماكان يجب أن يقرأه من زمن بعيد !

عرف عبد الرحمن أن زبيدة لم تشاركه آلام الغربة ومشاق السفر الا لانها كانت تحبه ، وانها لم تلق بنفسها فى المخاطر والاهوال الا على أمل الوصال !

لكنه عرف ذلك بعد فوات الوقت ، فأكب على الفتاة يقبلها ، وقد علا جبينها اصفرار الموت !

رفعت اليه زبيدة نظرتها الاخيرة . وتمتمت كلمات لم يفهم منها عبد الرحمن الا كلمة واحدة :

ـ السم ! السم ! ..

فأخذ رأس الحبيبة المسكينة بين يديه ، وضمه الى صدره ، فلفظت زبيدة نفسها الاخير على ذلك الصدر ، صدر الرجل الوحيد الذى أحبه قلبها ، والذى لم يفطن الى ذلك الحب الا بعد أن توقف قلبها عن الخفقان !

وتساقطت الدموع غزيرة من عينى عبد الرحمن الداخل ، البطل العظيم ، الذى عرف أن يدبر شئون مملكة بأسرها ، ولكنه لم يعرف أن يداوى قلبا جريحا !

فوضع قبلة أخيرة على جبين رفيقته فى الهرب ، وتذكر ذلك البيت من الشعر الذى نظمه لوطنه :

قد قضى الدهر بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضى !.

ربيع الاندلس

« بريما فيرا » بالاسبانية معناها « الربيع » وربيع وبريمافيرا من أسماء العلم عند العرب وعند الاسبان . وهذه قصة حسناء أندلسية حملت هذا الاسم المزدوج :



ابو عبد الله محمد الحادى عشر آخر ملوك الاندلس وأمه عائشة
يلقيان نظرة اخيرة على غرناطة ..

حلة خضراء تكسو الجبل كله . تمتد من الوادى العميق حيث المياه المفردة ، وتتسلق السفح منسابة نحو القمة فتكلل هامتها ! والرياحين العطرة تتخلل الحلة الخضراء ، والازهار الزاهية ترصعها بأكمام مفتحة من الف لون ولون !

ربيع الأندلس يغزو الطبيعة ، ويبسط للناظرين لوحته الرائعة ، ويحيط دار « الرصافة » بسور لائق بها ، ويعانقها عناق الولهان المشتاق !

هناك ، فى ذلك الركن الهادىء ، على مقربة من عاصمة ملكه « قرطبة » كان صقر قريش عبد الرحمن الداخل قد شيد مقرا يلجأ اليه للراحة والاستجمام ، وسماه باسم عزيز على أسرته ، احياء لذكرى جده هشام ، صاحب دار « الرصافة » فى الارض الشامية ، يوم كانت دمشق عاصمة للامبراطورية العربية ، فى عهد الخلفاء الامويين .

كان عبد الرحمن قد نجا من بطش العباسيين بأفراد أسرته ، وظل مختبئا فى افريقيا خمسة أعوام ، دخل بعدها الاندلس فى سنة ١٣٧ للهجرة ، الموافقة لسنة ٧٥٥ للميلاد ، واستقر له الامر بعد سنتين فى قرطبة ، فأنشأ فيها الدولة الاموية الجديدة ، التى أعادت المجد الغابر ، وبلغت الاندلس فى عهدها أوج العزة ومنتهى الازدهار .

وكان بعد كل غزوة موفقة ، أو بعد كل عمل ناجح من أعمال العمران ، أو كل رحلة شاملة فى أنحاء المملكة ، يخرج الى الرصافة مع فريق من ذويه والمقربين اليه ، فيقضى فى الدار الانيقة أياما أو أسابيع ، بعيدا عن متاعب الحكم ، وعن ضوضاء المدينة .

فى سنة ١٦٣ هجرية ، الموافقة لسنة ٧٨٠ للميلاد ، جاء فصل الربيع أجمل منه فى السنين الماضية . وأوى عبد الرحمن كعادته الى ركنه المفضل ، وسط المروج والاشجار .

جلس الامير الشاعر فى ظلال تلك الجنة الاموية ، وحوله الاحباء من رفاقه ، والغيد الحسان من نساء القصر ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، يصغى الى أنغام العازفين وأغانى المنشدين ، ويستعيد ذكريات صباه فى ربوع الوطن الاول ، ويفكر ن أمجاد جديدة يضيفها الى أمجاد الماضى ، فى الوطن الثانى الذى استقر فيه

هاجت فى صدره الشجون، فراح ينظم أبياتا يستوحيها من حاضره

ومن المناظر الخلابة الممتدة حوله ، او يردد أبياتا نظمها من قبل ، فى ظروف مماثلة . ثم استقر نظره على نخلة باسقة ممشوقة ، تنشر فوق مجلسه مظلة اغصانها الكثيفة ، فتذكر ماقاله فيها يوم جلبها من واحة دمشق ، وغرسها فى الحديقة بيده ، وطفت تلك الابيات على لسانه:

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

فدمعت عيون . وانبعثت من الافواه كلمة اعجاب : « الله ! الله ! » ولكن واحدة من الحسان الحاضرات فى المجلس أجهشت بالبكاء ، وتصاعدت من فمها الزفرات ، وابتعدت عن المجلس بخطى سريعة ، واختفت بين خمائل الحديقة . وسرعان مانهض عبد الرحمن وخف فى أثرها ثم عاد بها الى المجلس وقد طوق خصرها بذراعه ، وراح يداعبها ويطيب خاطرها ، وقال لها بلهجة كلها عطف وحنان :

ـ فهمت مابك ياربيع . وهو لا يختلف عما بى أنا ، وعما بنا جميعا فى هذا المقام . فأنت هنا غريبة عن الديار . ونحن كلنا هنا غرباء عن الديار . لكن هذه البقعة الغالية المباركة من أرض الاندلس ، أصبحت لنا جميعا ، ولك أيضا ، بمثابة الوطن والحمى ! فهل تشكين من شىء فى كنفنا وبين ظهرانينا ؟

رفعت الصبية راسها ، ومسحت دموعها بكم ثوبها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة كئيبة : واجابت بصوت عذب متهدج النبرات :

ـ كلا يامولاى ، انى لا اشكو من شىء فى رحابكم ، فقد غمرتمونى بكرمكم ، واغدقتم على نعمكم ، وشملتمونى بمحبتكم ورعايتكم . ولكن هذا كله لا ينسينى الربع الذى جئت منه ، وبنى عشيرتى الذين هجرتهم والبيئة التى ولدت فيها ونشأت وترعرعت . فهل الام أيها المولى ، على حالة نفسية تنتابنى ، وانت نفسك تعانى مثلها ، وتعبر عنها باشعارك !

ـ أما زلت راغبة فى العودة الى ذلك الربع الذى جئت منه ، والبحث عن الاهل الذين هجرتهم ، كما افضيت الى منذ ايام ؟

ـ نعم يامولاى !

ـ اذن ، فليكن لك ماتريدين . وغدا ، سوف ارسل معك حرسا من رجالى الاوفياء ، الى حيث تريدين الذهاب !

قبل ذلك اليوم بعشرة اعوام او أكثر ، لجأت الفتاة الى قصر الامير عبد الرحمن الداخل بمدينة قرطبة ، ولم تخرج منه الا لمرافقته الى دار الرصافة .

ولدت ونشأت وترعرعت فى الجبال الشمالية من الارض الاسبانية . وكان أبوها « سانكو » من كبار قومه ، ومن الزعماء الوطنيين وقادة الثورات المتوالية فى تلك البقاع

كان يكره العرب وان كان معجبا بهم ، يقاتلهم فى الميادين ، وان كان يدرك أن القتال عقيم لن يزحزح الفزاة عن مراكزهم .

بيد أن الخلاف كان مستحكما بين الاسبانيين أنفسهم ، فكانوا يتقاتلون فيما بينهم ، ونشأت عن ذلك التناحر عداوات رهيبة ، جعلت حوادث الثأر والانتقام تتوالى وتتتابع . فقتل والد الفتاة واخوها الاكبر بيد عمها وأبنائه . وهرب أخوها الاصفر الى الغابات ، مصمما على البقاء فيها متأهبا للاخذ بثأر القتيلين ، وتسللت هى الى قرطبة ، حيث احتمت بعبد الرحمن فحماها واستضافها . وكانت فى الخامسة عشرة من العمر فأقامت فى القصر معززة مكرمة .

كان اسمها « بريما فيرا » بلغة قومها . فسماها العرب « ربيع » وهى الكلمة التى تقابل اسمها الاسبانى باللغة العربية .

وقد حاولت أن تتصل بأخيها الهارب ففشلت . وانقطعت أخبار الفتى عنها . ولم تعد تسمع عنه شيئا . لكنها علمت من المسافرين أن عمها وثلاثة من أبنائه قتلوا فى المعارك مع العرب أو فى الحروب الاهلية فى المناطق الشمالية ، ماعدا الابن الرابع والاخير

ألفت الحياة فى البيئة العربية التى انتقلت اليها ، وتعلمت لغة القوم فصارت تجيدها اجادة تامة ، وأحاطها الناس بالعطف والاحترام فوجدت فى يومها عزاء على ماحل بها فى أمسها . وعرض عليها عبد الرحمن ذات يوم أن يزوجها ، واختار لها الزوج الذى يريده لها من بين شبان أسرته ، ولكنها رفضت شاكرة ، وقالت انها لن تتزوج ، ولن تترك ثوب الحداد الاسود ، قبل أن يتم لاخيها الاخذ بثأر القتيلين ، أو يقتل هو فى هذا السبيل !

ومرت الاعوام ، وبلغت العشرة عددا ، ودخلت الفتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، ولم يبلغها خبر عن أخيها يعيد الطمأنينة الى نفسها ، أو يجعلها تستسلم نهائيا الى الحزن واليأس ، بلا أمل ولا رجاء . حتى كان يوم اشتد فيه حنينها الى جبالها الوعرة ، وشوقها الى معرفة ماحل بأخيها ، ورغبتها فى استنشاق الهواء الذى عبث بشعرها المسترسل

وهى صغيرة ، والارتواء من الماء الذى طالما عبث منه ملء كفيها من ينابيعه المتدفقة . وافضت الى عبد الرحمن بما يجول فى خاطرها ويختلج فى صدرها . فأثناها عن عزمها ، خوفا عليها من الهلاك ، وهى وحيدة ضعيفة لا حول لها ولا سند . ومرت أيام ..

وكانت تلك الليلة التى انشد فيها الامير الشاعر أبياته فى الحنين الى وطنه الاول ، والاشارة الى غربته ، فانفجرت كوامن الحزن فى صدر الفتاة ، وفاضت زفرات من فمها ، ودموع من عينيها ..

* * *

ونفذ الامير الشهم ماتعهد به ...

ففى اليوم التالى ، خرجت من قرطبة كوكبة من الفرسان بقيادة حارس بن عامر ، صديق عبد الرحمن وصفيه ، وكانت بريمافيرا الاسبانية ، أو ربيع العربية ، تسير معه جنبا الى جنب ، على متن جواد اصيل ، فى طليعة الموكب !

ولم تستغرق الرحلة غير بضعة أسابيع ، عادت بعدها الفتاة بصحبة حراسها ، وقد تبدلت حالتها النفسية ، وتبددت مسحة الكآبة عن محياها

حين وصلت الى الجبال الوعرة التى ظلت تحلم بها عشرة أعوام كاملة ، وتوغلت فى ثناياها ، واجتازت دروبها ومسالكها ، وعرفت ماكانت تتوق الى معرفته عن البقية الباقية من أسرتها ، التى خيل للفتاة أن اللعنة قد حلت بها ، فهلك أفرادها فى مأساة دامية ، عرفت أن أخاها أخذ بثأر أبيه وأخيه، فقتل بيده ابن عمه الذى نجا من الحروب والمعارك. ولكنه هو أيضا قتل فى موقعة بين الاسبانيين والعرب ، على حدود الأندلس .

بكت ربيع أخاها . ولكنها وجدت عزاء فى اقدامه على الأخذ بثأر العائلة فجفت الدموع فى عينيها ، وقررت العودة من حيث أتت ، والرجوع الى حمى القوم الذين حاربهم ذووها ، والذين استضافوها ورعوها بعنايتهم ، بالرغم من ذلك العداء !

لم يبق من أسرتها أحد ! ولم يعد لها فى الربع الذى نشأت فيه من تتجاوب مشاعره مع مشاعرها ، وتتفق ميوله مع ميولها ، ولا ما يحملها على هجر البلد الذى لجأت اليه للاقامة فى البلد الذى هاجرت منه

بكت مرة أخرى ، ولكن من الفرح ، عندما احتضنها عبد الرحمن الداخل وطبع قبلة على جبينها . وانطلقت من فمها هذه العبارات التى

اعربت بها عن شكرها ، وامتنانها ، وعزمها على ان تعيش فى قصر الامير ، كواحـــدة من نساء اسرته وبناتهـــا :

ـ انت لى بمثابة الاب والاخ ، أيها المولى العزيز ، واسرتك اهلى، وقومك عشيرتى ، وهذا البلد وطنى ، وهذا الربع ربعى . وهنا ساعيش بقية العمر .. وهنا سأدفن عندما تصعد روحى الى خالقها !

وقال عبد الرحمن مداعبا :

ـ والآن .. اما زلت على رأيك فى الزواج ؟ وعلى عنادك فى رفضه؟

فأجابت ربيع ضاحكة : كلا يامولاى « فقد أصبحت فى حل من القسم الذى قطعته على نفسى . وقد اخترت من بين رجالك المخلصين الاوفياء الرجل الذى اعتزمت ان اربط حياتى بحياته .. اذا وافقت انت !

واقترب حارس بن عامر من صديقه وسيده عبدالرحمن الداخل، واخذ يده ، وقبلها بحرارة ، ففهم عبد الرحمن ما حدث !

كانت رحلة حارس بن عامر الى الجبال لحراسة الفتاة فى ذهابها وأوبتها ، فرصة سانحة للشاب لكى يغزو قلبها ، ويستحوذ على رضاها

فقال عبدالرحمن :

ـ اننى أبارك هذا الزواج . فحارس بن عامر أحب أصدقائى الى نفسى !

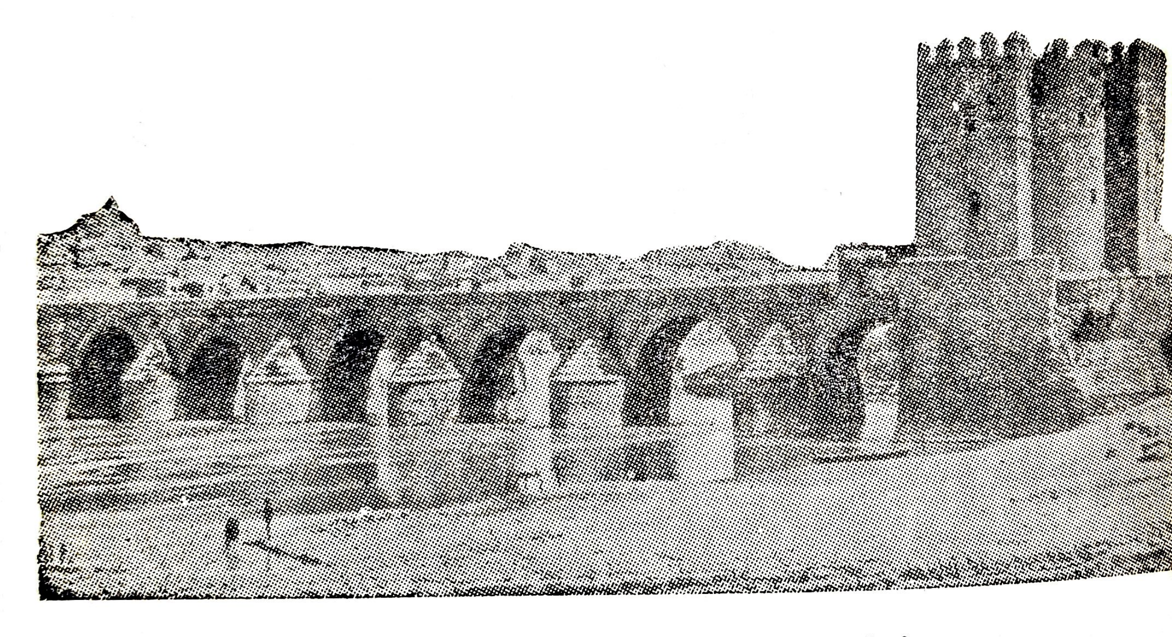
وفى حدائق « الرصافة » بين الاشجار والرياحين والازهـــار التى نقلت من دمشق الفيحاء الى ارض الاندلس ، والتى كان لحارس نصيب فى حملها ، وغرسها ، أقيمت الافراح والليالى الملاح. وكان ذلك فى منتصف الربيع ، من تلك السنة . الربيع الذى تحمل بريمافيرا اسمه !

وكانت هدية عبدالرحمن الداخل للعريس والعروس ، بيتا بالقرب من الرصافة ، جعلاه عشا لغرامهما ، وعاشا فيه عمرا مديدا !.

وظل عطف الامير الكريم النبيل يرعاهما حتى وافاه أجله ، فى سنة ١٧١ هجرية الموافقة ٧٨٨ للميلاد ، بعد حكم دام ٣٢ سنة . وكان فى السابعة والخمسين . وقد دفن فى القصر الذى بناه فى قرطبة .

عيد فى قرطبة

ليلة العيد كان الشـيخ وزوجته فى كوخ حقير ويوم العيد انتقـلا الى قصر منيف ! . .



جسر بناه العرب على الوادى الكبير ((جوادر الكيفير)) بقرطبة

عاد خالد الطبرى الى بيته بعد غروب الشمس ، متكئا على عصاه ، مرتعشا من البرد ، ففتحت له زوجته ، واجلسته برفق على الوسادة الوحيدة فى الحجرة الوحيدة ، قائلة بلهجة يمتزج فيها الحب بالعتاب :

– أين كنت منذ الصباح يا خالد ؟ الا تعلم أن القلق يتولانى كلما تغيبت عن البيت ؟

فأخذ الرجل يد المراة بين يديه ، وضغط عليها بلهفة وحنان ، واجاب مبتسما :

– أتخافين الى هذا الحد على زوجك الهرم المتهدم ياليلى ؟ نعم أن الشيخوخة شديدة الوطأة على . وقد ساعدتها الهموم فى القضاء على البقية الباقية فى من نشاط . ولكننى مازلت قادرا بمعونة الله على السعى وراء الرزق . ومادمت حيا لن تكونى فى حاجة الى أحد سواى !

– وأين قضيت نهارك منذ الفجر الى هذه الساعة ؟
– فى حدائق الأمير ..
– فى حدائق الأمير ؟ ..

– نعم ، فى حدائق عبدالرحمن الداخل ، مع البستانى عمر الذى تعرفينه . فقد ساعدته فى عمله ، وحصلت منه على بعض النقود ، ولن نقضى ليلة العيد غدا محرومين من كل شىء !

فطوقت ليلى عنق خالد بذراعيها ، واحتضنته كما تحتضن الأم وليدها ، وظل الاثنان صامتين جامدين ، وقلباهما يخفقان خفقانا شديدا ، أعاد الى ذهنيهما ذكرى عهد الشباب
وامتزجت على صدريهما دموع حارة تساقطت من عيون أطفأت متاعب الحياة بريقها !..
واشد الدموع حرارة فى بعض الاحيان دموع الشيوخ العاشقين المحزونين !

***

كان خالد الطبرى ، فى أواخر عهد بنى امية ، يقيم مع زوجته وابنائه السبعة فى قرية من قرى حوران ، وكانت القرية قبل الفتح الاسلامى تابعة للغسانيين النصارى .

بقى الرجل على دينه مثل آبائه واجداده ولم يزعجه المسلمون . بل كان ذلك النصرانى - كما كان آباؤه واجداده من قبل - يتاجر بالماشية ويعيش فى وئام وسلام مع الحكام والجند والاهلين على السواء

ورزق من زوجته ليلى الرشيقة الحسناء ، أبناء أشداء ، وضع فيهم آماله ، واراد أن يجعل منهم تجارا مثله ومثل أبيه وجده . ولكن الشبان كانوا جميعا يميلون الى الجندية ، ويتوقون الى الحرب والقتال ، فهجروا القرية والمراعى والحقول ، وذهبوا الى دمشق حيث التحقوا بالجيش الاموى فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية .

وما لبث كبيرهم ان اعتنق الاسلام فحذا حذوه الآخرون . وعندما عادوا الى أبيهم ، وأطلعوه على حقيقة أمرهم ، أجابهم قائلا :

- الدين عقيدة يا ابنائى ، فاذا كنتم فى عقيدتكم الجديدة صادقين فابقوا على الدين الذى اعتنقتموه . وليحرسكم الله ويسدد خطاكم فى خدمة مليك المسلمين !

***

ودارت الدائرة على الامويين ، وانهار ملكهم ، وهتكت أعراضهم ، وأهرقت دماؤهم ، وتكدست فى المدن والسهول والجبال اشلاؤهم ، وطارد العباسيون فلولهم فى كل مكان ، وانتقلت الخلافة الى بنى العباس ..

وأفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام من المذابح بمعجزة من الله ، وفر من أرض الشام الى مصر ، فالمغرب فالاندلس ، حيث بايعه الناس . وشيد للامويين عرشا جديدا . فانتقل ملكهم من الشرق الى الغرب ...

واقسم عبد الرحمن الاول ، وقد سماه الناس عبد الرحمن الداخل ، ان يحيى فى قرطبة ، مجد دمشق عاصمة آبائه .

ولحق به الى الاندلس جميع من بقى مواليا لاسرته من أهل الشام ، وكان بين النازحين من دمشق الى قرطبة أبناء خالد الطبرى السبعة ..

***

انقطعت عن الرجل اخبار أشباله ، بعد رحيلهم الى الاندلس ، فقلق واضطرب ، وجعل يرقب قدوم الوافدين من المملكة الاموية الجديدة ، ويبحث عنهم فى كل مكان ، ويسأل عن الشبان السبعة الذين لحقوا بصقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الى المغرب ، فعلم بعد طول الانتظار أن بعضهم قتل فى الحروب والبعض الاخر لايعرف أحد مقره ..

فعول خالد الطبرى على السفر للبحث عن ابنائه . واقرته زوجته على رايه . وبعد أن جمع الزوجان ما يملكان من مال ، توكلا على الله وشدا الرحال الى أرض الاندلس !

ووصلاها بعد شهور عديدة ، وبعد ان استنفدوا فى الطريق مالهما وصحتهما ، وحل الغريبان فى مربط القوافل بقرطبة ، وراح الرجل يبحث عن أولاده ويسأل عنهم الراحل والقادم ..

وانتهى به الأمر الى معرفة الحقيقة المؤلمة ، من عمر البستانى ، وهو رجل من سكان دمشق ، هاجر الى الاندلس مع من هاجر اليها من انصار بنى أمية ، على اثر انتشار الاخبار عن مبايعة عبد الرحمن الداخل فى قرطبة .

علم خالد الطبرى من صديقه عمر ، ان أولاده السبعة سقطوا فى الميادين الواحد بعد الآخر ، وانهم ماتوا جميعا والسيوف فى أيديهم ، فى جيش عبد الرحمن الذى كان يعدهم من خيار رجاله اخلاصا وتفانيا واقداما .

قتل الاخوة السبعة اذن فى سبيل عبد الرحمن . وخلفوا من بعدهم الحزن والحسرة لأبيهم وامهم . وبقى خالد وليلى وحيدين فى العالم ، وازحين تحت أعباء السنين ووطاه الفاقة !

فقد الرجل كل شيء : فقد ابناءه الابطال ، وفقد ماله ، وفقد صحته ، وفقد كل أمل له فى الحياة !

وعول على قضاء البقية الباقية من أيامه فى أرض الاندلس التى تضم رفات أبنائه !

واقام فى بيت صغير ، بل فى كوخ حقير ، خارج أسوار المدينة . وكان يخرج كل يوم فيطوف على الدور والمتاجر ، سعيا وراء رزقه ورزق زوجته ، بارشاد عمر البستانى الذى كان يعطف عليه ويرثى لحاله

واراد عمر ذات يوم أن يقنعه برفع أمره الى الامير ولى الامر ، قائلا له :

— أن عبد الرحمن ياخالد كريم النفس شهم شجاع رحيم .. وهو يجهل بلا شك ان لأبناء الطبرى السبعة الذين استشهدوا فى الحرب تحت رايته ، أبا وأما لاعائل لهما ولا سند ولا معين . فاذا اطلعته على امرك ، فهو صانع من أجلك أكثر مما تظن وتتصور .

ولكن الوالد المسكين ابى ان يعمل بنصيحة صديقه قائلا له بلهجة ملؤها الانفة وعزة النفس :

ـ كان خالد الطبرى يا عمر يعد أكبر تاجر فى بلدته . واسرته عريقة فى الحسب والنسب . وقد انجب للامويين سبعة من أبطالهم الصناديد ، ماتوا كما قلت لى والسلاح فى أيديهم . فهل يليق بى ، وانا التاجر الذى حط عليه الزمن ، ووالد أولئك الاشبال ، ان اتقدم اليوم الى امير الاندلس مستعطيا مسترحما متوسلا ؟ كلا ياعمر !.. فلو فعلت، لظن الأمير اننى اطالبه بثمن الدم الذى بذله أبنائى فى سبيله . وانا ما جئت الى هنا لهذا الغرض ، بل لمعرفة ماحل بابنائى . وقد عرفت ما جئت من أجله .. وا أسفاه ! . .

مرت الايام وخالد يزداد ضعفا على ضعف ووهنا على وهن . وذاق الزوجان التعسان أنواع الفاقة ، وعرفا آلام الجوع وعذاب الجسم المحروم من كل عناية . ولكنهما كانا راضيين ، لا يفوهان الى احد بشكوى ، ولا يطلبان من احد مساعدة . فاذا ربح خالد فى يومه بعض النقود أكل مع زوجته وشبع . واذا لم يربح فى يومه شيئا أسلم نفسه مع رفيقة حياته للطوى ، وشكر الله فى شبعه وجوعه على السواء !

ولكن عمر البستانى لم يرض بما حل بصديقه وزوجته ، ولم يقطع الامل فى ابلاغ عبد الرحمن الداخل خبر خالد وما وصلت اليه حالته..

وعزم على العمل بنفسه ، ومن دون أن يعلم صديقه بشىء

***

وفى ذلك اليوم الذى قضاه خالد الطبرى خارج بيته مع عمر فى حدائق القصر ، قال البستانى للوالد الحزين :

ـ خالد ، ان صحتك تسوء يوما عن يوم . ولا يسعنى ان اراك تخطو خطوات سريعة نحو القبر دون أن احاول مرة اخرى حملك على الذهاب الى عبد الرحمن فى قصره . وقد أطلعت احد ضباط الحرس على أمرك ، وهو من أبناء حوران مثلك ، فرق لحالك ، ووعدنى خيرا من أجلك .

فانتفض خالد وصاح بصديقه :

ـ انك تخالف ارادتى ياعمر ، وكانك تخالف ارادة الميت الاخيرة .. فانا شيخ هرم أصبحت على حافة القبر . ولا اريد ان اعيش يوما واحدا من التسول . وذهابى الى الأمير اشبه شىء بالسؤال ! اريد ان اكسب

الخبز الذى اكله مع زوجتى بعرق الجبين ، او اموت معها من الجوع . وما جئتك اليوم الا لكى اساعدك ، كما افعل من آن الى آخر ، مقابل دريهمات اتقاضاها من رئيس الخدم ، واستعين بها على قضاء ليلة العيد مع زوجتى فى راحة بال !..

فسأله عمر والدهشة بادية على وجهه :

ـ العيد ؟ وأى عيد تعنى يا خالد ؟

ـ عيد الفصح عندنا يا أخى . عيد قيامة السيد المسيح الذى بشر بالمحبة والاخاء !..

فقال عمر وقد زالت دهشته :

ـ حقا لقد نسيت ايها الصديق . نسيت انك نصرانى وان ابناءك هم الذين اعتنقوا الاسلام من دونك . فاذهب يا خالد ، عد الى ليلى ، واقضيا معا ليلة العيد بقدر ما تسمح لكما به من رغد وهناء هذه الدريهمات القليلة !

ووضع عمر فى يد صديقه ما كان يحمل من نقود ، وسار معه الى باب الحديقة ، وتمنى له ليلة سعيدة وعيدا مفعما بالآمال !

***

ظل الزوجان متعانقين ، ينظر أحدهما الى الآخر ، والعيون تتكلم دون سواها ، كأن الوقت لم يعد له عندهما حساب !.

ونسيا الطعام والشراب والرقاد ..

وفجأة ، سمعا وقع أقدام على الحصى ، بجوار الكوخ ، فى الطريق الضيق المؤدى اليه من أسوار المدينة ..

قالت ليلى :

ـ أتسمع ياخالد ؟

ـ أسمع .. من القادم ياترى ؟

ـ أوشك الليل ان ينتصف . الا يكون القادم لصا ؟

ـ وماذا تريدين ان يأخذ اللص من بيتنا . سندعوه الى مشاركتنا فى عشاء العيد !

وما انتهى خالد من كلامه ، حتى فتح الباب دفعة واحدة ، وظهر رجل يرتدى ثوبا ناصع البياض ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الفرح والحبور ، وقال بصوت رقيق :

ـ هذا ما جئنا من أجله يا خالد وقد حملنا العشاء معنا !

نهض خالد على قدميه ، ونظر الى الفريب الداخل عليه فلم يعرفه، ولكنه رأى وراءه رجلا عرفه لساعته ، فتمتم هذه الكلمة :

ـ عمر !

واستطرد الغريب قائلا :

ـ نعم ، لقد طلبت من صديقك عمر البستاني أن يصحبني الى بيتك ياخالد . فان عبد الرحمن يريد أن يقضي ليلة العيد هذه مع خادمه عمر ، ومع والد الفرسان الأشاوس الذين قاتلوا بجانبه قتال الابطال ، وماتوا ميتة الشجعان !

أراد خالد أن يتكلم فانعقد لسانه !

عبد الرحمن ! ان القادم اذن هو عبد الرحمن ! الامير الاموي الذي مات الاخوة السبعة من أجله ، وقد خرج من قصره في دجى الليل ، لزيارة شيخ وزوجته في كوخ حقير !

ـ عليك أن تعد لنا الطعام ياعمر ، وعلى أن أطلب من هذا الوالد العزيز أن يقص على قصته !

قال عبد الرحمن هذا ، وجلس على الارض ودعا الشيخ الى الجلوس عن يمينه ، والمرأة الى الجلوس عن يساره ، وقال :

ـ لقد أطلعني اليوم أحد رجال القصر على أمركما . وكان ينبغي لكما أن تفعلا ذلك منذ اليوم الذي وصلتما فيه الى قرطبة . ان عبد الرحمن الداخل لمدين بملكه الى أنصاره واتباعه . وكان أبناؤك يا خالد في طليعة الانصار والاتباع . فان لهم على دينا ، وأنا الآن سعيد، لأن قدومك مع زوجتك الى هذه المدينة يجعلني قادرا على وفاء الدين!

ـ مولاي !

ـ لا تخاطبني بهذا اللقب . فان صقر قريش قد حرم على انصاره واصدقائه مخاطبته به . ان جميع أبناء الشام اخوتي فأنا «عبد الرحمن» فقط !.

ـ عبد الرحمن !

ـ نعم . انا ابن الشيوخ من الانصار ، واخو الشبان منهم . انا شريك الاغنياء في أفراحهم ، ومقيل الفقراء من عثراتهم . أنا الرجل الذي لاينسى فضلا ياخالد ، ولابنائك على اكثر من فضل واحد

ـ عفوا ... يا عبد الرحمن !

ـ ان النصارى يحتفلون الليلة بعيد قيامة عيسى بن مريم من بين الاموات • وفى القرآن الكريم سيرة حياته وبعثه • أما سمعت واحدا من ابنائك يقرأ الكتاب يا خالد ؟

ـ سمعتهم جميعا يقرأونه يا عبد الرحمن !

فارتفع صوت صقر قريش بتلاوة الآيات البينات : « واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت انى أعوذ بالرحمن منك أن كنت تقيا . قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ... »

سكت عبد الرحمن الداخل لحظة ، ثم عاد يتلو : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وساد الصمت ...

وترقرقت دمعة فى عين ليلى !

وارتفع صوت عمر البستانى قائلا :

ـ المائد معدة !

وأكل الأربعة وشربوا . وكان عبد الرحمن يلاطف رفاقه وينسيهم بمداعباته وأحاديثه ونوادره الفارق العظيم بينه وبينهم . وطلع الفجر على الكوخ ، فكان فجر حياة جديدة لساكنيه !

قال عبد الرحمن :

ـ قضينا ليلة عيدكم معا يا خالد . عسى الله ان يعيده عليك وعلى رفيقة حياتك بالخير والبركة أعواما بعد أعوام ، وينسيك ما لقيته فى شيخوختك من احزان وآلام ، ويجعلك سعيدا على مر الليالى والايام !

اخذ خالد يد الملك وغمرها بالدموع والقبل ، وانحنى أمام سليل بنى أمية ، فأحاطه عبد الرحمن بذراعيه قائلا :

ـ انهض يا أبا الاشبال . فأنا ابنك يا خالد ! والآن ، لنعد الى المدينة ، فالحرس فى انتظارنا أمام الاسوار !!

ـ الحرس !

ـ نعم الحرس . فستدخل قرطبة اليوم موفور الكرامة يا خالد.
ويبقى هذا الحرس مقيما على باب قصرك !

ـ على باب قصرى ؟

ـ نعم ، على باب القصر الذى وهبته لك ، وفاء للدين .

***

اشرقت شمس عيد الفصح، فى سنة ٧٨٠ مسيحية = ١٦٣هجرية
ـ وفى المدينة سيد لم يعرفه رفاق عبد الرحمن الداخل من قبل . فقدمه
اليهم الامير الاموى بهذه الكلمات :

ـ صديق أسرتى، ورفيق أبى ، ووالد اخوتى ، الامير خالد الطبرى
النصرانى ، الذى أنجب سبعة من سيوف الاسلام !

الوفاء الدامى

كانا صديقين وزوجين لصديقتين . وأبى عليهما الوفاء الا أن يتعانقا فى الموت كما تعانقا فى الحياة

شقراء من جبال اسبانيا الشمالية ، ينبعث الضياء من وجهها الصبيح ، وتخرج العبارات من بين شفتيها الورديتين فى مزيج من الكلمات العربية والاسبانية ، وهى منهمكة فى الحديث مع رفيقتها « انوار » .

وسمراء من واحة الشام ، يشع الذكاء من عينيها السوداوين ، وتنطلق من بين اهدابها المكحلة سهام السحر الحلال ، وهى تعبر عما يجول فى خاطرها من أفكار وآراء ، فى حوار ليست أقل انهماكا فيه من رفيقتها « دولوريس » .

الاسبانية والشامية صديقتان ، وزوجتان لصديقين ، فقد أحبت « دولوريس » البطل « كريم بن سعد » القرطبى . وأحبت « أنوار » البطل « عبد القادر الرحمانى » الغرناطى . وتزوجت كل من الغادتين حبيبها ، وأقامت الاسرتان فى دارين متجاورتين ، فى الحى الجنوبى من مدينة « قرطبة » عاصمة الدولة الاندلسية الاموية

كان هذا النوع من الزواج قد أصبح مألوفا فى المدينة العظيمة : شبان من العرب يختارون رفيقات حياتهن من بين الحسان الاسبانيات، أو من بين الفتيات الوافدات على الاندلس من « بر الشام » أى سورية الوطن الأول ، أو من مصر والقيروان .

كانتا سعيدتين بما قدر لهما ، وبما نالتاه من حظ فى الحب وتوفيق فى الاختيار

فدولوريس يتيمة الابوين ، عاشت فى كنف عم لها ، كان يحارب العرب ثم تصافى معهم وأقام بين ظهرانيهم . ولم يمانع فى ان تصبح ابنة اخيه زوجة لشاب من شبانهم المرموقين

وأنوار يتيمة الابوين أيضا ، جاءت الى الاندلس بصحبة واحد من اقاربها ، مهاجرة معه من دمشق مسقط رأسها ، الى البلد الذى شيد فيه مواطنوها ملكا وانشأوا امه . ومثل الفتاة الأسبانية التى كانت اول صديقة عرفتها فى وطنها الجديد ، رافقها الحظ فى الحب والتوفيق فى اختيار الزوج

أما حديثهما فى تلك الليلة المقمرة ، على الأريكة الوثيرة التى تربعتا عليها ، أمام الشرفة المطلة على المدينة النائمة ، فهو ملىء بالهواجس والتشجون !

الهدوء الذى يعم قرطبة ، نذير شر لا دليل خير ، والسكون البادى فى الجو اشبه بذلك السكون الذى يسبق العاصفة ! والشر يهدد الاسرتين . والعاصفة ، ان هبت ، سوف تطويهما فى غمرتها

فى الحى ـ أو « الربض » ـ الجنوبى من العاصمة الكبيرة ، يعقد زعماء الفريق المناهض لصاحب العرش اجتماعاتهم المتوالية ، وهم على وشك ان يرفعوا راية العصيان فى وجه الملك « الحكم الاول ابن هشام الاول ابن عبد الرحمن الداخل ! »

تولى « الحكم » العرش بعد أبيه فى سنة ٧٩٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٨٠ للهجرة . ولم يكن بسلوكه عند حسن ظن الرعية به . فقد خالف فى ادارته لشئون الدولة ، وعنايته برفاهية الشعب ، ومعالجته للامور كبيرها وصغيرها ، مادرج عليه جده العظيم من حكمة ودراية وعدل وانصاف فان عبد الرحمن الداخل قد أعاد الى الامويين فى الاندلس ملكا ضاع منهم فى الشرق ، وترك لابنه ولحفيده من بعده عرشا رفيع العمد متين الاركان ! ثم جاء هشام بن عبد الرحمن فاخطأ اكثر مما أصاب . . .

وخلفه ابنه الحكم الأول ، فكان قاسيا جبارا . واثارت تصرفاته الخلاف بين الرعية ، فناصره فريق ، وعارضه فريق ، وبلغت النقمة عند الفريق المعارض حد الخروج عن طاعة الملك ، والتهديد بالثورة

وكريم بن سعد ، زوج دولوريس الاسبانية ، وصديقة عبد القادر الرحمانى ، زوج انوار الشامية ، من أنصار المعارضة ودعاة الثورة

لكن الاقدار شاءت أن يكون الصديقان متفقين فى الميول الواحد مع الآخر ، ومختلفين فى الراى كل منهما مع اخ له ، من المؤيدين للعرش ، والمقربين من الحكم بن هشام

هاشم بن سعد ، اخو كريم ، يقود كتيبة من فرسان الحرس الملكى . وعبد الرحمن الرحمانى ، اخو عبد القادر ، حاجب من حجاب القصر ، وهذا وذاك من أوفى الاوفياء للحكم ، ومن الد اعداء « أبى حفص عمر بن شعيب » اقوى زعماء المعارضين الثائرين نفوذا ، واوفرهم جرأة واقداما

فاذا نشبت الثورة ، وعمد الفريقان المتخاصمان الى تحكيم السيف ، فقد يجد كل من الصديقين نفسه وجها لوجه مع اخيه ، فى ميادين القتال : هذا ما يشغل بال الزوجتين المخلصتين ، دولوريس وانوار . . . . !

بيف ــ ماما ، كنت أجول ، ولكنك تعرفين جيدا ، كيف كنت أفكر فيكم دائما ، أنت تعرفين .. أليس كذلك ؟

لندا ــ أعرف .. أعرف .. ولكنه يحب أن يتلقى خطابا ، حتى يظل الأمل فى شىء أفضل حيا فى قلبه .

بيف ــ أظنه ليس دائما هكذا ، أليس كذلك ؟

لندا ــ تسوء حالته الى أقصى حد عند عودتك للبيت .

بيف ــ عند عودتى ؟

لندا ــ عندما تكتب لنا عن عودتك ، يمتلىء وجهه بالابتسام ، ويتحدث عن المستقبل ، وكلما اقترب موعد حضورك ، زاد اضطرابه ، وفى اللحظة التى تصل فيها ، يصبح عنيفا ويبدو عليه الغضب منك ، أظن .. أظنه لايستطيع أن يفتح قلبه لك . لماذا تكرهان بعضكما الى هذا الحد ؟ لماذا ؟ ..

بيف ــ ماما ، أنا لا أكرهه .

لندا ــ ولكنك لاتكاد تضع قدمك على عتبة الباب حتى يبدأ الشجار !

بيف ــ لاأدرى ، وسأحاول أن أغير نفسى ، ماما اننى أحاول .

لندا ــ هل عدت لتبقى ؟

بيف ــ لا أدرى ، أريد أن أبقى قليلا لأرى مايمكن عمله .

لندا ــ بيف لاتستطيع أن تقضى حياتك فى التنقل . هل هذا ممكن !

بيف ــ ماما لا أستطيع أن أمسك شيئا ، لا أستطيع أن أمسك بأسلوب معين للحياة .

لندا ــ بيف ، الرجل ليس طيرا يذهب ويعود مع الربيع .

بيف ــ شعرك .. (يلمس شعرها) يا أماه !

لندا ـ أبيض منذ أن كنت فى المدرسة العليا • توقفت عن صبغه ، هذا كل الفرق •

بيف ـ اصبغيه أرجوك • لا أحب أن أرى فتـــاتى امرأة عجوزا (يبتسم) •

لندا ـ يالك من ولد ! تظن فى استطاعتك أن تختفى عاما ثم •• فلتعلم ـ اذن ـ أنك ســـتطرق هـــذا البـــاب يوما •• وســـيفتح لك أناس غرباء ••

بيف ـ ماذا تقولين ! أنت لم تصلى الى الستين بعد ••

لندا ـ وماذا عن أبيك ؟

بيف ـ (يتخاذل) وهو كذلك •

هابى ـ انه يحب بابا •

لندا ـ بيف ان كنت قد فقدت عاطفتك نحوه فلن تستطيع أن تحتفظ بأى عاطفة لى •

بيف ـ بالتأكيد أستطيع •

لندا ـ لا لن تستطيع أن تحضر لمجرد رؤيتى ، لأننى أحبه (بتهديد الا أنه تهديد كله دموع) انه أحب رجل الى فى العالم ، ولن أسمح لمخلوق أن يدعه يحس بأنه غير ضرورى وضئيل ؛ عليك أن تقرر موقفك الآن • حبيبى لم يعد ثمة هروب بعد اليوم ، اما انه أبوك ؛ وعليك أن تقدم له كل فروض الاحترام ؛ أو تذهب ولا تعـــود أبدا • اننى أعلم انه من الصعب الاتفاق معه •• مامن أحد يعرف هذا أكثر منى ولكن ••

ويلى ـ (يقدم من اليسار وهو يضحك) بيفو !

بيف ـ (يقف ليذهب وراءه) ماذا أصـــابه بحق جهنم ؟ (هابى يوقفه) •

لندا ـ لاتقترب منه •

بيف – كفى عن الاعتذار له! طول عمره يمسح البلاط معك •طول عمره ما احترمك أبدا •

هابى – لا – كان دائما يحترم ••

بيف – ماذا تعرف عن هذا كله بحق جهنم ؟

هابى – (بتأكيد) فقط لاتصفه بأنه مجنون !

بيف – لاخلق له •• فشارلى لن يفعل هذا •• فى بيته •• ويقذف هذا القىء من فمه •

هابى – ماكان على شارلى أن يواجه مايواجهه •

بيف – هناك من حالتهم أسوأ من ويلى لومان • صدقينى •• لقـــد رأيتهم ! ••

لندا – اذن اتخذ من شارلى والدا لك • بيف لن تستطيع أن تقترف هذا الاثم كله • لا أقول انه رجل عظيم ، والا كسب الكثير من المال فى حياته ، وما نشرت الصحف اسمه أبدا • وليس هو أعظم الشـــخصيات التى عاشت على الأرض •• ولكنه انسان ، وثمة شىء فظيع يحـــدث له الآن • اذن فضريبة العناية والاحترام يجب أن تدفع • ويجب ألايسمح له بأن يسقط فى قبره ككلب عجوز • أبدا •• أبدا •• العناية والتكريم لابد أن تقدما لمثل هذا الانسان • وأنت تصمه بالجنون •

بيف – لم أقصـــد ••

لندا – كثيرون هم الذين يعتقدون أنه فقد توازنه ، ولكنك لن تحتاج الى ذكاء كبير لتعرف سر متاعبه • لقد أضناه التعب !

هابى – بالتأكيد •

لندا – والرجل الصغير يضنيه التعب تماما كما يضنى الرجل العظيم، انه يعمل لشركة منذ ستة وثلاثين عاما • وفتح لهم مجـــاهل الأرض ، والآن وفى شيخوخته تحرمه من مرتبه •

هابى ـ « بكبرياء » ماما ، لم أكن أعلم .

لندا ـ لأنك لم تسأل قط ، ولأنك تحصل على مصاريف جيبك من جهة أخرى ، فأنت لا تعنى بالسؤال .

هابى ـ ولكنى أعطيتك مالا ..

لندا ـ على الكريسماس خمسين دولارا ، ولكى نصلح جهاز الماء الساخن تتكلف سبعة وتسعين دولارا ونصف ، ومنذ خمسة أسابيع يعمل بالعمولة فقط .. كمبتدىء .. كأى شخص نكرة .

بيف ـ أولاد الزنا ناكرو الجميل .

لندا ـ وهل هم أسوأ من أولاده ، عندما كان يبيع لهم مايصنعونه ، عندما كان شابا .. كانوا يرحبون به ويستمتعون برؤيته . واليوم لقد مات أصدقاؤه جميعا أو اعتزلوا العمل ، مات أصدقاؤه الذين كانوا يجدون دائما مايشترونه منه ، وكان يستطيع أن يقوم بست أو سبع زيارات فى اليوم ، والآن انه يأخذ حقائبه من السيارة ؟ ثم يعيد الحقائب اليها ثم يأخذها مرة ثانية . لقد تعب تماما ، وليس الكلام عنده الآن الا بديلا من المشى الذى عجز عنه . واذا سافر سبعمائة ميل ووصل ، فليس ثمة من يعرفه هناك ، ولن يجد من ينتظر قدومه . وما أدراكم مايدور فى عقل رجل قطع سبعمائة ميل دون أن يكسب سنتا واحدا . لماذا بحق السماء لايتحدث الى نفسه ، لماذا ؟ وعندما يذهب الى شارلى ليستدين منه خمسين دولارا يقدمها الى زاعما انها مرتبه ، فالى متى يستطيع أن يمضى فى هذا الى متى ؟ أترى ما أقيم هنا فى انتظاره وما ينتظرنى فى القريب ، وأنت تقول لى انه رجل بلا خلق ، الرجل الذى لم يعمل يوما واحدا الا فى سبيلكما .. ليستدير فى سنته الثالثة والستين فيجد ولديه ، اللذين أحبهما أكثر من نفسه ، أحدهما متشرد ضائع ..

هابى ـ ماما !

لندا ـ هذا كل مافيك ياطفلى الصغير ! « الى بيف » وأنت ، ماذا

حدث للحب الذى كان يملأ قلبك له ! ماكان أجملكما معا ! وحديثك كل ليلة معه بالتليفون ! وما أشد وحدته حتى كان يعود اليك من غربته !

بيف ـ طيب ياماما ، سأقيم فى غرفتى وسأجد لنفسى عملا . سأظل بعيدا عنه . هذا كل ماعندى .

لندا ـ لا يابيف لن تستطيع أن تقيم هنا لنتشاجر طول الوقت .

بيف ـ أنت تذكرين جيدا ، لقد طردنى من البيت .

لندا ـ ليتنى أعرف لماذا فعل هذا .

بيف ـ لأننى أعرف أنه خداع ولأنه لايريد أن يترك أحدا حوله ويعرف سره .

لندا ـ لماذا خداع ، بأى شكل ؟ وماذا تعنى ؟

بيف ـ فقط لاتلقى كل المسئولية على ؟ هذا شىء بينه وبينى ؟ وهذا كل ما أستطيع أن أقوله . سأساهم منذ اليوم ، وسأدفع فى البيت نصف ما أكسب . وسيكون مسرورا بهذا ؟ وأنا ذاهب لأنام « يصعد ».

لندا ـ لن يسر بهذا .

بيف ـ « يدور على السلم بوحشية » أنا أكره هذه المدينة وسأقيم هنا . والآن ماذا تريدين ؟

لندا ـ بيف والدك يموت .

(يندفع هابى نحوها وقد صدمه القول)

بيف ـ (بعد صمت طويل) ولماذا يموت ؟

لندا ـ كان يحاول قتل نفسه .

بيف ـ (برعب فظيع) كيف ؟

لندا ـ اننى أعيش من يوم الى يوم .

بيف ـ عم تتكلمين ؟

لندا ـ أتذكر ؟ قد كتبت لك انه اصطدم بالسيارة مرة ثانيـة ، فى فبراير !

بيف ـ آه

لندا ـ جاء مفتش التأمين ، عندهم أدلة ؛ ان كل الحوادث التى وقعت فى العام الماضى لم تكن ٠٠ لم تكن حوادث ٠

هابى ـ كيف يستطيعون أن يقولوا هذا ؟ هذه فرية ٠

لندا ـ يبدو أن هناك امرأة (تأخذ شهيقا عميقا فى الوقت ٠٠)

بيف ـ (بحدة ولكن دون اندفاع) أى امرأة ؟

لندا ـ ماذا قلت ؟

بيف ـ لا شىء ٠

لندا ـ ماذا قلت ؟

بيف ـ لاشىء ٠ قلت أى امرأة !

هابى ـ ماذا تعرفينه عنها !

لندا ـ يبدو أنها كانت تسير فى الطريق ورأت سيارته ٠ وهى تقول انه لم يكن يسير أبدا بسرعة وان السيارة لم تنزلق ٠ انه ماكاد يصل الى الكوبرى ، حتى صدم حاجزه بقصد ولو لم يكن الماء قليلا لغرق ٠

بيف ـ أوه ٠ لا ٠ لعله نام أثناء قيادة السيارة ٠

لندا ـ لا أعتقد هذا ٠

بيف ـ ولم لا ؟

لندا ـ فى الشهر الماضى ٠٠ (بصـعوبة كبيرة) آه ياأولادى ٠٠ ياأولادى ما أصعب أن أقول هذا الكلام ! انه بالنسبة لكما رجل غبى عجوز ، ولكنى أقول لكما ان فيه من الخير ما يفوق الكثير من الناس (تختنق بعبراتها وتمسح دموعها) كنت أبحث عن فيش فقد احترق النور فى

البيت وذهبت الى السرداب وهناك خلف صندوق الادوات الكهربية سقطت قطعة من المطاط طولها يكفى فقط ..

هابى - كلام جد !

لندا - وفى نهاية أنبوبة المطاط هذه وجدت فتحة . وأدركت على الفور .. فهناك فى قاع السخان وجـدت فتحة جديدة فى ماسورة الغاز .

هابى - (غاضبا) المتعفن الجاف .

بيف - وهل أخذتها بعيدا ؟

لندا - خجلت .. خجلت أن أفعل هذا . كيف أستطيع أن أشير اليها أمامه ؟ كلما جاء صبح ذهبت الى البدروم ورفعتها ، ولكن اذا عاد ؛ فاننى أعيدها مكانها . كيف أجرؤ على أن أهينه بهذا الشكل؟ ولا أدرى ماذا أنا فاعلة . انى أعيش - يا أولادى - من يوم الى يوم . وأنا أعلم كل مايدور فى رأسه ، وقد يبدو هذا كلاما قديما وتافها ، ولكنها الحقيقة ، لقد وضع كل آماله فيكم ، فلما جاء الوقت أدرتم ظهوركم له (تنحنى على مقعدها ، ووجهها غارق بين كفيها تبكى) بيف اننى أقسم بالله العلى ، ان حياته فى يدك !

هابى - (موجها حديثه لبيف) مارأيك فى هذا الغبى الملعون !

بيف - (يقبل أمه) طيب ياماما طيب . لقد عرفنا كل شىء الآن . قد كنت ضائعا . مفقودا . ولكننى وجدت . سأبقى . أقسم لك أننى سأبقى وسأهذب نفسى (يركع أمامها فى حمى تأنيب الضمير) السبب .. السبب اننى لم أستطع الانسجام مع الوظائف هنا . ولكن سأحاول .. سأحاول وأنجح .

هابى - بالتأكيد ستحاول ، عيبك أنك لم تحاول أبدا أن تسر الناس .

بيف - أنا أعلم هذا .

هابى ـ كما فعلت عندما كنت تشتغل عند هاريسون ـ قال عنك أنك كنت فى القمة ، ولكنك ترتكب فجأة عملا غبيا ؛ كأن تصفر أغنيات كاملة فى المصعد ؛ وكأنك ممثل هزلى .

بيف ـ (بعنف لهابى) ثم ماذا ، أحب أن أصفر بعض الأحيان .

هابى ـ وأنت لاترقى رجلا يصفر فى المصـــعد الى أى مركز هام !

لندا ـ كفا عن المناقشة الآن .

هابى ـ كأن تذهب فى عز النهار للسباحة ، بينما المفروض أن تؤدى عمـــلا ..

بيف ـ (يتزايد اشمئزازه وغضبه) وأنت تزوغ وخاصة فى أيام الصيف الجميلة .

هابى ـ نعم ، ولكنى لا أدع أحدا يكشفنى !

لندا ـ يا أولاد ..

هابى ـ عندما أزوغ ، يستطيع المدير أن يطلب كل أرقام التليفونات التى يفترض وجودى فيها . وسيقسم الاولاد جميعا اننى كنت موجودا منذ لحظة واحدة ، وما أنا أقول لك شيئا ، أكره أن أقوله لك ، فى دوائر الاعمال يعتقد البعض أنك مجنون .

بيف ـ (غاضبا) لعنة الله على دوائر الاعمال .

هابى ـ حسنا ـ العن دوائر الاعمال . عظيم . ولكن لاتدع أحدا يكشفك .

لندا ـ هابى ، هابى .

بيف ـ لايهمنى مايقولونه ! وقد ضحكوا على والدنا سنوات وسنوات أتعرف لماذا ؟ لاننا لا ننتسب لهذه المدينة المجنونة ! كان أفضـــل لنا أن نخلط الأسمنت فوق سهل عريض . أو نعمل نجارين . فالنجار له حق الصفير .

(يدخل ويلى من الباب الجانبى الى اليسار) .

ويلى ـ حتى جدنا كان أفضل من نجار (صمت ، الجميع يراقبونه) أنت لاتتكبر أبدا ، برنار لايصفر فى المصعد .

بيف ـ (كأنما يحاول اضحاك والده) آه بابا ، ولكنك تصفر ...

ويلى ـ عمرى ماصفرت فى مصعد ! ومن يظننى مجنونا فى دوائر الاعمال ؟

بيف ـ لم أقصد هذا . بابا أرجوك ألا تسبب أزمة بسبب كلمة .. أرجوك .

ويلى ـ عد الى الغرب ! كن نجارا ، كن راعى بقر ؟ متع نفسك .

لندا ـ ويلى ، قال منذ لحظة ..

ويلى ـ سمعت ماقاله .

هابى ـ (محاولا تهدئة ويلى) بابا ، تعال ..

ويلى ـ (مقاطعا) يضحكون على ، أيه ؟ أذهب الى شركة فيلين ؟ اذهب الى هاب .. اذهب الى سلاتارى . واذكر اسم ويلى لومان ثم اشـــهد مايحدث بعد ذلك . نجم ناجح .

بيف ـ حسنا .

ويلى ـ نجم !

بيف ـ طيب .

ويلى ـ لماذا تشتمنى دائما .

بيف ـ لم أقل كلمة واحدة (الى لندا) هل قلت شيئا ؟

لندا ـ ويلى لم يقل شيئا .

ويلى ـ (يتجه الى باب الصـالة) طيب ، سعدتم مساء سعدتم مساء

لندا ـ عزيزى ويلى . لقد قرر ...

ويلى ــ (لبيف) عندما يقتلك السأم غدا • اطل السقف الذى ركبته للصالة •

بيف ــ سأغادركم صباح غد •

هابى ــ سيذهب لمقابلة بل أوليفر •

ويلى ــ (باهتمام) أوليفر ؟ لماذا ؟

بيف (بحذر ولكنه يحاول ويحاول) كان يقول دائما انه على استعداد لمساعدتى • وأريد أن آخذ مكانى فى ميدان العمل فلربمــا ساعدنى •

لندا ــ أليس هذا رائعا ؟

ويلى ــ لاتقاطعى • أين هى الروعة ! أكثر من خمسين رجــلا فى نيويورك على استعداد لتمويله (لبيف) أدوات رياضية •

بيف ــ أظن هذا ــ فلدى بعض العلم عنها •

ويلى ــ لديه بعض العلم عنها • بحق السماء أنت تعرفها خيرا من سبولدنج • كم سيعطيك ؟

بيف ــ لاأعلم ، فأنا لم أره بعد ولكن •••

ويلى ــ اذن عم تتكلم ؟

بيف ــ (يستفز غضبه) كل ماقلته هو أننى سأذهب لمقابلته غدا • سأذهب لأنام

ويلى ــ (وهو يستدير بعيدا) أنت تعد كتاكيتك مرة أخرى •

بيف ــ (يتجه الى اليسار نحو السلم) أوه •• ياالهى ••

ويلى ــ (صائحا من ورائه) لاتسب فى هذا البيت •

بيف ــ يستدير له) ومنذ متى أصبحت طاهرا الى هذا الحد •

هابى ــ (محاولا ايقافه) انتظر •

ويلى ــ لاتوجه الى هذه العبارات •• لن أقبل هذا •

هابى – (ممسكا ببيف وهو يصيح) انتظر لحظة، عندى فكرة .. فكرة معقولة تعال يابيف ، دعنا نناقشها .. دعنا نتكلم بعقل . عندما كنت فى فلوريدا . راودتنى فكرة جبارة لبيع أدوات الرياضة ، وقد عادت الفكرة الآن . نفتتح محلا ، أنت وأنا ، محل لومان ونتدرب أسبوعين ثم ننظم بضعة معارض .. ايه ؟

ويلى – هذه فكرة .

هابى – انتظر ! نكون فريقين لكرة السلة وفريقين لكرة الماء .. ويتبارى الفريقان وهذا اعلان يساوى مليون دولار ، الشقيقان لومان واستعراضات فى رويال بالمزو كل الفنادق ، وأعلام فوق الملاعب .. الشقيقان لومان . وهنا نستطيع أن نبيع مانشاء .

ويلى – هذه فكرة تساوى مليون دولار .

لندا – رائع !

بيف – أنا مستعد تماما لهذا المشروع .

هابى – والجمال الذى فيه . لن تكون له عيوب العمل . سنلعب الكرة مرة أخرى .

بيف – (بحماس) آه ...

ويلى – مليون دولار .

هابى – ولن تسأم هذا العمل أبدا . انها العائلة .. مباراة أخرى سنستعيد من جديد جو الزمالة ، واذا أردت أن تذهب للسباحة .. ستفعل دون أن تخشى أن يسبقك شخص آخر .

ويلى – تكسبون العالم .. أنتما ياولدى تستطيعان أن تكسبا العالم المتحضر بأجمعه .

بيف – سأذهب الى بيل أوليفر غدا ، ولو استطعنا أن ننفذ هذا .

لندا – ربما تدبر الحياة لنا .

ويلى ـ (بحماس جنونى يصيح فى لندا) كفى عن المقاطعة (لبيف) ولا ترتد سترة رياضية عندما تذهب الى أوليفر .

بيف ـ لا ..

ويلى ـ سترة عمل .. وتكلم قليلا بقدر الامكان .. ولا تلق أى نكتة ..

بيف ـ كان يميل الى فعلا .. دائما .

لندا ـ كان يحبك .

ويلى ـ (الى لندا) كفى عن الكلام ! (لبيف) ادخل اليه بجد تام، فأنت لاتتقدم لعمل يشغله الفتيان .. فالنقود ستتكلم .. كن هادئا .. رقيقا جادا ، فكل الناس يحبون الرجل الضاحك ، ولكن مامن أحد يسلفه نقودا .

هابى ـ سأحاول أن آخذ منه بعض المال لنفسى . أنا واثق أننى أستطيع ذلك .

ويلى ـ أرى مستقبلا عظيما ينتظركما ، أعتقد أن متاعبنا قد انتهت، ولكن تذكروا من يبدأ كبيرا ينتهى كبيرا .. اطلب خمسة عشر .. كم ستطلب منه ؟

بيف ـ أوه .. لاأعلم .

ويلى ـ ولا تقل أمامه أوه فهذه تعبيرات أولاد والرجل الذى يدخل ليطلب خمسة عشر ألفا لايقول « أوه » .

بيف ـ عشرة ، أظنها الحد الأقصى .

ويلى ـ لاتتواضع الى هذا الحد ، انت دائما تبدأ من أقل درجة : أدخل وفى فمك ضحكة كبيرة ولا تبد قلقا . وابدأ حديثك بقصة أو قصتين من قصصك الطيبة لتخفف الجو . وليست العبرة بما تقول .. ولكن بالطريقة التى تقول بها ، لأن الشخصية القوية تفوز دائما .

لندا ـ أوليفر كان دائما يقدره ...

ويلى ـ دعينى أتكلم .

بيف ـ بابا ، لاتصيح فى وجهها .

ويلى ـ (بغضب) كنت أتكلم ، أليس كذلك ؟

بيف ـ لاأود ان أسمعك تصرخ فى وجهها دائما .. وهذا ماأريد أن أقوله لك .. خلاص .

ويلى ـ من أنت ، أتستولى على البيت ؟

لندا ـ ويلى ..

ويلى ـ (يستديراليها لاتقفى بجانبه دائما ـ لعنةالله على كل شىء

بيف ـ (بغضب هائج) كف عن الصريخ فى وجهها .

ويلى ـ (فجأة ينهار ويقر بالهزيمة ويحس بالذنب) بلغ تحياتى لبيل أوليفر . ربما تذكرنى .. (يخرج خلال باب الصالة) .

لندا ـ (وقد انكسر صوتها) لم تبدأون هـذا كله ؟ (يذهب بيف بعيدا) كم أصبح رقيقا بمجرد أن تحدثت عن الغد بأمل (تذهب الى بيف) تعال اقرئه تحية المساء .. لاتدعه ينام بهذا الشكل .

هابى ـ تعال يابيف .

لندا ـ عزيزى أرجوك .. قل له «تصبح على خير» ما أقل ماتعانيه لتجعله سعيدا ، تعال (تعبر الصالة وتخرج للباب ثم تنادى) ويلى بيجامتك معلقة فى الحمام .

هابى ـ (ينظـر فى الاتجاه الذى ذهبت اليه لندا) يالها من امرأة .. حطموا القالب بعد أن صنعوها .

بيف ـ حرموه من المرتب . . ياالهى .. ويعمل بالعمولة فقط .

هابى ـ فلنواجه المشكلة .. لم يعد بائعا ممتازآ .. فيما عدا أنه فى بعض الأحيان له شخصية جذابة .

بيف ـ (بحزم) أعطنى عشرة دولارات • أريد أن أشترى كرافتات جديدة •

هابى ـ سآخذك الى محل أعرفه •• بضائعه ممتازة ارتد واحدا من أقمصتى غدا •

بيف ـ ماما شعرها أبيض •• تقدمت بها السن كثيرا •• سأذهب غدا لأوليفر وسآخذ منه •

هابى ـ تعال نصعد الى بابا •• وقل له هذا حتى يرتاح ، تعال •

بيف ـ (بحماس) أتعلم بعشرة آلاف دولار •

هابى ـ (يتحركان نحو الصالة) هذا هو الكلام الذى أريد أن أسمعه

بيف هذه هى المرة الاولى التى أحس فيهـــا بالثقة القديمة (من داخل الصالة ، الصوت يضعف) سنقيم معا ، وأى بنت تريدها ؟ فقط قل كلمة واحدة • (يصعدان السلم فى طريقهما الى غرفة نوم ويلى) •

لندا ـ (تدخل غرفة النوم وتخاطب ويلى وهو فى الحمام ، تصلح فراشه) ألا تستطيع أن تصلح الدش انه ينقط ؟

ويلى ـ (من الحمام) فجأة ينهار كل شىء •• هؤلاء السباكون ، يجب أن نقاضيهم ماأكاد أنتهى من تركيب شىء جديد حتى •• (تذوب كلماته فلا تسمع) •

لندا ـ لست أعلم اذا كان أوليفر سيتذكره •• مارأيك ؟

ويلى ـ (يخرج من الحمام بالبيجامة) يتذكره ؟ ماذا بك ؟ هل جننت لو بقى مع أوليفر لأصبح اليوم فى القمة ، انتظرى حتى يراه أوليفر •• أنت لاتعرفين الرجل العادى اليوم (يدخل فراشه) لايمكن أن تعطيه الا صفرا ، أعظم هدف فى العالم بالنسبة له كاد أن يظل صعلوكا •

(يدخل بيف وهابى الغرفة ، لحظة صمت) •

ويلى ـ (يتوقف عن الحديث وينظر الى بيف) سرنى أن أسمع ماقلت

هابى ـ أراد أن يقرئك تحية المساء .

ويلى ـ آه .. اعطه الضربة القاتلة ، ياولد ! ماذا تريد أن تقول لى؟

بيف ـ لاتزعج نفسك .. هذا كل ماأريد قوله .. تصبح على خير (يستدير ليذهب) .

ويلى ـ (عاجز عن منع نفسه) واذا سقط شىء من مكتبه ، وانت تتحدث اليه ، فلا تلتقطه ؟ هناك صبيان لمثل هذه الأمور .

لندا ـ سأعد لكم افطارا رائعا .

ويلى ـ دعينى أتم حديثى لبيف قل له أن لديك أعمالا فى الغرب لاتقل له أنك كنت فى مزرعته .

بيف ـ طيب .

لندا ـ أعتقد أن كل شىء ..

ويلى ـ (مقاطعا لندا) ولا تبع نفسك بثمن رخيص .. لاأقل من خمسة عشر ألف دولار .

بيف ـ (وقد فقد القدرة على الاحتمال) طيب ، تصبحين على خير ياأمى ..(بيف يبدأ فى التحرك للخروج) .

ويلى ـ لان فيك قبس من العظمة .. لاتنس هذا! .. لك كل سمات عظمة (يسترخى على فراشه مجهدا .. يخرج بيف) .

لندا ـ (وراء بيف) نم هانئا ياحبيبى .

هابى ـ ماما ، سأتزوج ، أردت أن أقول لك .

لندا ـ اذهب لتنام ياعزيزى .

هابى ـ (يذهب) أردت فقط أن أقول لك .

ويلى ـ احفظوا تراث العمل الطيب (يخرج هابى) ، ياالهى كلما تذكرت مباراة ابيتس فيلد على بطولة المدينة .

لندا ـ خذ راحتك ـ أأغنى لك ؟

ويلى ــ غنى لى .. (تتصاعد ألحان لندا بدون الفاظ) عندما خرج الفريق الى الملعب كان أطولهم .. أتذكرين ؟

لندا ــ آه ، وكان كعامود من ذهب .

(يدخل بيف المطبخ المظلم ويأخذ سيجارة ويشعلها ويغادر البيت.. ثم يجلس أمامه فى حلقة من النور الذهبى .. يدخن وهو يحملق فى الظلام) .

ويلى ــ كأنه اله من شباب ! كأنه هرقل ، تغمره الشمس من كل جانب .. أتذكرين .. أتذكرين كيف لوح لى من بعيد .. ومن حولى ممثلو الجامعات ؟ والزبائن الذين أحضرتهم ، والتحيات والهتافات المتصاعدة لومان.. لومان .. لومان .. ياالهى الجبار ، مازالت لديه فرصة لان يكون عظيما ، نجم كهذا .. نجم لامع متلألىء لايمكن أن يخبو تماما .

(يغيض النور حول ويلى . ويلمع سخان الماء خلال جدار المطبخ بالقرب من درجات البيت وثمة لهب أزرق تحت الانابيب الحلزونية .

لندا ــ ويلى ، عزيزى ، ماالذى يحفظه عليك ؟

ويلى ــ اننى متعب جدا ؟ لاتتكلمى .

(يعود بيف الى المطبخ ويحملق فى السخان) .

لندا ــ هل ستطلب من هوارد أن ينقلك آلى نيويورك .

ويلى ــ أول ماسأفعله فى الصباح .. كل شىء سيكون على مايرام .

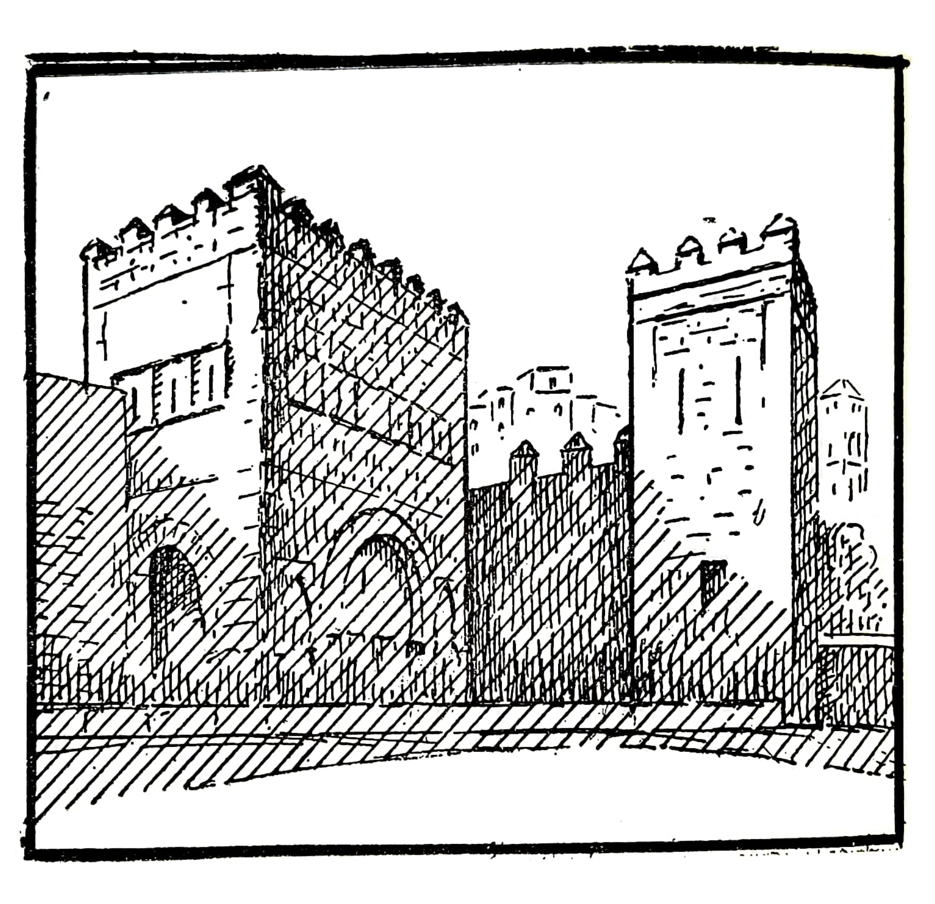
(بيف يمد يده وراء السخان ويخرج قطعة من أنابيب المطاط .. يفزع ويدير رأسه نحو غرفة ويلى؛ بحيث يرى ضوءا خافتا ، وحيث تسمع ألحان لندا البائسة وهى تتصاعد ببطء) .

ويلى ــ (ينظر من النافذة الى ضوء القمر) انظرى الى القمر وهو يمر بين العمارات .

(يلف بيف أنبوبة المطاط حول يده ويصعد سريعا) .

ينزل الستار

غابة العرب
أنشأ الاندلسيون مستعمرة فى جنوب فرنسا ، لاتزال آثارها باقيــة الى اليوم .



فى مدينة طليطلة باب من أبواب الاسوار العربية

القراصنة يجوبون البحر بسفنهم الخفيفة السريعة . يتربص بعضهم ببعض . أو يرقبون السفن التجارية لينقضوا عليها اذا كانت تابعة لعدو ، أو ليحموها من العدوان اذا كانت تابعة لقومهم : فالقرصنة كانت فى ذلك الوقت من الاعمال المباحة المشروعة. وكان القراصنة يجدون من ولاة الامر فى وطنهم ، العون والتأييد والحماية .

فى القرن العاشر للميلاد ، والرابع للهجرة ، كان الحوض الغربى من البحر المتوسط مسرحا لصراع عنيف وسباق دائم ، بين القراصنة العرب المنطلقين من ثغور الاندلس ، والقراصنة العاملين من قواعدهم البحرية ، على السواحل الايطالية ، واليونانية ، والرومية ، وكثيرا ما كانت المزاحمة تشتد بينهم وبين قراصنة آخرين من العرب ايضا ، يخرجون الى عرض البحر من خلجان افريقية .

فى ذلك الجو الملبد دائما بالمخاوف ، وعلى صفحة ذلك البحر حيث يكمن الخطر بين الامواج المتلاحقة ، كان « عبد الله الخشاب » يقود سفينته ، متيقظا حذرا وحوله افراد أسرته ، والبحارة الذين استاجرهم ليرافقوه فى رحلته ، ويعنوا بالسفينة طوال المدة التى تقضيها الاسرة بعيدة عن وطنها .

انه وحده المسئول عن مصير الجماعة . فهو الذى أراد هذه الرحلة ، وهو الذى ضغط على رفاقه وأقنعهم بوجوب الرحيل عن الاندلس فاقتنعوا ، واقلعت بهم السفينة من ثغر المرية ، فى سنة ٩٠٨ للميلاد ـ الموافقة لسنة ٢٩٦ هجرية .

والآن ، بينما السفينة تجتاز البحر نحو المصير المجهول ، يتساءل الرجل ، وقلبه يخفق بالحنين الى الوطن الذى هجره ، وبالقلق على الاسرة التى تصحبه : « هل نصل الى بر الامان ، وأين هو ؟. وهل يلتقى بنا قرصان من الاصدقاء ، أو يعترض طريقنا قرصان من الاعداء ؟ »

لم يرحل عبد الله عن بلده مختارا بل الظروف فرضت عليه الرحيل . وواحد من أولئك الامويين الذين ربطت اسرته مصيرها باسرتهم كان السبب فيما يكتنفه اليوم من حسرة واضطراب ، وفى تغيير مجرى حياته وحياة ذويه جميعا .!

كان فى رغد من العيش . يقيم فى مدينة « قرطبة » عاصمة الامويين بالاندلس . ويمارس تجارة الخشب ، التى تتوارثها الاسرة منذ أن كانت مقيمة فى دمشق ، فى عهد الدولة الاموية الزاهرة ، والتى ظل الجد الاكبر ، « عبيد الخشاب » يمارسها فى الاندلس بعد انتقاله اليها فى عهد عبد الرحمن الداخل ، فآلت الى بنيه واحفاده من بعده .

هاجر عبيد من وطنه سورية ، مع صهره « رشيد الدباغ » واستقر الرجلان مع عائلتيهما فى غرناطة ، وواصلا فى وطنهما الجديد ما كانا يفعلانه فى الوطن القديم : قطع الاشجار وتحويلها الى أخشاب ، وشراء جلود الماشية ودبغها وتحويلها الى سلع منوعة .

فمن الصناعتين أخذت الاسرتان اسميهما . آل الخشاب وآل الدباغ

وفى عهد امارة عبد الله بن محمد بالاندلس ، فى أوائل القرن العاشر للميلاد ، والقرن الرابع للهجرة . كان عميد الاسرة الاولى « عبد الله الخشاب » وعميد الاسرة الثانية « عامر الدباغ » .

وكان لعامر ولد وحيد ، ولعبد الله ابنة وحيدة ، ربط الحب بين قلبيهما ، وتعاهدا على الزواج ، بموافقة الوالدين ، وتمت الفرحة الكبرى للاسرتين يوم أصبحت « صباح » بنت الخشاب ، زوجة حليلة للشاب « ابراهيم » ابن الدباغ !

وما أن مرت أيام على ذلك اليوم السعيد ، حتى تدخل القدر فجعل افراح الاسرتين تختلط بالكمد والاسف والخوف .

كان الامير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، وهو فى ذلك الوقت دون العشرين من العمر ، فارسا لا يشق له غبار ، وكان جده يفاخر بجياده الأصيلة ، والابن يشترك فى حفلات السباق مع الفرسان من رجال الجيش وابناء الشعب ، والأمير يوزع الجوائز بيده على الفائزين فى حلبة السباق .

بعد زواجه ببضعة أيام ، تبارى ابراهيم الدباغ ، على متن فرس محجلة ، مع عبد الرحمن بن محمد ، على متن جواد كتب له الفوز من قبل فى أكثر من سباق واحد

وغلبت الفرس الجواد !

وبدرت من الأمير ، وقد تملكه الغيظ ، عبارات تنطوى على اهانة لاذعة ، فرد عليها غريمه بعبارات مثلها ، ورفع عبد الرحمن يده

بالسوط يهوى به على ابراهيم ، فكان ابن الدباغ اسبق منه مرة اخرى، وبادره بسوطه فلفح به كتفـــه .

وأدرك لساعته أن حياته ستصبح فى خطر بين لحظة واخرى ، فانطلق بفرسه واختفى عن الانظار .. !

وظل مختفيا فى الجبال ، وعجز رجال الحرس الذين عهد اليهم عبد الرحمن وأبوه باقتفاء أثره والمجىء به اليهما حيا أو ميتا

وتطور الحادث الى ما يشبه الفتنة : بين رجال القصر من ناحية ، ورفاق الشاب المذنب وأنصاره من ناحية أخرى

وأدرك عبد الله الخشاب وعامر الدباغ ، من جهتهما ، أن الخطر يحدق بهما أيضا ، ويهدد الاسرتين بنقمة الاسرة الحاكمة ، فقرر الخشاب أن يحتاط للأمر ، وألا يترك نفسه وذويه تحت رحمة الاقدار ، وعرضة لنزوات الحاكمين

كان قراره أن يرحل عن البلاد !

وفى أيام معدودات ، نقل ما خف حمله وغلا ثمنه من كنوز وأموال وسلع وتحف ، وترك ما بقى أمانة عند اصدقائه ومريديه ، وقصـــد مع أفراد الاسرتين الى ميناء الميرة على شاطىء البحر المتوسط ...

واستأجر مركبا كبيرا ، وضع فيه منقولاته ، وأبحر مودعا بلاده

أبحر ومعه الشاب الهارب ، الذى لحق بالاسرتين دون أن يتمكن مطاردوه من القبض عليه !

ولما بلغ الامير عبد الله بن محمد ما حدث ، قال فى مجلسه : « لو سلم ابراهيم نفسه لعاقبناه على ما اقترفت يده ولو لم يرحل ذووه لما ألحقنا بهم ضررا بسببه . أما الآن ، وقد هربوا وهرب المذنب معهم ، فانهم يسيئون الى أنفسهم ويضاعفون ذنبه ! »

***

فى عرض البحر ، ظهرت ، فجأة ، سفينة بيضـــاء ، تنساب على صفحة اليم كالسهم المارق . وشخصت اليها الابصـــار . ثم تمتمت الشفاه بالدعوات والتعاويذ : « **أعدو هذا القرصان أم صديق ؟** »

لم يطل التساؤل : فقد ارتفعت الاصوات بشكر الله على رعايته ، وعادت الطمأنينة الى نفس عبد الله الخشاب ورفاقه ، على ظهر المركب الهارب ...

ان السفينة التى تقترب منهم ، والتى برزت من بين الامواج كالعفريت من صندوقه ، تتميز بشارات تدل على انها سفينة قراصنة من العرب . والقراصنة العرب لا يتعرضون بشر لراكب التجار من بنى قومهم ، بل ان العادة قد جرت على ان يواكبوا تلك المراكب ويحموها من القراصنة الاغراب ، ويصلوا بها الى أرض أمينة مقابل اجر معين يتقاضونه بالحلال !

وهذا ما حدث لعبد الله الخشاب ورفاقه : فقد تفاوض معهم القراصنة واقنعوهم بالتوجه بمراكبهم الى ساحل بلاد فرنسا ، فى مكان تقيم فيه جماعات من العرب جاءوا قبلهم من الاندلس ، وأكدوا لهم أن أولئك العرب سوف يكرمون وفادتهم وينزلونهم بينهم منزلة الاصدقاء

واقتنع عبد الله الخشاب ، وعامر الدباغ، وابراهيم وزوجته وبقية ركاب السفينة الضالة ، بأن نصيحة القراصنة هى الحل الوحيد الذى يجمل بهم أن يتبعوه ، ريثما تحمل اليهم الايام المقبلة حلا آخر !

وعلى ساحل فرنسا ، عند مصب نهر صغير فى مكان كان العرب يسمونه « شرم العبد » نزل الوافدون من ثغر المرية ، فى حماية مواطنيهم القراصنة ، وعولوا على اتخاذ تلك البقعة الغريبة موطنا لهم .

كان العرب يحتلونها ويستعمرونها منذ بضعة أعوام ...

ففى سنة ٨٨٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٢٤٧ للهجرة ، قذفت العواصف ثلاث سفن للقراصنة العرب على صخور الشاطىء ورماله هناك ، فراقت لهم الاقامة فى ذلك المكان ، وتوغلوا فى الوديان والجبال ، ولحق بهم غيرهم من المغامرين ، وبلغ خبرهم مسامع الحكام فى الاندلس والمغرب ، فشجعوهم على البقاء حيث أرادت الاقدار أن تسوقهم ، وما مرت أعوام حتى كان الجزء الاكبر من الساحل الفرنسى الجنوبى ، ومن الاقليم الممتد فى داخل البلاد ، قد أصبح فى قبضة العرب ، فشيدوا القلاع والحصون على القمم ، وأنشأوا حولها المزارع والقرى !

وسكان هذه القرى والمزارع ، وأصحاب تلك الحصون والقلاع ، هم الذين رحبوا بعبد الله الخشاب وعامر الدباغ وأسرتيهما ، لما انتهت رحلة السفينة الهاربة ، بهداية سفينة القراصنة ، الى ذلك المأوى الأمين ...

ولم يضيع الوافدون من الاندلس وقتهم . بل انصرفوا فى الحال الى تدبير أمرهم ، وقرروا أن يمارسوا هناك نفس النشاط الذى كانوا

يمارسونه فى البلاد التى هاجروا منها بعد ان اطمأنوا الى الاقامة فيها ، بين أولئك المغامرين الذين حولوا تلك الرقعة من ارض الافرنج الى قطعة من الوطن العربى ...

مرت سنة ، وسنتان ، وتتابعت السنون ، وأعمال عبد الله الخشاب وعامر الدباغ ورفاقهم فى البلاد التى استقروا فيها تسير من حسن الى أحسن ، وعدد العرب فى الساحل الفرنسى وما جاوره من جبال ووديان وسهول ، يزداد بمن يفد عليهم من مغامرين تحملهم الى هناك سفن القراصنة المسيطرة على البحار .

وكان عبد الرحمن بن محمد قد تولى الحكم بعد وفاة جده عبد الله ، فى سنة ٩١٢ الميلادية ، الموافقة لسنة ثلاثمائة للهجرة ، وهو فى العشرين من العمر . وقد عرف فى التاريخ باسم عبد الرحمن « الناصر » وبلغت الاندلس فى عهده أوج العز والرخاء والسؤدد . وهو أول من حمل لقب الخلافة فى قرطبة من الامراء والملوك الامويين ، وقد ملك نحو خمسين سنة !

ظل عبد الرحمن بن محمد يذكر الحادث الذى وقع بينه وبين الشاب الذى تغلب عليه فى السباق وأهانه وهرب مع ذويه . وتتبع أخباره فعرف أن الهاربين من بطشه قد نزلوا بين المغامرين الذين عمروا ساحل فرنسا الجنوبى . وواصل استقصاء أخبارهم فنقل اليه الرسل الذين أوفدهم الى هناك بعد توليه العرش ببضعة أعوام ما أثار دهشته واعجابه ، وخفف فى صدره نار الحقد على الغريم السابق .

ففى الاماكن التى عرفت فيما بعد بأسماء افرنجية : فريجوس — جريمو — سان دوبيز — كان — نيس وغيرها — زرع العرب أشجارا جاءوا بأغراسها من الاندلس والمغرب ، وكسوا سفوح الجبال بالخضرة ، وحولوا مياه الغدران فى قنوات ، وشيدوا قلاعا وقصورا ، وتوغل فرسانهم فى داخل البلاد فبلغوا نهر الرون وحدود سويسرة وايطاليا .

وقال الرسل لعبد الرحمن الناصر ان آل الخشاب وآل الدباغ غرسوا عددا لا يحصى من أشجار السنديان والصنوبر والحور فى مساحة كبيرة أطلقوا عليها اسم « غابة العرب » وانشأوا مرابط للخيل ومزارع لتربيتها ومراعى لتوفير الغذاء لها وان الفرسان الذين يقومون بغاراتهم الموفقة على تخوم بلاد الافرنج ، يأخذون من تلك المرابط أفراس الغزو وجياده ، وان مدابغ شرم العبد تمدهم بالسروج للخيل والدروع للمحاربين والنعال للرجال والنساء .. !

وقال الرسل ان آل الخشاب وآل الدباغ يتمتعون بمحبة الناس واحترامهم ، وهم يذكرون دائما بالخير والدعاء الطيب ، بلادا هاجروا منها ، فى البلاد التى هاجروا اليها .. ! واضاف الرسل قائلين ان فوجا من أبناء طليطلة المغامرين قد لحقوا ايضا بآل الخشاب وآل الدباغ ، وانشأوا قلعة صغيرة لمراقبة الساحل سموها « طليطلة » باسم مدينتهم!

كانت هذه الاخبار السارية كافية لكى ينسى عبد الرحمن ما فات من عداوة بينه وبين الاسرتين ، بسبب ابراهيم الدباغ وما بدر منه نحوه . فأوفد الى شرم العبد وغابة العرب رسلا آخرين ، لينقلوا الى عميد الاسرتين عبد الله الخشاب ، وزوج ابنته ابراهيم ، ان عبد الرحمن « الملك » لم يعد يذكر ما حدث معهما لعبد الرحمن « الامير » وان قرطبة سترحب بهما وبمن يصحبهما من الاسرتين ، اذا أرادوا العودة الى الوطن الذى هجروه ...

وما أن بلغت الرسالة الى الرجلين ، حتى عاودهما الحنين الى ذلك الوطن الحبيب ، فقررا الرحيل وركوب البحر مرة أخرى ، للقاء العاهل الذى ضرب لهما المثل فى التسامح والنبل والوفاء

وفى ميناء المرية ، من حيث أقلعت السفينة الهاربة قبل ذلك بأعوام ، ألقت السفينة نفسها مراسيها ، حاملة عبد الله الخشاب وابراهيم الدباغ وزوجته صباح ، وأربعة من البنين هم ثمرة ذلك الزواج فى ديار الغربة .

كانت رحلة مفعمة بالفرح والسعادة ..

وفى قرطبة ، فتح عبد الرحمن الناصر ذراعيه للغريم الذى ضربه بسوطه فى حلبة السباق ، وضمه الى صدره قائلا : « ان ماصنعته يا ابراهيم مع أهلك وذويك فى البلاد التى هاجرت اليها ، ينسينى مابدر منك فى قرطبة ، عندما كنا ، أنا وأنت شابين تتحكم فى مسلكهما العاطفة دون العقل ! »

واضاف الملك الناصر قائلا : « أنتم أحرار فى تقدير ما يتفق مع مصلحتكم . فاما أن تبقوا هنا ، واما أن تعودوا الى هناك ! »

* * *

أقام بعض آل الخشاب وبعض آل الدباغ فى قرطبة .. وأقام بعضهم فى المستعمرة التى انشأوها مع القراصنة والمغامرين فى جنوب فرنسا ...

وأنشأوا خط مواصلات دائما بين ساحل الاندلس والساحل الفرنسى .

ومات عبد الله وعامر فى المرية ودفنا فيها . وتولى ابراهيم شئون المستعمرة من بعدهما .

وظلت آثار العرب باقية فى ذلك الجزء من بلاد الافرنج اعواما طويلة وبقى بعضها قائما على مر الاجيال الى أيامنا هذه !

خرائب القلاع والحصون والاسوار مبعثرة على قمم الجبال بين البحر وجبال سويسرة .

غابة العرب عرفت عند السكان فيما بعد باسم « غابة المغاربة »

الخيول تحسن نسلها ، ودم الاصائل العربية لايزال يجرى فى عروقها ، خصوصا فى مقاطعة كامارج حيث يصارعون الثيران على ظهور الجياد .

فى المتاحف والقصور والكنائس ، آنية من الفضة والذهب ،وأقمشة من الحرير والدمقس ، وقوارير من الزجاج ، وأسلحة مطعمة بالجواهر، وغيرها من التحف والمخلفات ، كلها يرجع عهدها الى تلك الاعوام العديدة التى قضاها العرب حكاما مسيطرين فى تلك الربوع الزاهرة .

أجود انواع الحنطة التى يقبل عليها السكان هناك لاعداد الخبز ، تسمى الى اليوم « القمح الشرقى » .

الاشجار المورقة ، من سلالة الاغراس التى نقلها العرب من الاندلس الى شرم العبد وغابة العرب .

القطران الذى يستعمله الفرنسيون اليوم ويستخرجونه من جذوع اشجار الصنوبر ، أخذوا صناعة استخراجه بالوراثة منذ ذلك العهد ، واسمه عندهم مشتق من الاسم العربى : جودرون !

الخنادق القديمة ، التى حولها الفرنسيون مع الزمن الى ترع لرى الاراضى ، هى التى حفرها العرب من القراصنة ورفاق آل الخشاب والدباغ !

ودم الاصائل الجارى فى عروق الخيول فى جنوب فرنسا ، ليس الدم العربى الوحيد الذى بقيت قطرات منه فى عروق الاحياء هناك : ففى معظم المدن والقرى والمزارع ، أثر باق أيضا فى عروق السكان أنفسهم من ذلك الدم الذى اختلط مدة من الزمن ، بالتزاوج بين المقيمين من اهل البلاد والغزاة الوافدين !

***

جلس عبد الرحمن الناصر على العرش من عام ٩١٢ الى عام ٩٦١

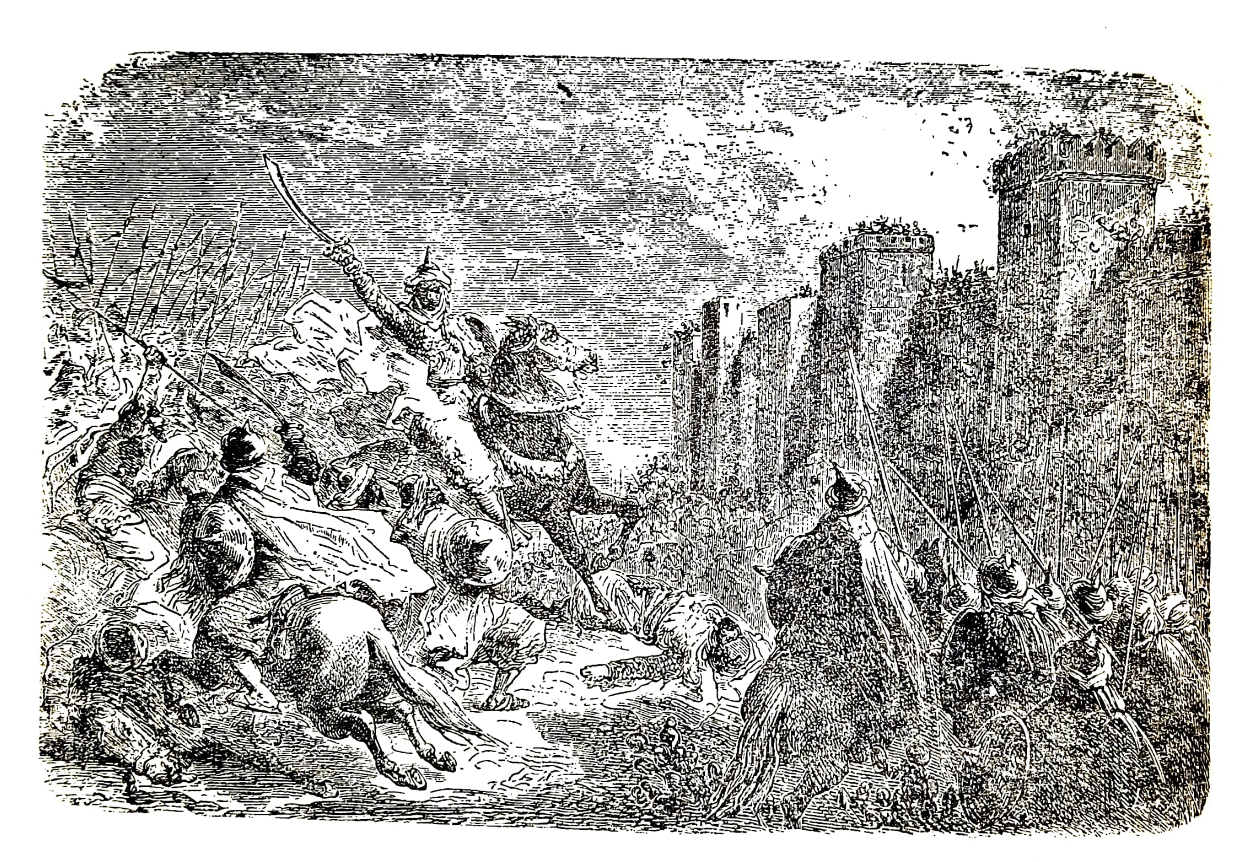
للميلاد = ٣٠٠ ٣٥٠ للهجرة ولما اختاره الله الى جواره ، كان عرب الاندلس لايزالون منتشرين فى جنوب فرنسا !..

وقد يكون ابراهيم الدباغ وزوجته الحسناء صباح الخشاب ، قد اختارا ايضا ان يكون مثواهما الاخير ، بعد موتهما ، فى تلك الاراضى الاندلسية التى رحلا عنها نحو مصيرهما المجيد فى ديار الغربة .

فرقدا بجوار والديهما ، عبد الله وعامر ، فى بلدة المرية التى لاتزال جاثمة على شاطىء البحر المتوسط ، تداعبها أمواجه كما داعبت منذ بضعة قرون ، جوانب السفينة التى حملت الاسرتين فى مغامرتهما الرائعة ! ..

الناصر فى المعركة

كان مصلحا كبيرا ، وبطــلا عظيما ، وانسانا رحيمــا !



من حروب العرب بالأندلس

اخذ كل من القواد والامراء مكانه ، حول الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقد استوى فى مجلسه فى صدر القاعة ، وتطاولت الاعناق نحوه ، وشخصت الابصار اليه ، وكل من الحاضرين يسائل نفسه : « أى حادث جلل استدعى هذا الاجتماع ؟ »

القى عبد الرحمن نظرة على أبطاله ، وعندما أيقن انهم جميعا قد لبوا دعوته ، واسرعوا الى مجلسه ، وجه اليهم الخطاب قائلا :

ـ لقد دعوتكم يا رفاقى فى الجهاد وأعوانى فى تثبيت دعائم هذا الملك ، لكى أفضى اليكم بما عولت عليه وعزمت القيام به نحو حصن من حصون الاعداء المنيعة ، وقلعة من قلاعهم المتمردة ، واظنكم قد ادركتم اى حصن أعنى واية قلعة اقصد !

وسكت لحظة . فتبادل الامراء والقواد النظرات ، ثم القى أحدهم ، فى وسط ذلك السكون هذه الكلمة : « سمورة ! »

فابتسم عبد الرحمن الناصر ، ورفع يده الى لحيته ، وجعل يعبث بها بأصابعه قائلا :

ـ لقد أصبت ياهشام . اياها أعنى ! فقد استولى العرب على الاندلس من أدناه الى أقصاه . وخضع لهم حكام المدن وغطارفة الجبال وضربت الاتاوة على المقاطعات النائية . والبلاد تتمتع الآن بما تصبو اليه من راحة وهدوء وعزة واطمئنان . لكن شيئا واحدا ينغص على الآن عيشى ويملأ ليالى بالاحلام المزعجة والافكار المقلقة . فان « سمورة » مدينة الجلالقة ومعقلهم الحصين لاتزال متمردة علينا ، رافعة لواء العصيان قائمة على جبلها الاشم ، تتحدى جيوشنا الجرارة ، وتردها عن أسوارها المنيعة خائبة خاسرة . فهل يجمل بعبد الرحمن الناصر أن يغض الطرف عما أصاب جيوش العرب من فشل واندحار ، أمام جبل سمورة ، وان تردد الاجيال المقبلة ان ملوك الاندلس عجزوا عن استرداد هذه المدينة الحصينة بعد أن طردهم منها الاسبان واعتصموا فيها مكابرين مفاخرين ؟ يا أمراء العرب وقواد الجيش ، لقد دعوتكم للاسترشاد برايكم . فما قولكم فى اعادة الكرة ، ومهاجمة سمورة ، واقتحام أسوارها ، ودخولها عنوة ، أيا كانت خسائرنا وأيا كانت قوة المدافعين عنها ؟

وصفوة قواده ، عملا بالقول الحكيم : لا يفل الحديد غير الحديد ، ولا يغالب الصنديد غير الصنديد !

والتحم الفريقان فى معركة دامت طول ذلك النهار ، بيعت فيها الارواح رخيصة ، وسالت فيها الدماء جداول ، وطوحت الطوائع بسمورة المنيعة فدخلها العرب فاتحين منصورين !

لكنهم اهملوا الحصون كعادتهم ، وانتشروا فى المدينة مهللين مكبرين ، ولم يعملوا على تأمين أنفسهم بالاستيلاء على القلاع والآجام جميعها . عملا بقولهم المأثور : « كل محصور مأخوذ ! » فاعتصم المقاتلون من الاسبانيين وراء تلك الجدران المنيعة ، واجتمع زعماؤهم للتشاور والمداولة ...

وكان ساعدهم الايمن ومرشدهم المسموع الكلمة ، فى ذلك الظرف العصيب ، قائد من أشهر قواد العرب الخارجين على عبد الرحمن ، وهو اسحق بن أمية ، الشجاع المحنك !

رسم ذلك العربى المحارب فى صفوف أعداء أمته خطة لانقاذ سمورة من الفاتحين ، وطرحها على بساط البحث أمام زعماء المدينة المقهورة ، فأقروها جميعا ، وعزموا على وضعها موضع التنفيذ عندما يرخى الليل سدوله على الاسوار .

وفى الساعة المعينة ، انقض الجلالقة من جديد على العرب الذين أهملوا وسائل الحيطة بعد النصر ، فأخذوا على غرة منهم ، ولم يقووا على صد المهاجمين ، فتراجعوا أفواجا أفواجا ، مسرعين الى الخندق المحيط بالمدينة لاجتيازه والعودة الى السهول ، فتمكن خمسون ألفا من عبور القنطرة القائمة عليه وسقط خمسون ألفا منهم صرعى فى حومة القتال !

وأراد الاسبانيون ان يعبروا الخندق وراء المنسحبين ، للقضاء عليهم ، فاعترضهم اسحق بن أمية ـ وقد هاله ما أصيب به العرب من خسائر وآخذ نفسه على مابدر منه ـ صائحا بهم :

ـ اياكم أن تلحقوا بهم ! فان العرب لم يعبروا الخندق ويسرعوا الى السهل الا لكى يقيموا فيه كمينا لاستدراجكم ! اننى اعرف منكم بعاداتهم وأساليبهم . فارجعوا الى المدينة واكتفوا بما احرزتم اليوم من نجاح !..

***

أدخل ذلك الانهزام الحزن الى قلب عبد الرحمن الناصر ، وظل منذ

ذلك اليوم المشئوم يفكر فى اخذ الثار ، لانه كان يابى ان يسجل على نفسه العجز الذى سجله اسلافه على انفسهم ، وان يوصم بما وصموا به ، وأن يطوى الصفحة المجيدة التى دونها فى تاريخ العرب والاندلس ، دون ان يغسل ذلك العار الذى لحق بجيشه فى سمورة ، ويمحو أثره بانتصار باهر وفتح مبين !

وكأن الاقدار قد شاءت أن يكون عونه فى اخذ الثار من اهل سمورة ، ذلك الرجل نفسه الذى كان من قبل عونا لهم على صد العرب عن أسوارهم : اسحق بن أمية !

فقد عاد ذلك القائد المغوار الى حظيرة الواجب بعد معركة سمورة بأيام معدودة ، وطلب العفو والامان ، وتقرب من الخليفة الذى عرف قدره وأحله فى حاشيته المحل اللائق به ، فأصبح اسحق بن أمية ، بين مساء وصباح ، موضع ثقة عبد الرحمن وأمينه ونجيه !

وكما رسم اسحق من قبل للأسبانيين خطة الدفاع وطرد العرب من مدينتهم المجتاحة ، فانه رسم فيما بعد ، وبالاشتراك مع مولاه عبد الرحمن الناصر ، خطة هجوم جديد للاستيلاء على المدينة ودك أسوارها واقتحام حصونها !

أدرك الخليفة أن وجوده لابد منه فى الميدان ، فعزم على قيادة جيشه بنفسه وفى صبيحة يوم من أيام شوال سنة ٣٢٧ هجرية الموافقة لسنة ٩٣٨ للميلاد ، وصل ذلك الجيش الى السهول الممتدة أمام سمورة ، وانتشر فيها انتشارا على مدى البصر .

سار عبد الرحمن الى الآسبانيين فى هذه المرة بمائتى ألف مقاتل من بواسل الابطال والفرسان ، ولم يأبه لتشاؤم المنجمين الذين قالوا له أن جيشه سيهزم لانه بلغ سمورة بعد كسوف الشمس بثلاثة أيام ، بل أعد للهجوم عدته ، ورتب للقتال جنوده ، وماطلع فجر الغد حتى دكت الاسوار وسلمت الحصون وسقطت الآجام وفتحت القلاع أبوابها فدخل عبد الرحمن الناصر المدينة العاصية ، واحتاط لكل مفاجأة وانتقاض !

***

سكر العرب بخمرة النصر ، وراحوا ينزلون بأولئك الاعداء الالداء أنواع الانتقام ، وقد عجز قوادهم عن كبح جماحهم بعد ذلك الفوز المبين !

ترك عبد الرحمن الناصر جنوده وشانهم وقد اطلقوا لثوران غضبهم العنان ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق ومعه بعض أتباعه

متجولا فى ميدان القتال ، باحثا عن جريح يواسيه ، وحزين يعزيه ، وتائه يعيده الى أهله ...

طرق اذنيه وهو مار تحت أسوار المدينة نحيب طفل يبكى ، فانصت ثم ترجل وقصد الى مبعث الصوت ، واذا به أمام وليد لا يزال فى لفائفه مطروحا بين الاعشاب فى أخدود ضيق تحت حائط متهدم . فالتقطه عبد الرحمن ، واحتضنه ، وجعل يبذل له من تدليل وحنان ما يستطيع بذله رجل عرف كيف يحب رعيته وأبناءه !

فسكت الطفل ، وارتسمت على ثغره ابتسامة الاطمئنان ، وركن الى ذلك الصدر القوى كما يركن العصفور الى عشه . فحمله عبد الرحمن الناصر على جواده ، ورد عليه طرف ردائه ، واستمر فى جولاته فى السهول والهضاب ...

ثم قصد قبل غروب الشمس الى مضرب فسيح نصب أمام تلك القنطرة التى شهدت من قبل انهزام العرب ، وشهدت فى ذلك اليوم انتصارهم . وهناك جلس الخليفة يحيط به أمراء جيشه ، فى أبهة المجد وعظمة الملك . وأمر أن يؤتى اليه بأسلاب المعركة ، فمر الجنود أمام مولاهم وقائدهم ، يسوقون الاسرى أفواجا أفواجا ، والسبايا جماعات جماعات ...

وفجأة ، علا فى الخارج صراخ ونحيب . وحدثت فى باب المضرب جلبة استرعت اهتمـــام عبد الرحمن ، فخاطب الحـراس سـائلا : « ما الخبر ؟ »

وقبل أن يلاقى سؤاله جوابا ، شقت صفوف الجنود امراة فاقدة الصواب ، وقد حلت شعرها ، ومزقت ثوبها ، وأرسلت صوتها بالنواح والعويل ، فوقفت فى وسط المضرب صائحة :

– أين هو ملك العرب ؟

احاط بها الحراس من كل جانب ، لكن عبد الرحمن ردهم عنها قائلا :

– دعوها ولا تزجروها !.. هل بينكم من يعرف من أمرها شيئا ؟

فقال أحد الجنود :

– رايناها منذ ساعات يا أمير المؤمنين ، تروح وتجىء بين الجثث والاطلال ، تارة تركض كأن بها مسا من الجنون ، وتارة تنطرح على الارض تفحصها ، وعلى الاشلاء تقبلها ، ثم تنهض معولة . فجئنا بها اليك يامولاى مع من جئنا بهن من سبايا الحرب ...

فخاطب عبد الرحمن المرأة سائلا :

ـ انا ملك العرب ! فمن انت ومابك ياامرأة ؟

فنظرت اليه بعينين يتطاير منهما الشرر ، وينبعث منهما الحقد والغضب ، وقالت :

ـ أعد الى ولدى ياقاتل النساء وذابح الاطفال ! اهذا هو العدل الذى تحمله الينا ، والامان الذى تعدنا به ... ان جنودك يطلقون ايديهم فى السلب والنهب ، ويشتتون فى العراء من لا تتناوله سيوفهم من السكان ويفصلون بين الاخ وأخته ، والرجل وزوجته ، والام وطفلها ! أمن أجل هذه الاعمال يسمونك « الناصر » ياعبد الرحمن ! انعم به اذن من نصر وانعم به من لقب !

فقطب الملك جبينه ، ونظر الى المدينة وقد اندلعت فيها النيران . وارتفع منها الصياح ، ثم نظر الى تلك المرأة المذعورة ، وخيـــل اليه أن الضمير قد تجسم فيها وجاء يؤنبه على الفظائع التى يرتكبها جنوده فى مدينة ذنبها انها دافعت وابت الاستسلام !

والتفت الى من كانوا يحيطون به من القواد وقال :

ـ احملوا الى الجند أمرى بالكف عن الارهاب ٠ واضربوا عنق كل معاند مخالف !

ثم خاطب المرأة السمورية بلهجة الرحيم الشفوق ، قائلا :

ـ خففى عنك ياامرأة . اننى أؤمن سكان هذه المدينة على أرواحهم وأموالهم . فاطمئنى ...

فقالت المرأة والزفرات تخنقها :

ـ وولدى ؟.. طفلى الرضيع الذى انتزعه جنودك الاجلاف من بين ذراعى ، فانتزعوا معه روحى من بين جنبى ؟ أتعيده الى ياعبدالرحمن أم انك تحلل ماتحرمه الشرائع ؟ أعد الى ولدى اذا كان فى صدرك قلب يختلج بشعور الاب ويعرف حب الوالدين !

ـ ان قلب عبد الرحمن ياامرأة ليس بالقلب المظلم الجوانب كما تظنين .. وقد تكون العناية الالهية هى التى قادتك الآن الى . انظرى ! الا يكون هذا الطفل ولدك ؟

قال الخليفة هذا ، ورفع طرف ردائه عن الطفل الذى حمله معه الى ذلك المضرب ، والذى كان نائما مستكنا بجانبه ، ووضعه أمام المرأة الحزينة ...

وكأن الرضيع احس بانه على مقربة من امه ، فجعل يصرخ فرحا !..

فأرسلت المرأة صيحة سرور وطرب ، واندفعت نحو الطفل تغمره بالقبلات وتغسله بالدموع ، ثم خرت على وجهها وسجدت الى الارض وقالت :

ـ انك أيها الملك لأعلى الملوك نفسا وأرحمهم قلبا وأكرمهم خلقا . فليرزقك الله عمرا طويلا ، وليرع بعين عنايته أبناءك من بعدك وأحفادك من بعد ابنائك !

***

كتب عبد الرحمن الناصر فى وصيته انه حكم الاندلس خمسين سنة ، منها أربعة عشر يوما يعدها « الايام السعيدة » فى حياته الطويلة .

وذكر أن أحد تلك « الايام السعيدة » هو ذلك اليوم المشهود ـ « يوم سمورة » ـ الذى هزم فيه الاعداء ، واستولى على تلك المدينة الحصينة ، وأعاد الى الام السمورية الحزينة طفلها المفقود !

الأسير الشريف

قطع على نفسه عهدين وهو اسير وبر بهما . ثم اطلق سراحه فقطع على نفسه عهدا ثالثا بر به ايضا .

بعد الانتصار الباهر الذى أحرزته الجيوش العربية بقيادة عبد الرحمن الناصر ، فى سنة ٣٢٧ هجرية الموافقة لسنة ٩٣٨ للميلاد فى واقعة « سمورة » العظيمة ، رحل فريق من سلالة يزيد بن خالد بن محمد العسقلانى ، من مدينة غرناطة التى اتخذوها مقاما لهم منذ اليوم الذى هبطوا فيه الاندلس ، الى قرطبة ، المدينة التى أحبها عبد الرحمن الناصر وجعلها بين المدن درة يتيمة .

وكان كبير النازحين من أسرة العسقلانى الى قرطبة يدعى عبد القادر ابن قيس ، فشيد لنفسه قصرا على مقربة من المسجد الشهير فى تلك المدينة ، وأقام النازخون معه جميعا فى ذلك القصر الشامخ ، وظل ابناؤهم وأحفادهم مقيمين فيه الى اليوم الذى رحل فيه العرب عن الاندلس .

وقد حدث لعبد القادر بن قيس العسقلانى حادث تناقل الناس من بعده تفاصيله ، وظلوا يروونه كلما سمحت الظروف والمصادفات .

حدث بعد معركة سمورة بثلاثة أعوام ، أن اكتشف عبد الرحمن الناصر مؤامرة واسعة النطاق ، دبرها فريق من الاسبانيين فى قرطبة ، لاغتيال ذلك الملك العظيم ، الذى لم يغفر له القوم ماصنعه معهم ، عندما انتزع منهم البقية الباقية من حصونهم ومعاقلهم .

وكان بعض الناقمين من العرب ، الخارجين على عبد الرحمن قد انضموا الى المتآمرين وزودوهم بالاموال والاسلحة ، ومنوهم بالسعادة والحرية ، اذا هم نفذوا الخطة المدبرة ، واغتالوا الجالس على عرش الاندلس ، صاحب السلطتين الدينية والمدنية ...

لكن العناية الالهية أبت أن تقع تلك الجريمة الشنعاء ، فقد خرج على المتآمرين واحد منهم ، هاله ماكانوا مقدمين عليه ، فحمل خبرهم الى الخليفة . وفضح أمرهم ، ومكن عبد الرحمن من القبض عليهم وخنق مؤامرتهم فى مهدها .

وجىء بالجماعة الى البهو الذى كان عبد الرحمن الناصر يختلى فيه بعظماء المملكة والقواد والقضاة ، ويصدر أحكامه فأخذ رأى المجتمعين حوله واذا بهم جميعا يشيرون باعدام الاثمة المذنبين وضرب أعناقهم بالسيف .

لكن عبد الرحمن الناصر ، الذى كان أبعد الناس ميلا الى القسوة

رأى غير رأيهم وصفح عن أولئك الذين تآمروا على حياته واعتزموا اغتياله

وقال موجها خطابه اليهم :

ـ لقد سمعتم ياقوم مايجدر بى ان اصنعه بكم وأى عقاب تستحقون ، لكننى أعفو عنكم ، لكى يعلم مواطنوكم اننا نقابل السيئة والاساءة بالحسنة والاحسان ، واننا نعفو عمن اراد بنا شرا ، فنحن نؤمنكم على حياتكم ولكننا نقيد حريتكم الى أن تثبتوا لنا توبتكم وعدولكم عن الشر . وسيقيم كل واحد منكم فى دار قائد من قوادنا ، ليس كما يقيم السجين فى سجنه ، بل كما يقيم الاسير فى المكان الذى حتمت عليه الاقامة فيه . ولا فرق عندنا بين الاسبانى النصرانى والعربى المسلم ، فجميعكم متآمرون مشتركون فى الجرم ، وان كان العربى فى نظرنا أبعد مسئولية واشد اثما من القوطى ..

قال عبدالرحمن الناصر هذا ، وامر كلا من قواده الحاضرين أن يأخذ معه الى داره احد أولئك المتآمرين الذين صعقتهم الدهشة وعقدت السنتهم عن النطق امام هذا الحلم العظيم والحكمة الواسعة !

***

أخذ عبد القادر بن قيس العسقلانى معه الى داره رجلا اسبانيا يدعى « فرناندو دى لسكورا » وهو من أسرة نبيلة خاض افرادها غمار الحروب الاسبانية منذ اليوم الاول ، وقد جاء قرطبة موفدا من قبل الامراء الجلالقة المعتصمين فى الجبال الشمالية ، لكى يثير الحماسة فى نفوس المتآمرين .

أقام الرجل ثلاثة اشهر فى دار عبد القادر بن قيس العسقلانى ، وكان قد قطع على نفسه عهدا بألا يجتاز السور الخارجى المحيط بحديقة الدار ، وكان العسقلانى من جهته قد عهد الى اثنين من رجاله بمراقبة الاسير مراقبة شديدة مستمرة ، لئلا يحنث بالعهد ويفر هاربا ..

وكان عبدالرحمن الناصر من وقت الى آخر يسأل عن الاسرى ، فيقدم كل من القواد الى الخليفة حسابا عن مهمته فى حراسة أسيره والمحافظة عليه .

وفى يوم من أيام الشتاء سنة ٩٤١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٣٣٠ للهجرة ، طلب فرناندو دى لسكورا مواجهة عبدالقادر ، فاذن له بالدخول عليه وسأله بلطف وبشاشة عن غرضه . فقال الاسبانى :

ـ ايها السيد العربى . لقد مضت ثلاثة أشهر على اقامتى اسيرا فى دارك ، ولا اظنك قد فطنت الى محاولة ما ، اقدمت عليها للفرار من الاسر ، لاننى قطعت على نفسى عهدا بألا أحاول ذلك أيا كانت الظروف

والاحوال ، واقسمت بشرفى ودينى على البقاء داخل هـذه الجدران ، ما دامت ارادة الملك العربى تحتم على ذلك . اننى مدين له بحياتى ولن يقال ان فرناندو دى لسكورا قد ارتكب جنـاية او حنث بيمين . لكن لى اليوم رغبة افضى بها اليك ولا أخالك الا مقدرها قدرها . هل امك على قيد الحياة ؟

دهش العسقلانى لهذا السؤال ، لكنه أجاب الاسبانى عليه قائلا :

– لقد ماتت أمى منذ خمس سنوات أيها السيد . ولكن اى شأن لأمى فى رغبتك التى جئت من أجلها الى هذا المكان ؟

– ان أمى لا تزال حية فى قريتها البعيـدة : هنـاك ، فى جبـال البرانس . وانا وحيدها . لم يبق من أسرتنا أحد . فان الحروب قد اودت بحياتهم جميعا . كنا عشرة أخوة نحمل السلاح فسقط فى الميادين تسعة منا وبقيت وحيدا مع أمى . انها تعلم الغاية التى من أجلها جئت الى هذه المدينة ، وتعرف أن حياتى فى خطر ، وقد تكون الآن قد قطعت الرجاء من رؤيتى ثانية ، فهى فى هذه الساعة تصلى من أجلى ، وتضرع الى الله ان ينقذ حياتى ويرد عنى الاذى !

أيها السيد : بعد عشرة أيام يحتفل النصارى فى هذه الديار بعيد ميلاد المسيح بن مريم . ولست فى حاجة الى الاشارة الى ما لهذا العيد من احترام واجلال فى نفوسـنا . ولا أريد أن تقضى أمى ذلك اليـوم السعيد فى حزن وبكاء . أريد ان أدخل على نفسها بعض الفرح والرجاء . فهل تحول ارادتك أو ارادة الخليفة دون هذه الأمنية ؟

– انك ترغب اذن فى الذهاب الى قريتك ، والاشـتراك مع امك فى الاحتفال بهذا العيد ؟

– نعم !

– وهل تدرك أهمية هذا الطلب وما فيه من مسئولية على !

– نعم ، أدرك . واقطع على نفسى عهدا ، بحق ذلك الطفل الذى يستعد العالم المسيحى لتكريمه فى ذلك اليوم السـعيد ، واقسم مرة ثانية بشرفى واسم اسرتى ، بان أعود الى دارك بعد عشرين يوما فقط !

فكر العسقلانى مليا فى الامر ، واشفق على ذلك الرجل الذى كانت عيناه تنمان عن حزن متيم ورجاء شديد ، ثم التفت اليه قائلا

– فرناندو دى لسكورا . اننى اطلق سراحك لمدة عشرين يوما فقط . فان عدت الى دارى بعد مضى هذه المدة ، كنت فى نظرى شـهما كريما صادقا وانقذت حياتى . وان سول لك الشيطان ان تبقى بعيدا عن الدار ،

حرا طليقا ، كنت فى نظرى دنيئا سافلا كاذبا ، وقضيت على حياتى .
فاننى فى اليوم الحادى والعشرين من هـذا التاريخ ، سـأذهب الى
عبد الرحمن الناصر ، اما لكى أطلعه على الحقيقة وانبئه بعودتك ، واما
لكى اطلب منه معاقبتى على مخالفة امره ! اذهب ؟

***

عاد فرناندو دى لسكورا الى قرطبة ، وعندما وصل الى الدار ،
قيل له أن عبد القادر بن قيس العسقلانى يؤدى فريضة الصلاة فى الجامع
الكبير ، فأسرع الرجل ووقف امام باب الجامع منتظرا خروج المصلين..

ولما وقع نظره على عبد القادر ، شق الصفوف مسرعا اليه ، وأخذ
يمينه بيديه ، وجعل يقبلها والدموع تنهمر من عينيه ..

عاد معه عبد القادر الى الدار ، وسأله عن امه ــ فقال الاسبانى :

ــ وصلت الى القرية قبل عيد الميلاد بيوم واحد ، فوجدت أمى
مريضة ، تعانى آلام الموت ! وفى اليوم التالى ، أى يوم العيد ، فارقت
روحها الجسـد ، وقد عرفتنى قبل ان تسلم الروح ، ومنحتنى بركتها
الاخيرة ! ان هذا العيد ايها السيد كان ابهج الاعياد عندى ، واحزنها
فى آن واحد . لقد بكيت فيـه أمى ، ولكننى تمكنت من رؤيتها للمرة
الاخيرة قبل ان تفارق هذا العالم . ولو لم يتيسر لى ذلك ، لماتت أمى
حزينة يائسة ، وللحقت بها أنا ، من الحزن واليأس ! والآن أعود اليك
أسيرا كما كنت من قبل !.

لم يستطع عبد القادر العسـقلانى ان يكتم خبر ذلك الرجل عن
عبد الرحمن الناصر ، فقص عليه قصته ، واطلعه على ما حدث ، فأمر
الخليفة بان يطلق سراح فرناندو دى لسكورا ..

فرحل الرجل عن قرطبة ، بعد أن قطع على نفسه عهدا بألا يحارب
العرب فى الميادين ..

وقد بر بعهده هذا كما بر من قبل بعهديه السابقين !

تراب المعارك

اقوى الذكريات رسوخا فى الاذهان ذكريات الطفولة .

مات الحكم الثانى ابن عبدالرحمن الناصر ، الملقب بالمستنصر ، فبكته الرعية ، وندبت النادبات في الاسواق ثلاثة أيام بلياليها ، وأشاد الناس بمناقب الخليفة الراحل ، صاحب الانتصارات العديدة على الاسبانيين ، الملم بعلم التاريخ ، العالم بدقائق الشريعة ، الاديب الشاعر الراوى ، مغدقا الاموال بكرم على الرواة والشعراء والادباء .

ودعا الأئمة على المنابر لابنه هشام الثانى ، الذى لم يكن بعد قد جاوز العاشرة من العمر ، والذى لقب بالمؤيد . وشخصت الابصار الى الملكة « صبح » زوجة المستنصر وأم الملك الصغير ، وكل يتساءل : « من يدير فى الغد دفة الدولة يا ترى ؟ وهل تتزوج الملكة ناظر أموالها ومؤتمن اسرارها ، أبا عامر المنصورى المعافرى ، الذى كانت كلمته مسموعة وآراؤه نافذة عند الملك والملكة على السواء ؟ »

ولم تدع صبح الناس يتساءلون طويلا . فقد وضعت الامور فى نصابها بلا تردد ، واعلنت ارادتها بلا ابطاء . فدعت وزيرها الداهية الطموح ، وقالت له :

– يا أبا عامر ! اننى القى بين يديك مقاليد الحكم وشئون الدولة ، فهى امانة فى عنقك ما دمت حيا . فولدى هشام صغير ضعيف ، والمسئولية جسيمة ثقيلة . فافعل ما يتراءى لك بعد الآن ، لمواصلة الحرب ضد الاعداء فى الخارج ، وضمان السلم والامن فى الداخل ، وجعل هذا الشعب العزيز يرتع على الدوام فى بحبوحة من العيش والهناء

فأجاب ابو عامر وهو يتناول طرف معطف الملكة ويقبله بخشوع :

– مولاتى صبيحة : لقد اثبت لك اخلاصى فى خدمتك قبل وفاة زوجك . وسأظل على الاخلاص باقيا ما حييت . فاطمئنى بالا ، واقسم لك اننا سنعيد معا الى قرطبة عهد عبد الرحمن الناصر ، جد ولدك العظيم !

– ان ثقتى بك لا حد لها يا ابا عامر . فليأخذ الله بيدك ، وليكن لك عونا فى تدعيم العرش الاموى الذى فقدناه فى الشام ، واعدنا تشييده فى الاندلس !

***

كان ذلك فى سنة ٣٦٦ هجرية – ٩٧٦ للميلاد – وكان ابو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافرى القحطانى ، الملقب بالمنصور ، فى السابعة والثلاثين من العمر .

فقد ولد ذلك الشجاع الهمام فى ضاحية طريش بمدينة « الجزيرة الخضراء » فى سنة ٣٢٨ هجرية ، الموافقة لسنة ٩٣٩ للميلاد ، من أسرة كان جدها من رفاق طارق بن زياد ، وقد جاء من اليمن .

قدم محمد بن عبد الله الى قرطبة شـــابا لارتياد مناهل العلم . واشتغل كاتبا « عموميا » . فعرفته الملكة صبح أو صبيحة ، ووثقت به ، وولته النظارة على أموالها وأملاكهـا الخاصـة . وصار زوجهـا المستنصر يعتمد عليه فى ساعات الشدة والحرج ..

كان الرجل عالى الهمة طموحا بعيـد النظر . وقد وفقت صبح ام المؤيد فى اختياره لادارة شئون الدولة بعد وفاة زوجها . فقبض على زمام الحكم بيد من حـديد ، وظل صاحب الأمر والنهى فى قرطبة مدة ستة وعشرين سنة ، لم يكن فيها للمؤيد صاحب العرش غير الدعوة على المنابر ، أما السلطة فكانت كلها للوزير صاحب الحظوة والحظ !

شيد ابو عامر حيا جديدا فى قرطبة، قامت فيه القصور الشاهقة وسط الحدائق الغناء ، والميادين الفسيحة حيث كان الفرسان يتبارون ويتسابقون ، وانشأ مجمعا للعلم واللغـة ، واغدق النعم والعطايا على الشعراء والرواة ، وداعب القريض فنظم فى الغزل والمديح والمفاخرة !

ولكنه كان فوق ذلك كله رجل حرب ونضال ، وقائدا محنكا دانت له فنون القتال ، وفارسا رهيبا تخشى الفرسان صولاته فى الميادين !

اطلق ابو عامر المنصور الحرب من عقالها ، بعد أن اعد لها العدة بصبر وجلد ودهاء ، فبلغت غزواته وفتوحاته فى أسبانيا وحدها ستا وخمسين غزوة وفتحا !..

هزم جيش قشطيله فى عام ٩٨٠ للميلاد ــ ٣٧٠ هجرية ــ واجتاح مملكة ليون فى عام ٩٨٣ للميلاد ــ ٣٧٣ هجرية ودك أسوار قلعة سمورة الشهيرة ، واستولى على مدينة برشلونة فى عام ٩٨٥ للميـلاد ــ ٣٧٥ هجرية ، وقتل ملك ليون فى عام ٩٩٠ للميلاد ــ ٣٨٠ هجرية ــ وانتزع من البرتغاليين سلسلة من المدن فى عام ٩٩٧ للميلاد ــ ٣٨٧ هجرية ــ فضلا عن انتصاراته على الادارسة العرب فى مدينة فاس ..

وفى زحفـه على الاسـبانيين والبرتغاليين المتحالفين ، عام ٩٩٧ للميلاد ، اشتبك ابو عامر مع أعدائه فى معركة تعد من أروع معارك ذلك العصر وقد دارت رحاها حول مدينـة « كومبوستيل » المنيعة ، التى يقدسها النصارى الغربيون لوجود كنيسة شهيرة فيها، مكرسة للقديس يوحنا ، وهى الى أيامنا هـذه محجة من محجات الاتقياء من أبناء فرنسا واسبانيا والبرتغال .

شطر ابو عامر جيش الافرنج فى معركة كومبوستيل الى شطرين . فاندفع فريق منهم الى داخل المدينة يحتمى وراء اسوارها ، وحوصر الفريق الثانى فى مضيق وعر ليس له غير منفذ واحد ، سده العرب على الجيش المحصور ، فأصبح الاسبانيون أمام احتمالين لا ثالث لهما . اما التسليم والاسر ، واما الموت والفناء . فاوفد القائد العربى رسولا الى قائدهم يدعوه لالقاء السلاح حقنا للدماء ، فسأل الاسبانى .

هل يؤذن لنا بالعودة الى بيوتنا ، مع التعهد بان لا نقاتل العرب بعد الآن ، أم نؤخذ الى الأسر ونرسف فى أغلال العبودية ؟

حمل الرسول الى ابى عامر سؤال القائد المحصور ، ثم عاد اليه حاملا رد العربى :

للحروب تقاليد مرعية ، وانظمة سائرة ، وسوف نطبق عليكم الانظمة ونرعى معكم التقاليد !

كان معنى هذا ان الاسبانيين سيعدون أسرى ويفرض عليهم نظام الافتداء المعروف ، فقال قائدهم للرسول :

– قل لمولاك اننا نؤثر الموت على الحياة الذليلة ، وانه خير لنا ان نلقى ربنا اليوم احرارا ، من أن نعيش أعواما اخرى عبيدا ارقاء !

وقال ابو عامر :

– ليكن لهم ما يريدون !

وهم العرب بالوثوب على أولئك الاسبانيين فى فخهم المحكم الاقفال ، ولكن امرأة خرجت من منفذ المضيق راكبة جوادا ، وبيدها خمار ابيض تلوح به ، واقتربت من المكان الذى عرفت أن قائد العرب يشرف منه على الميدان ، قائلة لمن كانوا يعترضونها من الجنود :

– قولوا لأبى عامر المنصور ان « آنا ماريا » تطلب المثول بين يديه !

وكان الجنود يفسحون لها الطريق ، فوصلت الى أبى عامر ، وما أن وقع عليها نظره حتى ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة الممزوجة بالغبطة ، فترجل وفتح ذراعيه صائحا : « اختى ! » وانتزعها عن متن جوادها ، وضمها الى صدره على مرأى من رجاله المذهولين !

وعادت به الذكرى الى عهد الصبا ، الى أيام هنيئة هادئة قضاها فى « الجزيرة الخضراء » الى العابه ونزهاته البريئة مع « انا ماريا » ابنة المرضع الاسبانية التى غذته بلبن ثدييها !

كانت انا ماريا اخت أبى عامر فى الرضاعة . وقد ترعرعا معا فى مسقط راسيهما ، ثم رحل « الاخ » الى قرطبة ، وبقيت « الاخت » فى الجزيرة الخضراء ، وظل ابو عامر يراسلها ، ويتسقط اخبارها ، وقد زارته اكثر من مرة فى عاصمة الملك وحلت ضيفة عليه ، ثم تزوجت ، ورزقت بنين وبنات ، وكان زوجها تاجر أسلحة يتنقل من بلدة الى اخرى ، حتى مات فى كومبوستيل ، والتحق ابناؤها الثلاثة بالجيش الاسبانى ، لمحاربة العرب الذين احبتهم أنا ماريا لان « أخاها » واحد منهم !

قالت المرأة :

_ جئتك يا أخى أطلب العفو عن هؤلاء ! أيليق بك وبرجالك ، وانتم الفرسان الاشاوس الذين الفتم مقارعة الابطال فى الميادين ، أن تذبحوا ذبح الانعام قطيعا من الرجال لا يملكون وسيلة للدفاع عن انفسهم ؟ أيليق بكم ذلك يا أبا عامر ، وبين هذا القطيع المحصور فى الوادى فريق من النساء لحقن بالجيش الاسبانى بغية الوصول الى كومبوستيل والتبرك بزيارة كنيستها ؟ أنظر اليهم : لقد ركعوا جميعا يصلون الى الله فى انتظار الموت ...

فقال أبو عامر المنصور :

_ لقد عفونا عنهم يا انا ماريا . عفونا عنهم من اجلك انت . فليخرجوا جميعا من المضيق ، ولينصرفوا بسلامة الله آمنين ! ولكن انت، ما جاء بك الى هنا ؟

_ ان ابنائى الثلاثة بين أولئك الرجال المحصورين يا أخى . وانك بعفوك عن الجيش كله ، تنقذ ايضا ابنائى من الهلاك !

واصدر أبو عامر المنصور امره الى جنوده بأن يخلوا منفذ المضيق ويتركوا الممر حرا ليخرج منه الاسبانيون ، وعادت أنا ماريا الى قائد القوم تحمل اليه الخبر السار . فتحرك الجيش المحصور نحو الخلاص والحرية ، ومر الاسبانيون رافعين سيوفهم بالتحية امام أبى عامر المنصور ورجاله ، الذين ردوا عليهم تحيتهم بأحسن منها !

وعرجت انا ماريا مرة أخرى على القائد العربى ، قبل أن تبتعد مع بنى قومها ، فتعانق الاخ والاخت العناق الاخير ، وترقرقت الدموع فى عيونهما ، وتذكر الاثنان ، وكل منهما يناهز الستين ، عهد الطفولة والصبا ، وقبلات مثل هذه تبادلاها فى الجزيرة الخضراء فى قديم الزمان

* * *

جرح أبو عامر المنصور فى احدى المعارك التى خاض غمارها ضد ملوك الاسبان وأمرائهم المتحالفين عام ١٠٠١ للميلاد ، الموافق ٣٩١ للهجرة . ومات متأثرا بجراحه ، فدفن فى التراب الذى جمعه عن درعه بعد كل معركة ، خلال عشرين سنة من حياته ، والذى ملأ به صندوقا كبيرا مصنوعا من خشب الأرز المغربى ، وكانت وفاته فى صيف تلك السنة ، فى « مدينة سالم » التى يسميها الاسبانيون « مديناسيلى » بعد ان عاش ٦٢ سنة ، قضى نحو نصفها فى ميادين القتال :

وقد عرف أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بالمعافرى نسبة الى قبيلة معافرة الحميرية القحطانية التى تنتمى اليها أسرته ، وبالطريشى نسبة الى ضاحية طريش التى ولد فيها بالجزيرة الخضراء ، وبالحاجب نسبة الى الوظيفة التى كان يشغلها فى القصر قبل ان تلقى اليه الملكة صبح بمقاليد الحكم ، وبالمنصور تخليدا لانتصاراته الباهرة فى الميادين !

بلانــــكا ٠٠ وأمير المـــاء !

منى الامير المجاهد الى الغــــزو برا وبحرا ، ولــكن حســــناء غريبة غـــــزت قلبه فاحتلته ! . . .

رب مصادفة خير من ميعاد !

بهذه الكلمات ختم الامير « مجاهد » حديثه مع الفتـــاة الجميلة الجالسة على اريكة بجانبه . وبســط لها كفيه ، فوضعت فيهما يديها الناعمتين ، وضغط عليهما الامير العربى وقال بلهجة تنم عن نية صافية وعزم أكيد :

ـ بلانــكا ... لن أخيب لك أملا ، ولن أرغمك على الرجوع عن قسمك ، وأعاهدك أمام الله على أن أعيدك الى وطنك ، وأجمع بينك وبين اهلك . ولن يمضى شهر واحد حتى يكون هذا الوعد قد تحقق !

ونفرت الدموع من عينى الصبية الحسناء ، ومالت برأسها على يدى محدثها ، وأرادت أن تقبلهما ، ولكنه سبقها ، وأخذ رأسها بين كفيه الواسعتين ، وطبع على الجبين النير قبلة كلها حب وحنان ...

ونظرت اليه الفتـاة بعينيهـا الدامعتين ، وقد شع منهما بريق البهجة الممزوجة بعرفان الجميل ، وتمتمت قائلة :

ـ لك الشكر أيها الامير ... لك الشكر من الاسيرة التى أعدت اليها الرجاء ، والتى تكرر لك القسم بأن تكون لك زوجة مخلصة وفية ، فى اليوم الذى تطأ فيه قدماها أرض البلد الذى رأت النور فيه !

ـ حقق الله أملى وأملك .. والآن اذهبى ، وتأهبى للرحيل .. اما أنا ، فسأعد العدة لهذا الرحيل ، مع « خاطر » الذى سمع حديثنا ، وكان شاهدا علينا ! ...

وانصرفت بلانكا مسرعة فرحة . واستأنف الامير حديثه مع رجل قابع فى ركن من اركان القاعة ، يصغى ولا يتكلم . وكرر مجاهد عبارته :

ـ رب مصادفة خير من ميعـاد ياخاطر ! فقـد أوحت الى هـذه الصبية بالجهة التى أبحث عنها منذ شــهور ، لاذهب اليها بسـفنى ورجالى ، غازيا فاتحا . فاستعد أنت أيضا للرحيل ، وسوف تشاركنا فى غزو جزيرة سردينة ، وطن أسيرتك بلانكا ، وضمها الى فتوحاتنا :

فنهض خاطر من مكانه ، وقد ارتسمت على وجهه امارات الفرح! وقال بصوت زادت الحماسة نبراته قوة وايمانا :

ـ أنت لها يامولاى ! وأنا وأبنائى وأسرتى معـك فى هـذه الغزوة التى سوف تكون فى الواقع رحلة للنزهة والترفيه !

* * *

« خاطر اللاذقانى » تاجر سورى واسع الثراء ، ماهر فى قيادة السفن بقدر ما هو مغامر فى رحلاته البعيدة وصفقاته التجارية . وقد ذرع صفحة البحر المتوسط بسفينته الخفيفة شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وألقى مراسيه فى معظم الموانىء المفتوحة أمام طلاب الربح من ذوى الجراة ، يرافقه عادة فى صولاته وجولاته أبناؤه الثلاثة وبعض الملاحين ، وأحيانا زوجته وابنتهما الصغيرة « آمنة » التى رأت النور فى الاسكندرية ، خلال اقامة قصيرة فى بر مصر .

كانت القرصنة فى ذلك الوقت من الاعمال المشروعة ، وكان القراصنة يتمتعون بحماية ملوكهم وأمرائهم وأصحاب السلطان والنفوذ فى بلادهم ، ولكن « خاطر اللاذقانى » عرف كيف يظل فى مأمن من عدوان القراصنة الافرنج ، بينما كان يجد بين قراصنة العرب حماة ومرشدين ...

وفى احدى رحلاته ، عرج على خليج كلياري بجنوبى جزيرة سردينية ، حيث كان له أصدقاء وعملاء فى القرى الممتدة حول ذلك الخليج . ولكنه فى تلك المرة فوجىء بجماعة من القراصنة الافرنج كامنين له فى ذلك المخبأ الطبيعى . فدارت بينهم وبين رجاله معركة عنيفة ، على ظهر السفينة وفى بر الجزيرة ، وتمكن خاطر ورجاله من الافلات وانقاذ السفينة وحمولتها من الضياع ، وابتعدوا مسرعين بعد أن عطلوا سفينة القراصنة فمنعوهم من مطاردتهم فى عرض البحر !

وبدل أن ينهب القراصنة بضائع التاجر العربى ويأسروا رجاله ، تركوا فى قبضتهم كمية من الزاد والسلاح ، واربعة من الاسرى ، وصبية فى الخامسة عشرة من العمر !

باع خاطر اللاذقانى اسراه الاربعة فى أسواق الرقيق ، واحتفظ بالاسيرة اجابة لرغبة زوجته وابنته ، فعاشت « بلانكا » فى كنف تلك الاسرة العربية التى تبنتها ، واقامت تارة فى اللاذقية او غيرها من الموانىء العربية ، وتارة فى السفينة الضاربة فى عرض البحار ...

***

ثلاثة أعوام مضت على ذلك اليوم الذى وقعت فيه بلانكا الافرنجية أسيرة سبية ، ترعرعت الفتاة فى خلالها ، وتجلى جمالها فى أبهى حلته ، وصارت تعد نفسها عضوا فى الاسرة التى احاطتها بعنايتها ، ولكنها ظلت تذكر أهلها ، وبلادها ، وتحن الى شواطىء جزيرتها ، وتتوق للعودة الى رؤية أبيها وأمها واخوتها .

كانت يوم أسرها فى نزهة على شاطىء البحر ، حيث فاجأتها

المعركة بين القراصنة والتجار العرب ، وهكذا شاءت الاقدار ان تحرم من اسرتها التى تمارس صيد السمك فى خليج كليارى

احبتها زوجة خاطر كما لو كانت ابنتها ، وبادلتها بلانكا الحب كما لو كانت امها . وتفننت « آمنــة » بنت خاطر فى التودد الى الفتــاة الغريبة ، لكى تنسيها انها اسيرة منفية بعيدا عن الاهل والحمى ، ولكن هيهات ان ينسى الغريب حماه واهله !

واحبها بهاء الدين ، كبير ابناء خاطر ، وكاشفها برغبته فى اتخاذها زوجة له ، قائلا انه سيترك لها حرية البقاء على دينها ، ويبـذل ما فى وسعه ليضمن لها السعادة والهناء ، ويستقر معها فى اللاذقية او غيرها من الموانىء العربية ، اذا كان لا يروق لها التنقل المستمر والسفر الدائم من مكان الى مكان ...

وقالت بلانكا : « شىء واحد يهمنى فى هذه الحياة ، وامنية واحدة تختلج فى صدرى يا بهاء الدين : أن اعود الى بلدى ، وارى أمى وابى ! وليس فى هذا ما يسىء اليك والى ذويك . فقد أحسنتم معاملتى ، وأنا لكم شاكرة وفية ... ولكننى لن أصبح زوجة لرجل ، الا اذا تعهد لى بأن يعيدنى الى قريتى ، وبيتى ... ونفذ العهد ! واذا حاول أحد أن يرغمنى على شىء غير هذا ، فسأنتحر ! »

وشاءت الاقدار أن تداهم السـفينة فى احدى رحلاتها البعيدة زوبعة عاتية ، سقط خلالها بهاء الدين بن خاطر فى البحر ، وعدت أسرته هذا الحادث نذير شؤم عليها ، ونسبت هـذا الشؤم الى بقاء الفتـاة الغريبة فى كنف الاسرة ، تحت سقف بيتها ، أو على ظهر سفينتها ...!

وقال لها خاطر اللاذقانى ذات يوم ، وهو فى طريقه من مدينـة الجزائر الى ساحل الاندلس !

– اننا ذاهبون الى بلاد لا تعرفينها انت ولا نعرفها نحن ، لاننى فى طريقى اليهـا للمرة الاولى منذ أن بدات اجوب البحار ، وهنـاك ، سأبحث لك عن وسيلة تتحقق بها أمنيتك يا بلانكا . فقد كان بوسعى أن أبيعك فى سوق الرقيق كما بعت الشبان الذين أسرتهم معك ، ولكن زوجتى وابنائى آثروا معاملتك باللين والحسنى . وقد تقاسمنا معك السراء والضراء ، وأكلنا معك الخبز والملح . فلا يسعنى بعد اليـوم أن اتخلص منك بالبيع والشراء ، ولا أن أهديك الى أحد من أصدقائى كما تهدى الجوارى والاماء ... فابشرى : سيكون لك ما تريدين ، واذا لزم الامر ، فسأخاطر بحياتى مرة أخرى ، واعيدك بنفسى الى الجزيرة التى اسرتك على شاطئها !

فى ميناء « دانية » بالاندلس ، قوبل خاطر اللاذقانى وجماعته بالترحاب والاهتمام الشديد . فقد جاء معه بكميات كبيرة من السلع الثمينة والمواد النادرة . وأهل دانية كلهم اما من رجال التجارة أو من رجال الحرب ، ولهذا أقبلوا على شراء ما حمله اليهم خاطر ، من ناحية ، واهتموا من ناحية أخرى بما زودهم به من أخبار عن البلدان التى مر بها خلال جولاته فى البحار

وكان يحكم دانية فى ذلك الوقت — أى فى القرن الخامس للهجرة والحادى عشر للميلاد ، أمير طبقت شهرته الآفاق ، وذاع صيته فى البلدان العربية والاوروبية على السواء ، وبسط سلطانه على المدينة وضواحيها ، وعلى جزر بليار الواقعة فى البحر تجاهها ، وقام بغزوات موفقة على سواحل فرنسا الجنوبية ، وتوغل على رأس فرسانه فى داخل تلك البلاد ، حتى بلغوا جبال سويسرة ووديانها

اسمه « مجاهد » ويطلق عليه العرب لقب « أمير الماء » بالنظر الى أن أشهر المعارك التى خاض غمارها كانت معارك بحرية ، أحرز فيها جميعها نصرا مبينا ، ولم يعرف فى حروبه هزيمة أو فشلا

اما الاوروبيون ، فبعضهم يسمونه « موجيت » وبعضهم يسمونه « موجكتوس » والاسمان تحريف لاسمه العربى الحقيقى « مجاهد »

عاصر هذا الامير الشجاع الخليفة الأموى هشام الثانى ومن جلس بعده على العرش فى الاندلس

وكان يحكم البلدان التى غزاها ورفع عليها الاعلام العربية ، حكما يكاد يكون تاما مستقلا ، كما جرت العادة بالنسبة الى القواد الفاتحين فى ذلك الزمان

ومجاهد بن يوسف بن على يعرف بالعامرى ، لانه ولد فى قرطبة ورباه أبناء الوزير أبى عامر المنصور ، فنسب اليهم وتسمى باسم أسرتهم .

نشبت فى قرطبة فتنة اشترك فيها البربر وفريق من العرب ، فخرج مجاهد بن يوسف من المدينة ومعه جمع من انصار بنى عامر ، وفريق من المغامرين ، فقصد بهم الى الساحل حيث أنشأ امارة عرفت بالدولة العامرية . وجعل دانية عاصمة لها .

كان مجاهد يبالغ فى تكريم الوافدين على امارته من البلدان العربية الأخرى ، ومن المشرق على الخصوص ، مدفوعا فى هذا بعاطفة الحنين التى كانت تغمر صدور أهل الاندلس بالنسبة الى البقاع التى جاء منها الأمويون مؤسسوا دولتهم ...

ذلك الاهتمام بالوافدين من المشرق جعل حاكم دانية يدعو خاطر اللاذقانى واسرته ورفاقه للنزول ضيوفا عليه . وما مرت أسابيع حتى كان التاجر المغامر قد استحوذ على تقدير الامير المغامر مثله ، وأصبح موضع ثقته ، ومؤتمنه على الكثير من خواطره وأسراره .

وشاءت الاقدار مرة اخرى أن تلعب بمصير الفتاة الاسيرة التى تصحبها أسرة خاطر اللاذقانى معها . فقد رآها أمير المـاء مجاهد ، وتعـلق بها منذ النظرة الاولى ، وفتن بما طبعت عليه من رقة وذكاء ولباقة فى الحديث ، فضلا عن الجمال الباهر المشع من ذلك الوجـه النير ، وتينك العينين الساحرتين ...

قص عليه خاطر قصتها ، وكرر على مسامعه أقوال الفتاة الغريبة التى اقسمت أن تنتحر اذا ارغمت على الزواج ، وان لا تصبح ملـكا الرجل الا اذا تعهد باعادتها الى بلدها وأهلها ، ونفذ العهد !

وأراد مجاهد الاندلسىأن يسمع من فم بلانكا النصرانية تكرار ذلك القسم ، فسمعه ، وأرادها أن تحدثه عن البلاد التى جاءت منها ، والتى كان القائد المغامر قد غزا سواحلها أكثر من مرة ، فوصفت له الحسناء الجزيرة الكبيرة الرابضـة فى قلب البحر المتوسط ، الذى كان عرب المشرق يسمونه بحر الروم ، وما فيها من غابات ، وحدائق ، وطيور ، وحيوانات أليفة ، ووحوش كاسرة ، وقرى ومزارع ، ومصائد أسماك يستمد منها السكان ثروتهم ، وجبال خضراء أو جرداء ، وقلاع تحمى السواحل والثغور والمضايق ، ورجال أشداء أقوياء ، ونسـاء جميلات فاتنـات !

وتوالى اللقاء مرة بعد مرة ، بين الامير والفتاة : لقاء لحمته كلام وسداه كلام ، الرجل يسأل والحسناء تجيب . وفى كل مرة ، كان القائد الباحث عن مغامرات جديدة يزداد رغبة فى جعل الجزيرة موضع الحديث هدفا لغارة ، وميدانا لغزوة !

وفى كل مرة ، كان الرجل الممتلىء صحة وقوة ، يزداد ميلا الى الصبية الجميلة ، واقتناعا بأن المصادفة ـ بنت القدر ـ ساقت اليه فى آن واحد ، زوجة تزين بيته ، واقليما يضاف الى الاقاليم التى تتألف منها امارته !

وفى كل مرة ، كان مجاهد يردد ، بعد حديثه مع الفتاة : « رب مصادفة خير من ميعاد !

وهذا ما ردده على مسامعها ، وعلى مسامع خاطر اللاذقانى الذى كان معها ، فى المقابلة الاخيرة التى تعهد لها فيها بأن يعيدها الى اهلها ،

مما جعل الدموع تنفر من عينيها ، فانحنت تود ان تقبل يديه ، لكنه سبقها ، وأخذ رأسها بين كفيه الواسعتين ، وطبع على الجبين النير قبلة كلها حب وحنان !

***

أعد أمير الماء مجاهد الاندلسى عدته ، وجهز أسطوله ، وحشد على ظهور سفنه رجاله وعتاده ، وقبل أن ينقضى الشهر الذى وعد الفتاة بأن يعيدها الى أهلها فى نهايته ، كانت تلك السفن تفرغ حمولتها من الفرسان بخيولهم المطهمة ، ورماحهم البراقة ، وسيوفهم القاطعة ، على سواحل جزيرة سردينية الجنوبية ، وفى خليج كلياري بالذات ...

وكان الجيش الذى يقوده مجاهد ، كمعظم الجيوش التى تخرج من الاندلس غازية فاتحة ، يضم فى صفوفه المتراصة ، ويجمع تحت أعلامه الخفاقة ، أبطالا جاءوا من مختلف أنحاء الاندلس ، ومن بلاد المغرب الاقصى ، ومن الجزائر وتونس ، ومن مصر والنوبة ، ومن لبنان والشام ، ومن الحجاز واليمن !

كانوا يمثلون جميع أوطان العرب فى جيش واحد ، تحدو بهم جميعا رغبة واحدة ، ويجلب أنظارهم هدف واحد : غزو جديد ، وفتح جديد ، وملك جديد ، وأمجاد جديدة ، تضاف الى ما سبقها من غزوات وفتوحات وأملاك وأمجاد ... !

كان أمير الماء يبحث عن بلد يسير اليه بجيشه ، فساقت اليه الصدف تلك الفتاة لتحدثه عن وطنها ، وتبهره بجمالها ، ففتحت له طريق الغزو الذى كان ينشده ، وملأت فراغا فى قلبه فاحتله الحب واحتلت بجانبه زوجة جديدة محل الزوجات السابقات !

وسقطت جزيرة سردينية فى قبضة العرب ، فى بضعة أسابيع ، ورفع عليها أمير الماء مجاهد اعلام الاندلس . وظلت تلك الاعلام مرفوعة على تلاع الجزيرة وثغورها وقمم جبالها خمس عشرة سنة كاملة !

***

اعاد مجاهد أمير الماء فتاته الحسناء الى أهلها . ولكنها ، بعد أن روت ظمأها من قبلات أبيها وأمها ، رفضت أن تبقى معهما ، وأبت الا أن تبر بالقسم الذى قطعته على نفسها تاما كاملا ، كما بر الامير العربى بقسمه تاما كاملا .!

وفى غمرة النصر ، بعد ان أصبحت الجزيرة ملكا للفاتح المحظوظ ، القت بلانكا بنفسها بين ذراعيه ، وبكت من الفرح بعد أن كانت تبكى من الحزن ، وقالت بصوت ينبعث عرفان الجميل من خلال نبراته :

ـ كنت أوثر أيها القائد الشـــجاع ألا تكون عودتى الى بلادى على حساب حريتها ، وأن لا تفك قيودى ليرسف بنو قومى فى قيودهم ، وأن لا تتحقق سعادتى بالقائهم فى جحيم الشـقاء ... فكل ما أطلبه منك الآن ، أن تكون حاكما عادلا ، والا تعامل القوم هنـا ، معـاملة الأسرى والاعـــداء !

فضم مجاهد ، أمير الماء العاشق ، ذراعيه القويتين حول جسـم الفتاة البض ، وطبع قبلاته بلا حساب على البشرة الناصعة البياض ، وقال باللهجة ذاتها التى سمعتها بلانكا من قبل مرة بعد مرة :

ـ وكيف أعامل معاملة الاسرى والاعـــداء ، قوما تنتمى اليهم زوجتى المحبوبة !

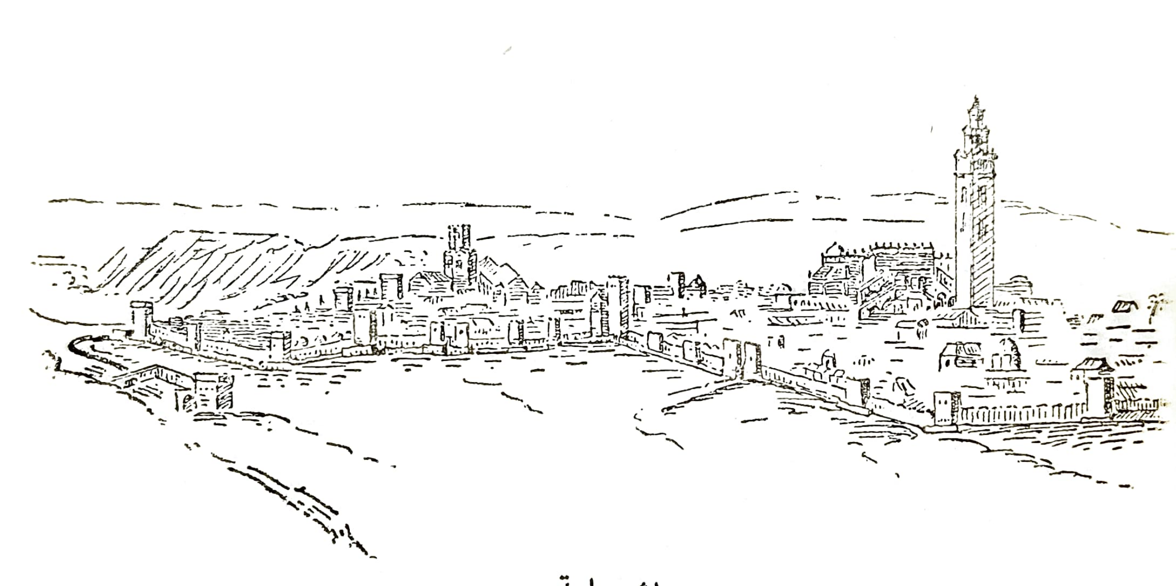
وعاشت بلانكا فى كنف أمير الماء ثمانية أعوام ، رزق منها مجاهد فى خلالها ثلاثة أبناء ...

وماتت قبل زوجها ، وقبل أن تضيع سردينية مرة أخـــرى من العرب !

أما الأمير مجاهد بن يوسف بن على العامرى ، فقد دامت له امارته التى صانها بحد السيف ، اكثر من اربعين سنة ، حتى وافته منيته فى عام ٤٣٦ للهجرة ، ١٠٤٦ للميلاد .

الدنانير المســـمومة !

من حفر حفــرة لأخيــه وقع فيها ـ
ومن حاك مكيدة للغير راح ضحيتها !



اشبيلية
عاصمة الأمراء العباديين بالأندلس

جلس « المعتضد ابو عمرو بن عباد » صاحب « اشبيلية » مطرقا الى الأرض يعبث بلحيته وقد تقطب جبينه وارتسمت على وجهه امارات القسوة وهو يصغى الى امراة كانت تخاطبه بلهجة جافة وتقول له :

– نصحتك بأن تقتل هذا الرجل يا مولاى وتأمن شره ، فترددت ثم احجمت ، وأبقيت على حياته وان كنت لم تبق على ماله ، فرحل عن اشبيلية ، بل غادر الأندلس وقصد الى الحجاز ، وها هو ذا الآن يسلط عليك لسانه لينال منك بقاذع القول ، ما لم يكن فى وسعه أن يناله منك بحد النصال ، وها أنت تندم على مافرط منك ، وتؤنب نفسك على أعراضك عن الاصغاء الى نصيحتى والعمل بها . ولكن الفرصة التى افلتت منك يمكن أن تعوض . وقد فكرت فى ذلك وأعددت للأمر عدته !

ولما انتهت المرأة من تأنيبها ، رفع « المعتضد » رأسه ومد يده وراح يداعب بشرتها النضرة ، ثم قال بصوت هادىء ولهجة لا أثر للغضب فيها :

– ليست هذه يا سعدية أول مرة تنهالين فيها على لوما وتقريعا . وقد قلت لك وكررت القول أننى أخطأت ، ولكن ما العمل الآن وقد أصبح الرجل فى مأمن من صولتنا ؟

فقهقهت سعدية وقالت هازئة :

– فى مأمن من صولتنا ؟ أتعتقد يامولاى أن باعك اقصر من أن يمتد الى الحجاز ليبطش برجل فقير ضرير لا يستند الى مال أو جاه أو سلطان ؟ اذا كان الامر كذلك فدعنى اذن أتدبره برأيى ، وأعد العدة لاراحتك من ذلك العدو البذىء اللئيم !

– لك ما تريدين يا سعدية ، فهو عدوك بقدر ما هو عدوى ، وفى موته ارضاء لك أيضا . وقد انتزعتك من حوزته واستوليت على ثروته، وياليتنى قتلته فى ذلك الوقت !

– ان جل همه الآن أن يثير عليك المسلمين وأن يقتلك لو تمكن منك . لقد قال لى ذلك قبل أن تمتد اليه يدك ، عندما كنت لا ازال فى حوزته ، أضرب على العود أو أنقر على الدف أو أطربه بغنائى . ولكنه اهاننى واوسعنى ضربا وسامنى مر العذاب ، لا لسبب الا لانه كان ناقما على الناس المبصرين وهو المحروم من النور . فشكوت أمرى اليك

يامولاى وكنت حينذاك فى شرخ الشباب ، وقد خلفت اباك محمد بن اسماعيل فى حكم اشبيلية ، فانتصرت لى ..

— واحببتك ياسعدية ، فانقذتك من سيدك مرزوق الضرير ، وجعلتك واحدة من نساء القصر المحبوبات المدللات ، وكان أن اثرت فى نفسى ايضا رغبة الانتقام لك من ذلك الرجل ، والطمع فى الحصول على ماله الوفير وكنوزه المتراكمة فى مخابىء داره ، فطاردته ، وسلبته كل ما يملك ، ففر هاربا الى الحجاز . وها هو اليوم يقيم فى مكة ، متسولا فى الطرقات ، مخاطبا الناس فى المساجد وفى داخل الحرم وحول الكعبة ، منددا بى وبأسرتى ، مؤلبا على جموع المسلمين . فهو الان اكثر ضررا على مما كان بالامس فى اشبيلية ، واشد خطرا على سمعتى — رغم بعده — مما كان وهو قريب !

— اذن ، اعمل بنصيحتى فى هذه المرة يامولاى ، وانا كفيلة لك بان انفاس الرجل ستخمد كما انطفأ نور عينيه !

— افعلى ماتشائين ياسعدية . فسوف أصغى اليك فى هذه المرة واعمل باشارتك !

* * *

فى اليوم التالى ، كانت سعدية فى حجرة « ابن عباد » تطلعه على تفاصيل الحيلة التى نسجت خيوطها بيدها للتخلص من عدوه وعدوها « مرزوق الاعمى » .. فقد أعدت صندوقا من الخشب ملأته بالدنانير الذهبية ، ودعت سيدها الى معالجة تلك الدنانير بمواد سامة بمعرفة طبيب القصر ، بحيث ينتقل السم منها الى يد كل من يلمسها ، ثم يسرى فى جسمه ويقتله قتلا بطيئا أو سريعا ... ووافقها ابن عباد على رأيها ، فسقيت الدنانير بسم زعاف ، وأعيدت الى صندوقها الخشبى ، واحتفظ « ابن عباد » فى علبة صغيرة بقطعة واحدة منها ، قائلا انه قد يحتاج اليها فى مستقبل الايام . ثم جىء برجل من أمناء « بن عباد » يحمل اسم « مرزوق » مثل الاعمى الهارب الى الحجاز ، فقال له ابن عباد :

— يا مرزوق . لقد اخترتك من بين المخلصين المقربين لمهمة أعدها وشئون الدولة سواء بسواء ... فعليك أن تشد الرحال الى الحجاز ، وتقصد الى مكة ، وتبحث عن سميك مرزوق الاعمى ، وتقرئه السلام منى ، وتقول له انى نادم على مافرط منى نحوه ... ولهذا ، فاننى ادعوه للعودة الى وطنه أشبيلية ، وأبعث بهذا الصندوق المملوء بالدنانير الذهبية لينفق منها فى الحجاز وفى الطريق . وله منى هنا ، بعد عودته ، اضعاف

اضعاف هذه الكمية من الذهب ... واياك أن تفتح الصندوق أو تلمس الدنانير لان فى ذلك خطرا عليك . اذهب بسلام وأمان وفقك الله !

وانطلق مرزوق المبصر فى أثر مرزوق الضرير !

***

كان « ابو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد » ، الملقب بالمعتضد بالله ، قد ولى أمر أشبيلية بالاندلس خلفا لابيه « القاضى ابى القاسم محمد بن اسماعيل » سنة ٤٣٤ هجرية ، الموافقة لسنة ١٠٤٢ للميلاد ، وادعى فى بادىء الامر انه يحكم باسم « هشام بن الحكم » الاموى ، وأن هذا الملك التعس مختبىء عنده فى القصر ولايريد الظهور امام الناس . ثم ادعى أن الاموى قد مات ، ونادى بنفسه سيدا على اشبيلية فى سنة ٤٥١ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٥٩ للميلاد ،فحكمها حكما صارما قاسيا ، وكانت له حسنات كثيرة مثل سيئاته . وقد بطش بخصومه ومنافسيه والمتمردين على سلطانه بشدة مصحوبة بالدهاء . وامتد حكمه الفردى عشرة أعوام فتوفى فى سنة ٤٦١ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٦٩ للميلاد . ويعد « المعتضد » من أعظم ملوك الطوائف بالاندلس ، وأوسعهم جاها ، وأبعدهم ذكاء ، وأوفرهم حيلة ، وأكثرهم ميلا الى العلم والادب . وله قصائد عامرة بالابيات الرائعة والمعانى الطريفة والمشاعر الرقيقة ..

والحادثة التى وقعت له مع مرزوق الاعمى واحدة من سلسلة لا نهاية لها من حوادث الانتقام ، ومظهر من مظاهر قسوته فى معاملة أعدائه والتخلص منهم ، سواء أكانوا من العرب أو من البربر أو من الاسبانيين أصحاب البلاد الاولين ..

أما مرزوق الاعمى ، فكان من أوسع الاشبيليين جاها وثروة . قيل انه شامى ، وقيل انه وفد على الاندلس من مصر ، وقيل انه من أصل وضيع فى الحجاز ، وقيل غير هذا عن نسبه وعن بلده وعن اسمه . ولكن المعروف الاكيد عنه ، انه كان يملك دارا فخمة فى ظاهر أشبيلية ، يختزن فيها من الاموال والتحف والحجارة الكريمة مالايقع تحت حصر ، مما أسال لعاب « ابن عباد » وبعث فى نفسه الرغبة فى الاستيلاء على ذلك الكنز المخبوء والاموال الطائلة ، وهو المحتاج اليها لدعم ملكه وتوسيع شقته والانفاق على جيشه . وقد غذت سعدية الهاربة من كنف الاعمى تلك الرغبة فى نفس « ابن عباد » ، فضرب ضربته ، اشباعا لطمعه من ناحية ، وارضاء للمراة التى احبها من ناحية أخرى ..

داهم رجاله قصر الاعمى وطردوه منه . ووضع « ابن عباد » يده على كل ما كان يملكه مرزوق من منقول وغير منقول ، فهام الرجل على

وجهه فى الاندلس ، وانتهى به الامر ان قصد الى الحجاز حيث راح يدعو على ابن عباد ويثير الناس عليه .!

****

وصل « مرزوق » رسول « المعتضد » الى مكة ، ولم يطل به البحث عن سميه الضرير ،فقد التقى به فى باحة الحرم يخاطب الناس كعادته ويعدد على مسامعهم مساوىء صاحب اشبيلية ومظالمه . ففاجأه بالمهمة التى قطع المفاوز الشاسعة من أجلها ،ودفع اليه بالصندوق وأطلعه على كل ماحدث وماقاله له « المعتضد » قبل رحيله عن اشبيلية . وتردد الاعمى كثيرا قبل أن يصدق ماقاله الرسول ، وقال بلهجة من يساوره الشك والخوف :

– عجبا من هذا الامر ! .. أيظلمنى المعتضد بالامس وينصفنى اليوم ؟ أيسلبنى مالى فى الاندلس ويبعث الى بثروة فى الحجاز ؟ ايفقرنى فى اشبيلية ويغنينى فى مكة ؟

فأجاب الرسول :

– هذا هو الواقع ياحاج . فقد أنبه ضميره على مابدر منه. فأقبل هذه الهدية التى يرسلها اليك المعتضد تكفيرا عن ذنوبه واعترافا بخطئه.

واستعد من الآن للعودة الى اشبيلية حيث ينتظرك صاحبها ليفعل من أجلك أضعاف مافعلته أنا الآن بالانابة عنه !

وهرول الضرير الى كوخه ، حيث فتح الصندوق ووضع قطعة من الذهب فى فمه ، وجعل يتلمس الدنانير ، ويعدها واحدا واحدا ، ويشنف أذنيه برنينها على الارض ، مستعينا بحاستى اللمس والسمع الدقيقتين عنده عن حاسة البصر المفقودة ، وقضى ساعات طوالا ينعم نفسه بتلك اللذة المفاجئة ، ويضرب أخماسا بأسداس ، ويبنى الاحلام البعيدة ، ويستغفر الله على ما ألحقه من اساءة بابن عباد الطيب القلب النادم على مافات !

واستلقى مرزوق الضرير على الخرق البالية التى اعتاد أن ينام عليها ، ووضع تحت رأسه كومة الذهب القاتل ، وقال فى نفسه : « منذ الغد ، ستنام يامرزوق على ريش النعام ! »

ونام « مرزوق » ولكنه لم ينهض من نومته . فقد سرى السم فى جسمه وجعل ليله أبديا بلا صباح !

****

قفل مرزوق الرسول عائدا الى اشبيلية ، بعد انجاز مهمته واداء

رسالته ، ولما دخل قصر المعتضد ، وجد الحركة على غير المألوف ، فسأل عما حدث ، وقيل له ان سعدية ، أحب جوارى القصر الى ابن عباد ، وجدت فى صباح ذلك اليوم ميتة فى حجرتها ..!

ومثل « مرزوق » أمام صاحب اشبيلية ليبلغه انجاز المهمة التى أوفده من أجلها الى الحجاز ، فعلم منه أن المرأة فتحت الصندوق الصغير الذى يضم دينارا من تلك الدنانير المسمومة ، فسعت الى حتفها بظلفها ..

وقال مرزوق :

— ودنانيرك المسمومة يامولاى قد أودت بحياة الضرير فى مكة ، ولكنها فتكت أيضا ، فى الايام التالية ، بعشرات من الناس الذين عثروا عليها فى كوخ الرجل ، عندما فطنوا الى موته ، ووجدوا جثته الهامدة ملقاة على أطمار بالية تلمع بينها القطع الذهبية ! وقد خرجت من مكة خلسة ، وغادرت الحجاز هربا ، خوفا من أن يدرك الناس الحقيقة ، ويفتكوا بى كما فتكت بهم دنانيرك المسمومة !

فامتعض ابن عباد ، وأطرق مفكرا ، ولكن قلبه لم يخفق بعاطفة الشفقة ، بل تمتم قائلا :

— هذا حكم القدر . فلا حول ولا قوة الا بالله . وانا لله وانا اليه راجعون !

المدينة الملعونة

بين الناس أشخاص يرافقهم الشؤم ـ وبين المدن أيضا مدن تلاحقها اللعنة ! وسمورة واحدة منها !

مدينة حامت حولها المطامع ، وتطاحنت تحت اسوارها الجيوش ، واستماتت فى الدفاع عنها الحاميات ، وسالت فى أزقتها وشوارعها الدماء ، وتكدست فى البطاح والآكام المحيطة بها الاشلاء ، وملأت جوها نتانة الجيف ممزوجة بأريج الحدائق والبساتين : تلك هى المدينة المشئومة ، التى كان العرب يسمونها «سمورة» والتى يسميها الاسبانيون اليوم « زامورا » !

عشرون مرة اخذها العرب عنوة من الجلالقة وعشرون مرةهاجمها الجلالقة واستردوها من العرب !

وقد دونت اسمها فى سجل التاريخ بأحرف من حديد ونار !

ولا تزال قلاعها الى الآن قائمة فوق ربواتها ، تناطح السحاب وتتحدث الى العالم عن ذلك الماضى الدموى الرهيب !

دخلها العرب فاتحين فى خلال اجتياحهم لبلاد الاندلس ، لكن « الاذفونش » - أو الفونس الاول الملقب بالكاثوليكى ، هاجمها بفلول جيشه واسترجعها منهم فى سنة ٧٤٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٣٠ هجرية .

وأعاد العرب الكرة فاقتحموا أسوارها فى سنة ٨١٣ للميلاد - ١٩٨ للهجرة - لكنهم خسروها من جديد !

واستردها الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٩٣٨ ميلادية - ٣٢٧ للهجرة - وعاد الاسبانيون اليها بعد وفاته !

ودخلها العرب أيضا مرة بعد مرة ، وأخرجوا منها مرة بعد مرة ، فى سنى ٩٤٥ و ٩٦٣ ، و ٩٨٤ ، و ٩٨٦ للميلاد = ٣٣٤ و ٣٥٢ و ٣٧٤ و ٣٧٦ للهجرة ...

واخذها فرديناندو الاول ملك قشطيلة ويون الملقب بالكبير ، نولاها عناية خاصة ، وأهداها لابنته « دونيا أوراكا » فى سنة ١٠٦١ ميلادية = ٤٥٣ للهجرة .

لكن سمورة ، المدينة الملعونة ، مدينة الموت والعويل ، التى امتزجت فيها دماء الضحايا من عرب وجلالقة وقوط وغيرهم ، رجالا ونساء وشيوخا واطفالا ، سمورة هذه ، مدينة القبور والجثث ، أبت الا أن تكون لابنة الملك - بعد موته - بائنة دموية مشئومة !

مات فرديناندو الاول سنة ١٠٦٥ ميلادية = ٤٥٧ للهجرة - فقام ابنه ينازع اخته اوراكا امتلاك المدينة ، التى كان يعدها الاسبانيون فى ذلك الوقت امنع حصن فى بلادهم .

وبعد ان كان العرب والاسبانيون يتطاحنون تحت أسوار «سمورة» أصبح الاسبانيون أنفسهم يتناحرون تحت تلك الاسوار ، ويتقاتلون فى سبيل المدينة المنكوبة !

* * *

كان سكان سمورة فى ذلك الوقت يؤلفون مزيجا من الاسبانيين والعرب ، وقد جمعت الكوارث بينهم ، وقربت الملمات بين ميولهم ، فأصبحوا يعدون أنفسهم « سموريين » قبل كل شيء ، وصاروا ينظرون بعين الريبة والقلق الى كل جيش جديد قادم للاستيلاء على المدينة وطرد الجنود المقيمين فيها ...

ذلك لانهم كانوا قد ملوا الحروب والمذابح !

ولما قام ولى العهد - وقد أصبح ملكا بعد وفاة أبيه فرديناندو ، ينازع أخته مدينة سمورة ، ويهدد باقامة الحصار عليها ، ومنع الارزاق عنها ، الا اذا فتحت له أبوابها وسلمت اليه قلاعها ، طلب سكان المدينة من قائد الحامية أن ينزل على ارادة الملك ، فيحقن الدماء ، ويدفع عن مدينتهم شبح حرب جديدة

لكن القائد أبى الاذعان وعزم على المقاومة !

وأطلقت الحرب من عقالها ، وظلت سمورة سنوات عديدة تعانى من آلامها ما لم تعانه مدينة من قبل ...

* * *

لندع الجيوش تتحارب ، والابطال ينازل بعضهم بعضا فى ميادين القتال ، والدماء تملأ حول سمورة الخنادق والغدران ...

ولننتقل الى منزل من منازل المدينة ، ترتفع منه أصوات خافتة كأنها تصدر من صدور مكلومة ، أو كأن الذى يرسلها من فمه يخشى أن تصل الى خارج المنزل وتطرق الاذان الغريبة ...

من يقيم فى ذلك المنزل ، وأصوات من تلك الاصوات ؟

هو منزل محمد بن عبد الله الاموى ، والاصوات أصوات البقية الباقية من أسرته !

كانت تلك الاسرة كثيرة العدد ، وكان محمد بن عبد الله الاموى اذا ماخرج الى الحرب ، يتبعه عشرون من الفرسان المغاوير هم أبناؤه وأحفاده ، ووراءهم تسع نساء يحملن الماء والطعام ، لتغذية المحاربين واسعاف الجرحى والمصابين .

سقط محمد بن عبد الله الاموى صريعا فى حومة الوغى . وسقط من بعده ، قتيلا مثله ، ابنه الاكبر . وتبعهما الابناء والاحفاد الواحد بعد الآخر ...

وبعد ان توالت الحروب وتتابعت المعارك وحصد ملك الموت فى خلالها من حصد من الاحياء ، رجالا ونساء ، أقامت تلك البقية الباقية من الاسرة العربية فى ذلك المنزل الصغير ، ولبثت تنتظر اليوم الذى ينتقل فيه اللاحقون الى جوار السابقين !

ممن تتألف تلك البقية الباقية ؟

من الام وهى حفيدة محمد بن عبد الله الاموى ، وقد ناهزت الاربعين من العمر ..

والابنة « فاطمة » ولم تبلغ العشرين بعد ...

والابن المريض العليل ، وهو فى الثامنة من سنيه ...

أما الآب ، فقد خرج ذات ليلة الى الجبل للصيد فلم يعد . وغلب على ظن الزوجة وابنتها أن لصوصا قد اغتالوه فى ذلك الوعر الموحش ...

وأفراد الاسرة العربية الثلاثة يعانون منذ ذلك اليوم أنواع العوز والفاقة والفقر . وكأن الاقدار قد شاءت الا أن تحط عليهم بأثقالها ، فولجت الامراض باب المنزل ، وانقضت على الام فتركتها كسيحة لاتقوى على الحراك ، وعلى الابن فتركته أقرب الى الموت منه الى الحياة

وفى تلك الليلة التى كانت الاصوات تتصاعد فيها من ذلك المنزل ، كانت الام تنتحب ، والابن يصيح ، والفتاة المسكينة تروح وتجىء من هذا الى تلك ، دون أن تجد كلمة تسكن بها روع المريضين ..

ودون أن تجد فى ركن من أركان البيت بقية طعام تسد به رمق الجائعين !

***

خرجت الفتاة ليلا وتسللت الى ماوراء الاسوار ، وجعلت تجتاز السهل المحيط بها بخطى واسعة سريعة ...

ووصلت الى معسكر الجيش المحاصر للمدينة ، وقالت للحارس الذى أوقفها فى الطريق :

– دعنى أصل الى قائدكم لاننى اريد ان أفضى اليه بأمر هام !

اما القائد الذى كانت الفتاة تعنيه ، فهو الفارس المغوار والبطل الشهير « روديجز ديازدى بيفار » الذى أطلق عليه العرب والاسبانيون لقب « السيد » اقرارا من الجميع بشجاعته واقدامه وعلو همته !

كان « السيد » كامبيادور يقود الجيش المحاصر اسمورة ، ويرغب فى انتزاعها من مالكيها ، لضمها الى دولة قشطيلة ، وجعلها تابعة لسلطة التاج . خاضعة لالفونسو السادس ، سيده وولى نعمته . .

مثلت الفتاة العربية أمام ذلك القائد الاسبانى ، فاذا بها أمام رجل لا يستطيع الانسان أن يعرف عمره ، لان لحية كثيفة كانت تكسو وجهه ، وقد رد عليه معطفه فلم يظهر منه غير ثقبين لامعين وسط غابة من الشعر الاسود ...

نظر الى الفتاة ولم يفه بكلمة . ثم أشار اليها بالجلوس فجلست . وظل يحدق فيها البصر وهى تنظر اليه بعينين أفقدهما الحـزن كل شعاع ...

وبعد سكوت طويل ، انبعثت من بين شفتيه هذه الكلمات :

ــ اى النساء أنت وماذا تريدين ؟

فقالت فاطمة :

ــ أنا فتاة عربية ابنة عربى وحفيدة عربى . أقيم فى مدينة سمورة حيث رايت النور . وفيها أقامت أسرتى منذ اليوم الذى دخلها الخليفة عبد الرحمن الناصر فاتحا منصورا ، ونصب فيها أعلام المسلمين . لم يجنح احد من أسرة جدى محمد بن عبد الله الاموى عن دينه وتقاليده وتعاليمه ، واذا كنا جميعا قد آثرنا البقاء فى سمورة على الرحيل عنها ، فما ذلك الا لأن تربتها تضم رفات الجد وابنائه من بعده وأحفاده من بعد أبنائه . أما الآن ، فلم يبق أيها «السيد» من تلك الاسرة العربيـة العريقة غير امرأة كسيحة وولد مريض والفتاة التى تراها الآن ماثلة بين يديك . اننا عراة حفاة جائعون . لكننى ماجئتك أيها القائد لكى أطلب منك ثوبا أو حذاء أو طعاما . لخير لنا أن نموت على قارعة الطريق من أن نبسط أيدينا متسولين .لكننى جئتك طالبة منك أمرا واحـدا ، وهو أن تفتح امامنا سبيل الرحيل الى ماوراء هذا الجيش الذى تقوده . اننى احتفظ بقطعة من الزمرد ، هى الاثر الوحيد الباقى من حلى نساء أسرتنا وجواهرهن ، فخذها ايها « السيد » واعطنى بدلا منها دابة انقل على ظهرها أمى الكسيحة وأخى المريض . ومر جنودك بأن يفسحوا لنا الطريق ولا يعترضونا فى الرحيل !

ظل « السيد » صامتا يصغى الى الفتاة العربية وهى تبسط له طلبها بأنفة واباء ، ثم قال لها بعد أن انتهت من كلامها :

ـ لك ماتريدين أيتها الفتاة الشجاعة . سأطوف بك على خيول الجيش واترك لك الحرية فى أن تختارى منها الجواد الذى تريدين ! والآن الى بالجوهرة التى أشرت اليها !

فتناولت فاطمة من طيات ثوبها الزمردة الثمينة ودفعتها الى القائد الاسبانى ، قائلة :

ـ خذها ثمنا لجوادك فاننى لا اريد ان اكون مدينة لاسبانى بشىء !

****

ابتعدت الاسرة العربية عن سمورة فى حراسة ثلاثة من رجال السيد الملثمين . واجتازت صفوف الجيش دون أن يعترضها معترض ، ووصلت الى ظاهر الجبل حيث الطريق ممتدة الى الشرق والجنوب ..

وهنالك وقف الفرسان الثلاثة ، وتقدم واحد منهم وخاطب الفتاة قائلا :

أيتها العربية الحسناء لقد رفضت الركوب على متن جواد من جيادنا ، وفضلت اجتياز الطريق مشيا على قدميك ، بينما يحمل هذا جيادنا ، وفضلت اجتياز الطريق مشيا على قدميك ، بينما يحمل هذا الجواد الذى اشتريته منا أمك واخاك المريضين . فهل لك الان ان تقبلى رجاء من الرجل الذى قبل رجاءك واجابك الى طلبك ؟

وأماط الفارس عن وجهه اللثام ، فاذا بالفتاة ترى أمامها «السيد» رودريجز دياز دى بيفار بنفسه ،وقد أمسك بيده تلك الجوهرة الثمينة التى أخذها من الفتاة فى الليلة السابقة ...

تراجعت فاطمة مذهولة . فقال لها الاسبانى :

ـ احتفظى بها اكراما لاهلك واحياء لذكرى الاموات الامجاد منهم . فانى احترم تلك الذكرى كما يحرمها العرب انفسهم ، اذا كان ابناء قومك قد أطلقوا على اسم « السيد » فاننى أعلم أن أبطالهم جميعا أسياد وابناء أسياد فاقبلى يابنتى أن أعيد اليك هذه الجوهرة ، وأن أحفظ ذكرك فى اعماق صدرى ، وامجد فيك الاباء والاخلاص والنبل والشرف

فتناولت الفتاة من يد القائد جوهرتها العزيزة ، ونظرت اليه وقد انهمرت الدموع من مقلتيها دفعة واحدة وقالت :

ـ لم يخطىء أولئك الذين اطلقوا عليك ذلك اللقب ، ياسيد الرجال !

وسارت الاسرة فى طريقها الى حيث الاعلام العربية لاتزال مرفوعة، تاركة وراءها سمورة ، مدينة الدم والنار !

الأزهار القاتلة

كانت سنة ٤٨٥ للهجرة شؤما على المعتمد بن عباد واسرته وانصـاره ، هزمه المرابطون وسقط فى المعركة الحاسمة معظم المقربين اليه ومن بينهم سمعان التلاوى، الشيخ الطبيب العالم الذى خاض المعركة دفاعا عن الامير الذي استضـافه والبـلد الذى آواه ! . .



المعتمد بن عبـــاد
آخر من حكم من الأمراء العباديين وقد
مات بالمنفى فى مراكش

على ظهر السفينة السابحة فوق الامواج ، تجاه الساحل الافريقى ، جلس « سمعان التلاوى » وابنته « رحمة » يتجاذبان الحديث عن المفاجآت التى قد يخبئها لهما الغد فى طيات أيامه .

قال الاب الشيخ : « لست أدرى يا ابنتى اذا كنا قد احسنا صنعا فى الهجرة من بلادنا الى أرض غريبة لا نعرفها . واخشى ان يكون سماعنا لنصيحة أصدقائنا أمراء طرابلس فاتحة مستقبل مفعم بالمتاعب . فهل كنا حقا فى حاجة الى الاقدام على هذه المغامرة ، أنا الكهل الزاحف نحو الشيخوخة ، وأنت الصبية اليانعة ؟ »

طوقت « رحمة » بذراعيها عنق أبيها ، وأجابت بصوت ملؤه الحب والحنان : « لا تندم يا أبى على مافعلنا . فقد كانت حياتك وحياتى فى خطر ، بعد ذلك الحادث الذى وقع لنا . فالهجرة فى هذه الحالة فيها السلامة ، وقد يكون فيها الخير ان شاء الله ! »

وفى سكون الليل الذى لم يكن يعكره غير خفيف الامواج على جنبات السفينة ، ارتفع صوتان بالصلاة الى الله ، وطلبا رعايته للمسافرين فى رحلتهم الطويلة المحفوفة بالاخطار .

* * *

كان « سمعان خطار » من علماء لبنان النصارى ، ومن الاطباء البارعين فى استخراج العقاقير من الاعشاب البرية ، وصنع العطور من الازهار والرياحين ، وتقطير ماء الورد وزهر البرتقال ... وكانت له ابنة وحيدة ماتت أمها بعد مولدها بأيام ، فسماها أبوها « رحمة » وعنى بتربيتها تربية طيبة مبنية على الاخلاق القويمة . ولما جاوزت سن الطفولة ، علمها صناعة العطور فبرعت فيها مثل أبيها . وانصرفت الى مساعدته فى مهنته وتجارته . وعاش الاثنان فى هناء وبحبوحة من الرزق يحوطهما الناس باحترامهم ، يقصدونهما من الجبال والمدن على السواء ...

كان الامراء بنو عمار يحكمون فى ذلك الوقت مدينة طرابلس ، الرابضة عند سفح لبنان الشمالى ، الحائزة على مكانة مرموقة بين مدن الساحل فى شرق البحر المتوسط ، الناعمة باليسر والازدهار ، بفضل حكامها الحصفاء . وسكانها النشطين العاملين .

دعا بنو عمار الطبيب العالم للانتقال من بلدته الجبلية الى المدينة الكبيرة فلبى سمعان الدعوة ، وراح يزاول مهنته فى طرابلس وفى حماية امرائها الفر الميامين . واتخذ له مسكنا مع ابنته فى محلة « التل » فعرف منذ ذلك الوقت باسم « سمعان التلاوى . »

تمتع الرجل بسمعة طيبة واتسمت شهرته خلال الاعوام التى قضاها فى حمى بنى عمار . ولكن حادثا مؤسفا وقع على مقربة من بيته كان سببا فى تغيير مجرى حياته المطمئنة الهادئة .

تشاجرت أسرتان وسقط من احد الطرفين قتيل ، وتمكن القاتل من الهرب ، واستجار بسمعان فأجاره فى بيته عملا بالتقاليد المرعية بين القوم . واخفى أمره عن أهل القتيل الذين ظلوا أياما وليالى يبحثون عنه بلا جدوى .

وبعد مضى أسبوعين على الحادث ، خرج القاتل سرا من بيت الرجل الذى استضافه وحماه ، وسلم نفسه للسلطة الحاكمة التى عاقبته بالاعدام على أساس أن القاتل يقتل !

وحقد أهل القتيل على سمعان التلاوى لانهم كانوا يرغبون فى الاقتصاص من القاتل بايديهم لابيد الحاكم عملا بسنة الاخذ بالثأر . ووطدوا العزم على الانتقام من الرجل الذى اخفى غريمهم كما لو كان هو المذنب الجانى !

وادرك بنو عمار أن حياة صديقهم . الذى جاءوا به من قريته الى مدينتهم ، أصبحت فى خطر ، فدعوه الى الاقامة مع ابنته فى كنفهم ، لكى تتيسر لهم حمايته ودفع الشر عنه .

فلبى سمعان دعوة الامراء مرة ثانية وعمل بنصيحتهم وانتقل الى قصرهم .

* * *

كان امراء بنو عمار فى طرابلس بلبنان على صلة وثيقة بامراء بنى عباد فى اشبيلية بالاندلس . وكانوا يراسلون بعضهم بعضا ، ويتبادلون الهدايا والمصنوعات الثمينة ، بالرغم من بعد الشقة بين البلدين ، وطول المواصلات وصعوبتها .

وشاءت الصدف — والصدف أداة الاقدار فى أحكامها — ان يتلقى بنو عمار من صديقهم المعتمد بن عباد ، أمير اشبيلية ، بعد الحادث الذى وقع لمحسوبهم سمعان التلاوى ، خطابا يطلب فيه الامير العبادى من اصدقائه ان يوفدوا اليه طبيبا من المشارقة يجيد فى آن واحد مهنة

التطبيب بالاعشاب ، وصناعة تقطير العطور من الازهار ، ليعمل مع زملائه المنصرفين الى هذين النوعين من النشاط بالاندلس .

كانت اشبيلية فى ذلك العهد مركزا هاما لتصدير العقاقير والعطور . واراد المعتمد بن عباد أن يوسع هذه التجارة بتوسيع الصناعة نفسها ، ففكر فى ضم خبير من الشرق الى الخبراء فى بلده .. فكتب الى أصدقائه بنى عمار ماكتب ..

ورأى بنو عمار أن الفرصة سانحة لانقاذ سمعان التلاوى من حالة القلق والاضطراب التى انتابته بابعاده عن موطن الخطر ، فنصحوه بأن يرحل عن طرابلس ويذهب الى اشبيلية مع ابنته ، مزودا منهم بالمال والتوصيات للاسرة العبادية المالكة ..

وكان الطرابلسيون يجهزون الكثير من السفن للتجارة والقتال فى آن معا ، ويطلقونها على صفحة اليم فترتاد الثغور على طول الساحل الافريقى ، وتصل الى موانىء المغرب والاندلس ، وتعرج أحيانا ، فى طريق العودة ، على جزر صقلية ومالطة وقبرص .

على سفينة من هذه السفن ابحر سمعان التلاوى وابنته رحمة مشيعين بالدعوات الطيبة ، من حماتهما بنى عمار ، ومن الاهل والمعارف والمريدين .

وعلى ظهر تلك السفينة ، جلس الشيخ والفتاة يفكران فى المصير المجهول الذى يسيران اليه ، ويصليان ليرعاهما الله ويرعى رفاقهما المسافرين معهما الى الغرب !

* * *

كانت مدينة « اشبيلية » فى أواخر القرنين الخامس للهجرة والحادى عشر للميلاد ، فى أوج شهرتها ، وأطيب أيامها عزا وازدهارا وثروة ومرحا . وكان قصر أميرها المعتمد بن عباد ملتقى الادباء والعلماء والشعراء . فصاحب القصر نفسه أديب وعالم وشاعر ، يخوض غمار القتال حينا ليدافع عن أمارته تجاه الاسبانيين تارة وتجاه خصومه من « ملوك الطوائف » تارة اخرى ، ويداعب القريض أحيانا فى ظلال الحدائق الوارفة . وفى ردهات القصر المنيف المطل على « الوادى الكبير »

آل اليه الملك بعد وفاة أبيه المعتضد ، فى سنة ٤٦١ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٦٩ للميلاد ، وكان مقدرا له أن ينتهى ملك العبادين على يده !

رحب بالوافدين القادمين من لبنان بتوجيه من بنى عمار أصحاب

طرابلس ، سمعان خطار التلاوى وابنته رحمة ، وانزلهما فى ضيافته ، وشاركته فى الحفاوة بهما زوجته المحبوبة « اعتماد الرميكية » الاديبة الشاعرة ، وخصت بعطفها ، منذ اللحظة الاولى ، الصبية اللبنانية الآتية من ناحية المشرق ، حاملة معها خبرة واسعة وأسرارا جديدة فى اعـداد العطـور ..

كانت اعتماد الرميكية شديدة الولع بالازهار ، تعنى بها عنايه بلغت حد الهوس ، فتطوف على بيوت السكان فى اشبيلية وتتفقد حدائقها بنفسها ، وتشجع الناس على زراعة الازهار وجلب كل جديد منها . وفى الوقت نفسه تشمل برعايتها الصناعة التى اشتهرت بها اشبيلية بين صناعاتها العديدة ، وهى صناعة الروائح العطرية ، واستخراج العبير الساحر من عصير الازهار والرياحين ، وتحويله الى سائل محبوس فى قوارير تصنع فى أشبيلية أيضا . وتتخاطفها أيدى النساء والرجال على السواء ، فى الامارات والممالك العربية والاسبانية وترسل على السفن ومع القوافل الى افريقية الشمالية وبلاد المشرق .

واعتماد الرميكية ، زوجة المعتمد بن عباد ، هى صاحبة الفكرة فى جلب خبير من المشرق يشارك خبراء اشبيلية فى دعم هذه الصـناعة الرابحة ، فحقق المعتمد رغبتها ، وجاءها بسمعان التلاوى وابنته ..

أهداهما الامير الشاعر بيتا على مقربة من المصنع القائم على ضفاف الوادى الكبير . وانصرف سمعان بكليته الى التعاون مع زملائه الاشبيليين ، ومعظمهم ينتمون الى أسر جاء أجدادها من الديار الشامية ، فضم خبرته الشرقية الى خبرتهم الغربية ، وأوجد حركة تجارية قائمة على تبادل السلع والمنفعة ، بين امارة اشبيلية بالاندلس ، وامارة طرابلس بلبنان .

أما ابنته رحمة فقد أبت اعتماد الرميكية الا أن تستأثر بها ، فدعتها الى الاقامة معها فى القصر ، وما مر وقت قصير حتى كانت الصبية الذكية الجميلة قد أصبحت نجية الاميرة ومؤتمنتها على أسرارها وأقرب نساء القصر الى قلبها .

وكلما التقت رحمة بأبيها ، فى حديقة البيت الصغير أمام النهر الجارى ، كان المهاجران يشكران الله على نعمته ، ويذكـران بالدعاء الطيب ، الامراء العماريين الذين شملتهما حمايتهم فى طرابلس ، والامراء العباديين الذين شملهما عطفهم فى اشبيلية .

* * *

لكن الشقاء ليس بعيدا عن السعد . واذا كان يسبقه مرة ، فانه يتبعه مرارا !.

لم تكن امارة اشبيلية فى مأمن من الخطر . فالاسبانيون يواصلون نشاطهم لاسترجاع بلادهم من العرب ، والعرب غير متحدين فى صف واحد لدفع الخطر .. بل انهم منقسمون يقاتل بعضهم بعضا فى الوقت الذين يقاتلون فيه الاسبانيين . وكثيرا ما كان هؤلاء يتحالفون مع واحد من ملوك الطوائف على واحد آخر منهم !

قاوم المعتمد بن عباد ما استطاع الى المقاومة سبيلا .. ولكنه رأى من الحكمة أن يستعين بحلف قوى لانقاذ أمارته من السقوط فى أيدى الاسبانيين ، فطلب ذلك العون من المغرب ، وعبر مضيق جبل طارق جيش من « المرابطين » بقيادة يوسف بن طشفين !

سعى المعتمد الى حتفه بظلفه ، وهو يعتقد انه يسعى الى سلامته وسلامة امارته ! . .

هزم ابن طشفين جيش الاسبانيين وحال دون سقوط اشبيلية. ولكنه ، بعد انتصاره ، عول على الاحتفاظ لنفسه بالبلاد التى انقذها من العدو !

وبعد أن حارب الاسبانيين ، حارب العباديين !

وكانت سنة ٤٨٥ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٩٢ للميلاد ، سنة شؤم على المعتمد بن عباد واسرته وانصاره ومريديه .

قاوم المرابطين بعد ان قاوم الاسبانيين ..

ولكنه هزم فى النهاية ووقع فى الاسر ..

وسقط فى المعركة الحاسمة معظم المقربين اليه ومن بينهم سمعان التلاوى ، الشيخ الطبيب العالم ، الذى أبى الا أن ينزل الى الميدان والسلاح بيده ، دفاعا عن الامير الذى استضافه ، والبلد الذى آواه ..

ولما نقل المعتمد بن عباد واسرته فى سفن نزلت بهم مجرى الوادى الكبير ، واتجهت الى طنجة على الساحل المغربى ، كانت نساء القصر جميعا مع الاسرة المنكوبة ، وكانت رحمة بنت سمعان التلاوى ملازمة لسيدتها وصديقتها ، اعتماد الرميكية ، زوجة الامير التعس !

***

فى بلدة « اغمات » بالمغرب ، الواقعة فى جبال الاطلس العليا ، على مقربة من مدينة مراكش ، اقام المعتمد بن عباد ومن معه من القافلة البائسة ، منفيين بعيدا عن وطنهم .

لم يعاملهم يوسف بن طشفين معاملة نبيلة . بل اساء التصرف

معهم ، وضيق الخناق عليهم ، ولم يضمن لهم اسباب الرزق فاضطروا جميعا ، الرجال والنساء والاطفال ، ان يربوا الماشية ، ويغزلوا الصوف ويقوموا بقوت انفسهم بأنفسهم فعرفوا العوز والفاقة ، وهم الذين الفوا حياة القصور وما فيها من بذخ وأسراف !

فى اغمات ، تذرعت رحمة بالشجاعة ، وجففت دموعها ، وجعلت تزرع الازهار والرياحين ، وتستقطر منها العطور ، فتبيعها للناس لتساعد اسرة الامير المنفى بمواردها ، وتشارك الجماعة فى الانفاق ..

لم تتحمل اعتماد الرميكية ذلك الشقاء طويلا . فما مرت شهور على وصولها الى اغمات حتى مرضت ، وخارت قواها ، وفاضت روحها فدفنت فى ظاهر المدينة ..

وقبل ان توارى التراب ، غطت رحمة جثمانها بالازهار والرياحين ..

وفى سنة ٤٨٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١٠٩٥ للميلاد ، تبعها الامير زوجها ، المعتمد بن عباد ، الى العالم الاخر بعد أن تحمل من ألبؤس الشيء الكثير ، ونظم فى وصف الحالة التى وصل اليها قصائد لا تقل روعة عن تلك التى نظمها فى وصف حالة اليسر والهناء التى ولت!

ودفن الامير بجوار الاميرة ...

وغطت رحمة جثمانه بالازهار والرياحين .

ثم عادت من حيث أتت ، مع المشيعين الذين رافقوا المعتمد بن عباد الى مقره الاخير ..

وفى اليوم التالى ، لم تخرج رحمة بنت سمعان التلاوى من حجرتها ..

ولم تجب عندما نادوها ..

ولما حطموا بابها الموصد من الداخل ، وجدوها جثة هامدة بين كومة من الازهار والرياحين ايضا !

فقد وضعت رحمة حدا لحياتها بعد أن فقدت أعز الناس على على قلبها ..

فماتت صانعة العطور مخنوقة بالعطور !

فاطمة .. بالبـــرتغال !

فى البرتغال بلدة اسمها ((فاتيما)) وفى البلدة كنيسة وتمثال للعذراء مريم باسم ((عـــذراء فاتيما)) والاسم تحريف لكلمة ((فاطمة)) العربية .. فكيف حدث هـــذا ؟

فى شتاء سنة ١١٣٠ ، دعا الكونت البرتغالى « الونزوهنريكس » أقرب المقربين اليه من أعوانه ومريديه ، الى اجتماع عقد فى قصره المنيع، واطلعهم على الخطة التى رسمها لنفسه، وعول على تنفيذها بمساعدتهم، لبلوغ اهدافه وتحقيق آمال بلاده ، فقال :

ـ ايها السادة والاخوان : لقد عاونتمونى فى الحرب الاهلية التى ارادت والدتى الكونتسة تريزا القشطيلية ان تثيرها بينى وبينها ، رحمها الله . ولم يكن بوسعنا أن نحقق وحدة بلادنا ونفوز باستقلالنا ، وتلك الحرب الاهلية متقدة السعير . أما الآن وقد ماتت أمى ، وزال بموتها سبب الجفاء والتناحر والتقاتل ، فاننى أدعوكم الى مصافحة خصومكم وخصومى بالامس من انصار الكونتسة الراحلة ، والى توحيد الصفوف فى سبيل تحرير الوطن ، والتخلص من حكم العرب والاسبانيين على السواء .. فان ملك « قشطيلة » الاسبانى يطمع فى ابقائنا تابعين للسلطنة ، وأمراء « المرابطين » المسلمين يطمعون ايضا فى اخضاعنا لنفوذهم .. فعلينا اذن أن ننازل عدوين ، ونحارب فى جبهتين . ولكن الاسبانيين من ناحيتهم فى حرب دائمة مع العرب ، وهذا مما يسهل مهمتنا ، ويجعلنا قادرين على التخلص من هؤلاء واولئك ، بأن نحارب كل فريق على حدة !! فهل يمكننى أن اثق بكم واعتمد على سيوفكم ؟

فصاح الاعوان والانصار بصوت واحد :

ـ نعم .. نعم .. نحن لها !

واستطرد الكونت يقول :

ـ لقد بلغت اليوم الحادية والعشرين من العمر ، وما زلت فى حاجة الى نصحكم وارشادكم ، فلا تبخلوا على بهما ! . ولنعد العدة منذ هذه اللحظة للسير فى الطريق الذى رسمناه . وقد اعتزمت باذن الله ورضاكم، أن أحمل بعد الآن لقب « ملك البرتغال » .. فهل تقروننى على هذا ؟

وهتف الاعوان والأنصار :

ـ عاش الملك !

***

كان الاسبانيون بقيادة « الونز الثامن » ملك قشطيلة فى حرب مع دولة قرطبة العربية . وكانت الجبال الواقعة بين قشطيلة وكونتية

البرتغال ومجرى نهر تيجو الاعلى ، وهضاب استرامادورا ، مسرحا لمعارك عنيفة مستمرة بين الفريقين المتقاتلين . ومن أعجب ما كان يحدث فى تلك الحرب الطويلة ، ان بعض أمراء المسيحيين كانوا يحاربون فى صفوف المسلمين ، وبعض امراء العرب والبربر كانوا يتحالفون مع الامراء الاسبانيين !

غير ان حكم « المرابطين » فى الاندلس كان فى طريق الانحلال ، بسبب التفرقة والتخاذل وايثار المصلحة الخاصة والمطامع الفردية ، على المصلحة العامة والاهداف القومية . فدارت الدائرة عليهم فى معظم المعارك ، وبدأوا يخسرون ما كسبه لهم بطلهم « يوسف بن تاشفين » بحد السيف ، فى أواخر القرن السابق ..

وراح « الونزو هنريكس الاول » ملك البرتغال يتحين الفرص للانقضاض على هذا أو ذاك من الفريقين ، فيتحبب تارة الى هؤلاء وتارة الى أولئك ، غير خاضع الا لعامل واحد : تحرير بلاده وتثبيت دعائم عرشه

وكان « الونزو » ملك قشطيلة قد حقد على سميه البرتغالى بسبب مناداته بنفسه ملكا على البرتغال ، فساءت العلاقة بين الملكين ، وفى عام ١١٣٧ ، حمل « الونزو هنريكس » السلاح ضد القشطيليين وهزمهم . وانصرف الى الاستعداد لمنازلة المسلمين ، واشتبك الفريقان فى معركة «أراك » الدموية فى الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١١٣٩ — الموافقة لسنة ٥٣٣ للهجرة — وكتب الفوز لملك البرتغال ، وانهزم فى المعركة خمسة من أمراء المرابطين . وقد سكر الونزو بنشوة النصر ، فوضع التاج على رأسه بعد انتهاء المعركة ، وصاح بقومه قائلا : « فزت بتاج الملك مرة اولى بعد موت أمى ، ومرة ثانية بعد انتصارى على الاسبانيين ، ومرة ثالثة اليوم بعد انتصارى على العرب ! » .

* * *

يقع ميدان معركة « أراك » فى اقليم جبلى كان العرب يسمونه « علم التاج » . ويعرفه البرتغاليون اليوم باسم « المنتيجو » . وكان « الونزو هنريكس » يقول ان نهر تيجو حليفه فى حروبه ، وفال حسن له ، لأنه على ضفافه رفع نفسه الى مصاف الملوك وزين رأسه بالتاج !

وبعد المعركة التاريخية ، عاد الجيش البرتغالى ادراجه فى هضاب علم التاج ، وكانت فلول من جيش العرب قد لجأت اليها واستجارت ببعض الزعماء الجبليين الذين لزموا الحياد فى تلك الحرب ، ومن بينهم شيخ عربى يدعى « أبا موسى » شيد لنفسه حصنا صغيرا فى ذلك الوعر

حلت فيه عشيرته وعاشت فى سلم مع الجيران ، بعيدة عن الحروب وويلاتها ..

ولكن الاقدار ابت الا ان ترغم العشيرة على الخروج عن عزلتها ، بعد معركة اراك فقد لجأت اليها شرذمة من الفرسان العرب ، فهاجمها البرتغاليون فى طريق العودة الى بلادهم ، وتمكنت العشيرة من رد الهاجمين على أعقابهم ، فأمرهم « الونزو هنريكس » بأن يتركوا القوم فى جبالهم لانهم أصدقاء مسالمون . غير ان البرتغاليين ساقوا أمامهم لفيفا من الاسرى ، بينهم فتاة سمراء البشرة ، سوداء العينين ، طويلة القامة، كانت تحث الرجال على المقاومة أثناء القتال ، وتتصدر الصفوف وبيدها سيف مسلول كالت به للبرتغاليين ضربات صائبة قاصمة !

امر « الونزو هنريكس » رجاله بأن يحملوا الفتاة الى القلعة الحصينة التى اعتزم الاقامة فيها مدة من الزمن ، فى « جبل الريح » فصدعوا لأمره . وأراد أن يعرف منها نسبها واسم اهلها فاكتفت بالاجابة بأن اسمها « فاطمة » وانها تقيم فى الحصن الذى هاجمه البرتغاليون ، فى كنف الشيخ أبى موسى وحمايته .

افسح لها الملك الشاب مكانا فى الحصن الجبلى فحلت فيه معززة مكرمة ، ولكنها ظلت تحن الى حيها وعشيرتها ، وتندد بالذين اختطفوها على مسمع منهم ، وتصرح بأنها ستهرب من القلعة البرتغالية عندما يتيسر لها الهرب ، ان لم يعمد اهلها الى انقاذها من عار المذلة والاسر .

وانقضت أسابيع فشهور ، تغيب الملك « الونزو » خلالها فى غزوات موفقة ورحلات فى أطراف مملكته الناشئة ، والفتاة العربية مقيمة فى القلعة لا تبارحها ، والحراسة حولها شديدة ، ولكنها ممزوجة بالاكرام والاجلال .

واسترعى انتباه سكان القلعة ان الملك أصبح كثير التردد عليهم منذ قدوم « فاطمة » الجميلة ، وانه يطيل اقامته فى القلعة اكثر من ذى قبل ، فجعلوا يفكرون فى الامر ويتحدثون فيه ويتساءلون فيما بينهم : هل وقع سيدهم فى حب الحسناء الغريبة ؟ وهل تبادله فاطمة شعوره وعاطفته ؟

ولم يكن القوم مخطئين فى حدسهم : فان « الونزو هنريكس » ملك البرتغال احب الفتاة فاطمة العربية ، وكاشفها بحبه ، وعرض عليها البقاء فى قلعته مختارة ، لا مرغمة ، او الانتقال معه الى قصوره فى مختلف أرجاء البلاد ، زوجة حليلة ، لا محظية خليلة !

فوجئت الفتاة بهذا العرض ، وشكت فيما يدعيه الملك من حب

خالص ، ونية طيبة ، ولكنها اضطربت وشعرت بأن قلبها لا يحمل حقدا لذلك الشاب الوسيم الشجاع ، بل ان العاطفة التى تختلج فيه قد تكون حبا او تقرب من الحب ! وهالها الامر ، وخشيت مغبته، فسعت للتخلص من الاسر مهما كلفها ذلك من تعب وعناء ، وتمكنت فى النهاية من الاتصال بأهلها فى حصنهم البعيد ، مستخدمة فى ذلك امراة قروية كانت تتردد على القلعة ، بعد أن أغرتها بالمال واستهوتها بالوعود .

وفى ليلة ممطرة حالكة السواد ، تسلل فريق من رجال «أبى موسى» الى « جبل الريح » متنكرين ، وانقذوا الاسيرة وابتعدوا بها عائدين الى معقلهم المنيع .

وثارت ثائرة الملك عندما رجع من احدى رحلاته الى القلعة فلم يجد فيها الفادة العربية التى أحبها ، وانهال على الحراس بالتأنيب والتوبيخ ، وطردهم وزج ببعضهم فى السجون واستعاض عنهم بغيرهم. وعقد النية على استرجاع الفتاة ، حتى ولو اضطره الامر الى الالتجاء للقوة ، مع قوم لم يكن من قبل يضمر لهم شرا ، ولم يسبق أن نشأ بينه وبينهم خلاف أو نشب قتال !

وشجعه على تنفيذ عزمه ما أقدمت عليه « فاطمة» من تلقاء نفسها : فقد اوفدت اليه بعد فرارها ببضعة اسابيع رسولا يقول له : « ان فاطمة التى احببتها فزجرتك ، وعرضت عليها ان تشاطرك حياتك فرفضت ، لعلى استعداد الآن لاجابتك الى رغبتك ، وهى فى انتظارك لتنقذها من اهلها ، وتذهب بها الى حيث تشاء ! »

نعم ، ادركت الفتاة انها تحب الملك الشاب بعد أن افترقت عنه. ولم تطق العيش بعيدا عن كنفه . فآثرت تلبية صوت القلب على الاصغاء لصيحة الدم ، وأوفدت اليه رسولها تستغيث به وتدعوه الى اختطافها من جديد !

وكان لفاطمة ما ارادت : فقد اطبقت على القلعة العربية كتيبة من رجال « الونزو » . ولم يجد المهاجمون عناء كبيرا فى العثور على الفتاة لانها كانت فى الانتظار ترقب قدومهم . وفطن صاحب القلعة « ابو موسى» الى تواطؤ الخائنة مع القوم فرفع يديه الى السماء قائلا : « ايها الرحمن الرحيم نجنا من كيد النساء ! »

وأمر الشيخ رجاله بأن يكفوا عن المقاومة ، وبألا يذكر اسم الفتاة أمامه بعد ذلك اليوم !

***

رحب الملك بالعربية وقرر أن يطلق اسمها فى الحال على القلعة

الشامخة فى جبل الريح .. فعرف المكان منذ ذلك الوقت باسم « فاطمة » وقد تهدمت القلعة فيما بعد ولكن بلدة كبيرة نبتت حولها على مر الايام، ولا تزال الى أيامنا هذه تحمل اسم الفتاة العربية التى خانت قومها ، وهجرت حيها ، وعاشت مع ملك البرتغال « الونزو هنريكس »

وقد تم لهذا الملك المحظوظ ما كان يحلم به ، فوحد بلاده ، وحقق استقلالها ، وانتصر على أعدائه فى الميادين ، واستولى على مدينة « لشبونة » فجعلها قاعدة لملكه وعاصمة لدولته ، فى سنة ١١٤٧ ميلادية — الموافقة لسنة ٥٤١ للهجرة — وشيد فيها قصرا فخما نزلت فيه « فاطمة » العربية ، فأثارت اعجاب فريق من حاشية الملك وأسرته ، ونقمة الفريق الآخر ، الذى لم يغفر للحسناء الغريبة ما أحرزته من سلطان على قلب العاهل الفاتح العظيم .

***

واذا سرت اليوم فى « جبل الريح » ، المعروف عند البرتغاليين باسم « سيرا دايرى » فانك تبلغ بلا عناء ، وفى طريق ممهد ، بلدة « فاطمة » الرابضة على ارتفاع سبعمائة متر عن سطح البحر ، فى اطار ساحر خلاب ، ويلفظ الناس اسمها بالبرتغالية « فاتيما »

واذا أصغيت الى اهل البلدة ، فانهم يحدثونك عن معجزة يقولون ان العذراء مريم قد خصت بها بلدتهم دون سواها فى عام ١٩١٧، وانها لا تزال ، عليها السلام ، تخص البلدة الجميلة بعطفها ورعايتها .. ولكنك لو سألتهم عن اسم بلدتهم العربى ، وعن « فاطمة » التى تخلد البلدة ذكرها ، لعجز بعضهم عن الرد ، ولأجابك البعض الآخر : « انها امرأة عربية جلست على عرش البرتغال ، فى عهد أول ملك لبس التاج وحمل الصولجان ! »

واذا بحثت فى كتب التاريخ ، وفى مخلفات ذلك العهد ، واستنرت بالوثائق المحفوظة عند البرتغاليين ، فانك تخرج من بحثك بما يثبت لك ذلك الحادث ، ولكنك لن تجد فى ذلك كله ما ينبئك بصورة قاطعة بالمصير الذى آلت اليه فاطمة العربية فى النهاية : فهل تزوجت الملك « الونزو هنريكس » واعتنقت الدين المسيحى كما يدعى البعض ؟ أم رضيت بأن تكون محظية الملك ، ضاربة بسمعتها وكرامتها عرض جدران قصرها ؟

والشيء الثابت ان اهلها حاولوا اغتيالها اكثر من مرة ففشلوا ، ثم اهملوا شأنها ..

ويقول المؤرخ الفرنسى «رينو» أن فاطمة لم تكن ابنة «أبى موسى» بل ابنة أحد رجاله ، مات أبوها فتبناها « أبو موسى » وتولى رعايتها والعناية بها . وانها ماتت فى سنة ١١٥٠ ، فى الثلاثين من عمرها .

أما « الونزو هنريكس » ، الاول فقد حكم البرتغال ورفع شأنها ومات فى سنة ١١٨٤ ميلادية ـ ٥٨٠ للهجرة ـ بعد انتصار جديد احرزه على أمراء « الموحدين » الذين خلفوا « المرابطين » فى الاندلس .. وكان فى الخامسة والسبعين من العمر .

تحت أسوار طليطلة

شهامة العرب أفقدتهم حصنين : حصنا كان فى حوزة العدو وفى وسعهم ان يأخذوه ، وحصنا كان فى حوزتهم وفى وسعهم ان يحتفظوا به !



مدينة طليطلة (توليدو) أسوارها وجسرها وأبراجها ترجع الى عهد العرب بأسبانيا

سنة ١١٣٩ للميلاد - الموافقة لسنة ٥٣٣ للهجرة ..

الحرب سجال فى الاندلس ، بين الاسبانيين والعرب . هؤلاء يدافعون عن أرض فتحوها وملك شيدوه ، وأولئك يحاولون استرجاع أرض فقدوها وملك اضاعوه !..

كان يقود الاسبانيين فى تلك الحرب الطاحنة فارس مغوار ، كان اميرا على مقاطعة صغيرة ، ثم فاز بالتاج والصولجان واتخذ لقب « امبراطور اسبانيا » باسم الونزو الثامن ، وظل جالسا على العرش من سنة ١١١٢ الى حين وفاته فى سنة ١١٥٧ للميلاد - ٥٠٥ الى ٥٥٢ هجرية .

وكان يدير شئون المملكة العربية بطل من أبطال أسرة « المرابطين » هو السلطان على بن يوسف بن تاشفين ، صاحب المغرب والاندلس ، الذى قبض على السلطة بيد من حديد ، وقضى العمر فى جهاد ونضال وملك من سنة ١١٠٦ الى سنة ١١٤٣ للميلاد - ٤٩٩ الى ٥٣٧ هجرية.

فكل من الخصمين كان اذن جديرا بمنافسه ، هذا شجاع وذاك أبعد شجاعة ، هذا عنيد وذاك أشد عنادا منه !.

كانت « أوراكا » أم الملك الونزو تنازع ابنها السلطان ، فأنقذه القدر المحتوم منها فى سنة ١١٢٦ للميلاد - ٥١٩ واصبح وحده الآمر الناهى . وتزوج فى سنة ١١٢٨ للميلاد - ٥٢١ هجرية . وهوفى الثانية والعشرين من عمره ، الاميرة « بيرانجيلا » الحسناء ، وكانت أكبر منه سنا ، فتسلطت على ارادته وملكت مشاعره ، فكان يستشيرها فى كل كبيرة وصغيرة من شئون السياسة والحرب وكانت من جهتها راجحة العقل بقدر ما كانت رائعة الجمال ، فلم تخطىء قط فى رأى ، ولم يندم الملك قط على انقياده لها .

وهذا مثل واحد من وقائعها ، يدل على مبلغ دهائها ، من ناحية ، وعلى شهامة العرب الذين كان زوجها يحاربهم ، من ناحية أخرى .

خرج الامبراطور الونزو الثامن فى جيش لجب وعدة كاملة ، لمهاجمة العرب فى مدينة « أوريليا » الحصينة ، وانتزاعها منهم ، وضمها الى ملكه . وكان المرابطون قد اقاموا فيها حامية مزودة بما يلزمها لمواجهة حصار طويل ، فاستعد قائدها لملاقاة العدو ومواجهة الخطر ، واوفد الى على بن يوسف طالبا منه النجدة

اما الونزو ، فانه كان يتخذ فى ذلك الوقت مدينـة طليطلة قاعدة له ، فترك فيها زوجته الملكة بيرانجيلا ، وليس معها غير قوة ضعيفة من الحرس ، لانه كان مطمئن البال ، لا يعتقد ان العرب البعيدين عن طليطلة يمكنهم ان يهددوها من جديد ..

زحف الملك الاسـبانى اذن على أوريليا وضرب عليها الحصار من جميع الجهات ، وقطع عنها الماء والارزاق ، وعزم على البقاء حولهـا ، يضيق عليها الخناق يوما فيوما ، حتى يضطر قائدها الى تسليمها بلا قتال ...

وبلغ خبر المدينة المحصورة السلطان على بن يوسف ، فارسل الى الولاة والحكام يقول : « ان اوريليا فى خطر ورجالنا فيها محاصرون . فأسرعوا لنجدتها بمن عندكم من فرسان ! »

فى قرطبة ، تلقى قائد الجيش أمر مولاه فجمع عساكره واستغاث بجيرانه فلبوا نداءه ،ومشى بمن وافاه من الامراء والقواد على رأس جيش كبير ، مجدا فى السير والمسير ، لكى يدرك المدينة وحاميتها قبل أن يقضى الله أمره فيهما .

غير ان الادلاء الذين ارسلهم فى طليعة الجيش للاستطلاع والاكتشاف عادوا اليه مسرعين وقالوا ان لدى ملك الاسـبانيين جحافل جرارة ، ومعدات كثيرة ، وانه يصعب التغلب عليهم وحملهم على رفع الحصـار عن أوريليا .

فعقد القائد مجلس الحرب ، وحضره الامراء والقـواد جميعا ، وفكروا فى خدعة يلجأون اليها ــ والحرب فى معظم الاحيان خدعة ! ــ ثم قرروا وقف الزحف على الجيش الاسبانى المحاصر ، والالتفاف حوله، والسير بسرعة الى طليطلة الخالية من حاميتها ، وضرب الحصار حولها او مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة . فاذا ما بلغ امبراطور الاسبانيين الخبر ، هلع قلبه له ، واضطر الى فك الحصار عن اوريليا ، والاسراع الى نجدة قاعدته المهددة ، وزوجته وأسرته وكنوزه .

اقر الجميع هذه الخطة العاقلة الحكيمة ، ووضعوها فى موضع التنفيذ بلا تردد ، فلوى الجيش العربى دفعة واحـدة اعنة خيوله ، وانطلق فى طريق طليطلة . وفى الوقت ذاته ، عهد القائد الى ادلائه بأن يوصلوا الخبر بمهارة الى الامبراطور ورجاله .

وكانت دهشة سكان طليطلة عظيمة ، عندما نهضوا ذات يوم من نومهم مذعورين على قرع الطبـول وصهيل الخيـول . واذا بهم يرون فرسان العرب بخوذهم النحاسية وسـيوفهم اللامعة ، يملأون البطاح حول مدينتهم ، يسـتعدون لمهاجمة أسـوارها ، ولا حراس على تلك الاسوار ولا حماة لها !

دب الخوف فى القلوب ، وساد المدينة هرج ومرج . لكن الملكة بيرانجيلا لم ترتجف ولم تدع للقلق منفذا الى صدرها . بل اوفدت رجال حاشيتها الى الاسواق والبيوت ، ليعيدوا الطمانينة الى النفوس، ويؤكدوا للناس ان المدينة فى أمان ، وانها لن تسقط فى يد العرب وان الملكة تضمن لهم ذلك وتتعهد بانقاذهم وانقاذ طليطلة .

ونادت بيرانجيلا رجلا من اخصائها ، واوفدته مع ثلاث نساء من وصيفاتها الى قواد الجيش العربى ، حاملا اليهم الرسالة الآتية :

« ليس فى هذه المدينـــة رجال يا رجال .. وليس فيها فرســان يا فرسان !. فمن جئتم تحاربون اذن ؟ اننى امراة ضعيفة تحيط بهـا نساء ضعيفات ، لا حول لنا ولا طول ، لا جيش لدينـا ولا سـلاح . افيشرفكم أن تنازلوا امرأة ؟ اذا كنتم ترمون حربا وقتلا ، فارحلوا عن هذه الاسوار واذهبوا الى أوريليا ، حيث زوجى ورجاله ، فهناك يكون الحرب والقتال ، مع الفرسان الاسبانيين ، يا فرسان العرب ! »

* * *

تلقى القائد العربى ورفاقه هـذه الرسالة العجيبة ، وظلوا برهة من الزمن صامتين مبغوتين ، أمام هذه الخدعة النسائية ، التى واجهت بها تلك المرأة النابهة خدعتهم الحربية . ثم تشاوروا فيما بينهم ولم يختلفوا فى الرأى والحكم « بل اقروا جميعهم ان عمل الملكة خدعة، ولكنها خدعة تضع شهامة العرب فى كفة الميزان وسفالتهم فى كفة أخرى . فأى الكفتين ستكون الراجحة ؟ أيهاجم العرب اسوارا لا يدافع عنها أحد ، ويقتحمون ابوابا لا حراس عليها ، ويدخلون مدينة وبيوتا وقصورا تقيم فيها النساء ، وهم يعلمون ذلك ولا يجهلونه ، مادامت الملكة نفسها قد أطلعتهم عليه ، واستفزت غيرتهم ونخوتهم ، وأثارت فى نفوسهم الشفقة والرحمة ؟

أيفعل العـرب ذلك أم يرحلون الى حيث الرجـال تنتظر ملاقاة الرجال ، والفرسان تتأهب لمقارعة الفرسان ؟

لن يفعل ابطال المرابطين غير ما تقضى به الشــهامة . فلا داعى لمناقشة ولا سبب لخلاف !

أشاروا جميعا الى رئيسهم بان يرد على رسالة الملكة بما يجب . فالتفت الرجل الى الامير الاسبانى والنساء الثلاث وقال :

« لن نهاجمكم . فابقـوا فى مدينتكم آمنين مطمئنين . وها نحن راحلون الى اوريليا . قولوا لملكتكم هذا . واضيفوا عليه اننا نرغب ، قبل الابتعاد عن هذه الاسوار فى ان نرى تلك الملكة ونعتذر لها عما سببناه لها من جزع وخوف ! »

حمل الرسل الى بيرانجيلا رد القواد العرب . فنادت وصيفاتها، وخرجت فى موكب يضم بضع عشرات من النســاء ، فى ابهى حللهن ، وامامهن لفيف من العازفات على القيثار ، والنافخات فى المزمار ..

صعدت الملكة الحسناء على الاســوار ، فوق باب الشمس ، اهم ابواب طليطلة ، ومرت فى ذلك المــوكب الرائع ، امام القــواد العرب وجنودهم ، فحيوها شاهرين سيوفهم ورماحهم ، وحيتهم رافعة يدها، وعلى شفتيها ابتسامة الرضا والارتيــاح ، وفى عينيها دموع الشكر وعرفان الجميل

وطافت الالحان الموسيقية فى ذلك الجو الصـــافى ، وحلت فيه محل صيحات المحاربين وقعقعة السلاح ! .

ومر الجيش العربى تحت الاسوار بباب الشمس . وأمام الملكة وموكبها ، فى عرض قلما شهد التاريخ مثله وظل سائرا فى طريقه دون ان يدخل المدينة ، واختفى فى منعرجات التلال وطياتها ، ذاهبا الى حيث الرجال والفرسان فى انتظاره ..

وعادت الملكة الى قصرها، هادئة البال مرتاحة الضمير، وفى صدرها لواعج تتلاطم ، وفى رأسها أفكار تتزاحم !

لقد امتنع العرب عن مهاجمة طليطلة كيلا يحاربوا النســاء ، فلا بد من مقابلة صنيعهم بمثله ، ومعروفهم بأحسن منه ، فيرفع الاسبانيون الحصار عن اوريليا ، ويتركوها للعرب : واحدة بواحدة !

أوفدت بيرانجيلا الى زوجها الونزو رسولا يقص عليه ما حدث ويطلب منه باسم الملكة ان يكف عن مهاجمة المدينة العربية ويرحل عنها، ردا على الجميل بالجميل !..

ولكن اوريليــا كانت قد سقطت ، فى الســاعة التى كان الجيش العربى يمر تحت اسوار طليطلة ، أمام الملكة وحاشيتها ..

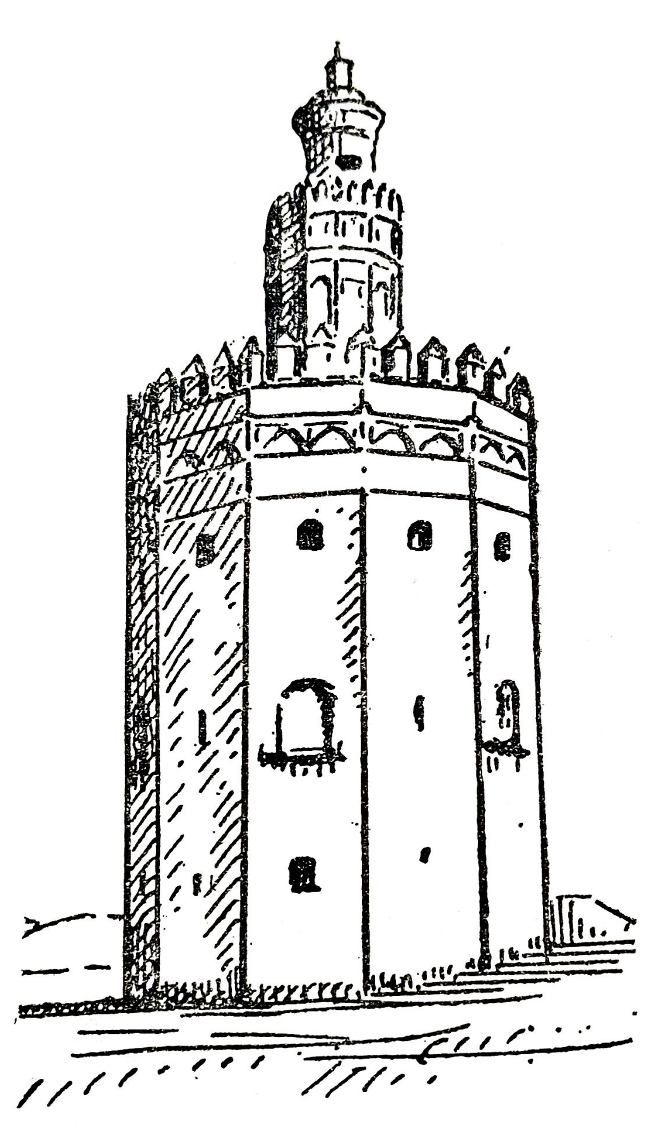
فقد أضاع العرب بشهامتهم مدينتين : طليطلة التى كان فى وسعهم أن يأخذوها بلا قتال ، واوريليا التى كان فى اســتطاعتهم أن ينقذوها من الحصار !.

ولكنهم لم يندموا على ذلك . وعندما علم على بن يوسف بن تاشفين بما حدث ، قال :

« لن يقـــال ان العرب نازلوا النســاء فى الميادين ، وهاجموهن فى الخدود ، وقتلوا الشيوخ وروعوا الأطفــال . وفى هذا عزاء لنا عن فقد نقاه مدينتين ، وضياع حصنين ! »

النجدة !

كثيرا ما كان العربى يستنجد بجاره الاسبانى، والاسبانى يستنجد بجاره العربى !.



برج الذهب

من روائع الفن العربى الاندلسى بمدينة أشبيلية

جلس الفونسو العاشر – ملك قشطيلة وليون – فى خلوته حزينا كئيبا ، يفكر فيما آل اليه ملكه المهدد بالضياع ، وفى وسيلة ناجعة تنقذه من المأزق الحرج الذى زجه فيه ابنه الثائر عليه . فما زاده التفكير الا قلقا على قلق ، واضطرابا على اضطراب !

كان الناس يلقبونه بالملك « الحكيم » منذ اليوم الذى اعتلى فيه العرش سنة ١٢٥٩ للميلاد – ٦٥٧ هجرية – لما قام به من أعمال عمرانية عظيمة فى مملكته . فهو واضع اول مجموعة للقوانين فى اسبانيا . وهو الذى أصلح الادارة ونظم جباية الرسوم ، وقطع ببلاده قشطيلة وليون شوطا بعيدا فى سبيل الوحدة والاستقرار بعد جلاء العرب عنها .

ولكن الاقدار أبت الا أن تعكر عيه صفو عيشه ، وتحول بينه وبين انجاز رسالته ، فسخرت ابنه « سانكو » لينازعه السلطة ، ويرفع فى وجهه راية العصيان ، مما اضطره الى الدفاع عن عرشه بالسلاح ، ومنازلة ذلك الابن العاق فى ميادين القتال !

ولكن الحظ خانه . فانفض عنه أعوانه من أشراف الدولة واحدا بعد واحد ، وازداد الميل الى « سانكو » بين طبقات الشعب الى ان كانت أواخر سنة ١٢٨٠ للميلاد – ٦٧٨ هجرية – فوجد الملك نفسه فى حالة تقرب من اليأس .

فهل يعتزل السلطة ، ويقر بعجزه عن اخضاع ابنه الثائر ، ويترك له العرش مرغما ويذهب الى الدير لقضاء البقية الباقية من حياته فيه ؟

كان الفونسو هذا مكروها بالرغم مما تم على يديه من اعمال مجيدة . وكان فى عراك دائم مع اخوته وافراد أسرته وجيرانه من الاسبانيين والعرب على السواء . وقد تعاون مع فريق من علماء الفلك العرب ، ووضع بمعونتهم التقويم المعروف باسمه . وكان حكمه يشمل اشبيلية وقرطبة بعد ان خسرهما العرب

لقد ثار عليه ابنه سانكو واراد ان ينتزع منه الملك قبل موته . وحار الملك فى أمره وراح يفكر فيما تقضى به مصلحته وصيانة عرشه .

تلك هى الافكار التى كانت تساور الفونسو العاشر فى خلوته عندما دخلت عليه فتاة فى عنفوان القوة والنضارة ، تحمل قدحا من شراب الورد على طبق من الفضة ، فالتفت اليها الملك الحزين وقال بلهجة ممزوجة بالحنان :

ـ شكرا لك يا ايزابيلا ، ما أروع وفاءك ! انك لا تنسين أبدا موعد قدح الشراب منذ اليوم الذى أنقذت فيه حياة مليكك من الموت !

وأحنت الفتاة رأسها وقدمت القدح للملك دون أن تفوه بكلمة ، ثم وقفت امام النافذة تتطلع الى الحديقة العطرة الغناء ، التى طالما اولتها عنايتها واتخذت من ورودها اليانعة شرابا سائغا لذيذا تقدمه لمليكها فى مثل هذا الموعد من كل يوم .

وتذكر الملك الفونسو أياما خلت . فرأى نفسه عائدا من احدى المعارك التى خاض غمارها ضد العرب المغاربة فى أطراف مملكته الجنوبية. ورأى فتـــاة بارعة الجمال تعترض جـــواده فى الطريق ، وتقص عليه قصتها .. تلك الفتاة هى ايزابيلا !

أمضت فى الاسر خمس سنوات ، مع أبيها الذى مات فى مراكش. وطلبت من آسريها بعد أن أصبحت وحيدة فى العـــالم أن يعيدوها الى وطنها أسبانيا ففعلوا ، ونقلوها مع الجند المحاربين الى «قادس» ، حيث أطلقوا سراحها، فمشت على قدميها ووجهتها عاصمة قشطيلة وقصر الملك فشاءت الصدفة أن يلقـــاها الفونسو فى الطريق ، وأن يأخذها معه الى قصره حيث تبناها ، فكانت له أوفى من جميع ذويه ، وعالجته مرة من مرض ألم به فشفته بدواء من عصـــير الاعشـــاب تعلمته من العرب فى المغرب ، وواصلت السهر على صحته والعناية بها فى غير ملل ولا فتور ..

تذكر الفونسو العاشر كل ذلك من حوادث الماضى القريب ، ومرت فى ذهنه صورة ولده العاصى . فانطلقت من بين شفتيه هذه الكلمات : « الاغراب أكثر وفاء لى من الاقارب » !

وسمعته ايزابيلا فهرولت نحوه وألقت بنفسها على قدميه ، وقالت بصوت متهدج :

ـ مولاى ، دعنى أفعل ما عرضته عليك منذ يومين .. اننى أعرف أولئك العرب ، وأؤكد لك ان شهامتهم تدفـــع بهم الى ركوب المخاطر فى سبيل من يستجير بهم . وخير لك أن تسترد سلطتك وتحتفظ بعرشك بمساعدة العرب ، من أن تفقد السلطة والعرش ، فتتزعزع أركان الدولة، وينقسم الشعب ، وتصبح البلاد عرضة لغزو جديد ..

مولاى : ان الحكمة تقضى عليك بأن تتخذ من العرب حلفاء ، قبـــل أن يفوت الوقت ، فيجعل منهم تخاذلنا أعداء فاتحين !

أطرق الفونسو مفكرا . ثم رفع رأسه نحو ايزابيلا وقال : «اذهبى وافعلى ما ترين .. انك على صواب ! »

* * *

كان صاحب المغرب أبو يوسف يعقوب المرين وقـــد وطد حكم بنى مرين بعـــد انكماش ملك الموحدين . فتغلب على مزاحميه وأعاد الدولة العربية فى المغرب الى بعض ما كانت عليه من عز وازدهار فى الاندلس .

فشمل سلطانه جميع انحاء المغرب ، ووجه عناية خاصة الى مدينة فاس ومراكش . وجعل يتطلع من جديد الى استرجاع الاقاليم التى فقدها العرب فى أسبانيا فأقام عليها الاسبانيون ممالك وعروشا ، ويعلل النفس باعادة أعلام العرب اليها !

وقد حارب الاسبانيين ، ثم عقد معهم هدنة سلموه بموجبها أكداسا من المخطوطات العربية الثمينة التى كان ملوك أسبانيا قد استولوا عليها بعد سقوط أشبيلية وقرطبة . فنقلت تلك المخطوطات على ظهور ثلاث عشرة بغلة الى المغرب ، حيث وزعها أبو يوسف على المدارس والمساجد فى فاس ومراكش وغيرهما من المدن المغربية . والقائد الاسبانى الذى هزمه أبو يوسف يعقوب فى الميدان وعقد معه معاهدة الصلح فى « شرش » وتسلم بموجبها المخطوطات الثمينة ، هو نفسه الامير سانكو، ولى عهد قشطيلة وليون ، الذى شق عصا الطاعة بعد ذلك على أبيه !

***

كانت الفتاة ايزابيلا ، التى وافق الفونسو على اقتراحها ، تعرف ملك المغرب . فقد كانت أسيرة فى بلاده . وهو الذى اعتقها وفك أسرها وأعادها الى أهلها وبلادها . وهذا ما جعل الملك الاسبانى يقتنع بارسالها مع وفد من عظماء المملكة الى أبى يوسف يعقوب ، لطلب نجدته ومعونته فى الحرب الاهلية التى اشتعلت نارها بين الاب والابن ، بين صاحب العرش وولى العهد ..

لم تكن ايزابيلا ، التى عرفت العرب وعاشت بينهم ، مخطئة عندما حدثت مليكها عن شهامتهم . فقد استجار بهم الفونسو ، ولم يخيبوا أمله . بل لبى أبو يوسف يعقوب نداء الاستغاثة ، فجرد جيشا لجبا مشى على رأسه لنجدة الملك الاسبانى وعبر به مضيق جبل طارق الى أرض الاندلس ، وهناك فى بلدة « زارا » الحصينة تلقاه خصمه القديم الفونسو الحكيم ، فتصافحا كصديقين ، وتصافيا ووضعا معا خطة العمل المشترك، للقضاء على « سانكو » وأعوانه .

قال ملك المغرب لصديقه ملك قشطيله وليون :

– ان هذه البلدة وما حولها ، وكل ما ستطؤه حوافر خيلنا من أرض هذه البلاد أو ينتزعه جنودنا من قلاعها وحصونها انما هو لك .. اننا ما جئنا اليك الا منجدين ، وسنعاونك على استعادة ملكك وتوطيد دعائمه ، قياما بواجب النجدة واغاثة المستجير .. هذا ما أعاهدك عليه . ولكن بعد أن تتحقق أمانيك ، وتعود الى نفسك الطمأنينة ، وتتمتع من جديد بكامل سلطتك ، فى دولة موحدة الاجزاء والاقاليم ، سنصبح فى حل من هذه المعاهدة . ولا لوم علينا فى أن نعود بجيوشنا غزاة ، ان شاء الله ، فاتحين !

ولم يسع الفونسو الا أن يوافق على هذا الشرط العجيب . ثم مضى الملكان فى تنفيذ الخطة المشتركة ، وسارت جيوشهما تحت أعلام واحدة

الى قتال سانكو ومن معه من الثوار ، وكلها أمل فى الانتصار .. ولكن الاقدار شاءت غير ما قدر أبو يوسف وحليفه الفونسو . فقد قضى الملك الاسبانى نحبه فجأة ، ويقال انه مات وهو يبكى من شدة الحزن ، عندما بلغه ان ابنه قد أقسم أن يقتله بيده . وكان ذلك فى عام ١٢٨٤ ميلادية ٦٨٣ للهجرة .

ولم ير أبو يوسف بعد موت المستجير به ما يبرر مواصلة حرب زال سببها ، فحزم أمره على العودة بجيشه من حيث أتى ، ليواصل استعداده فى المغرب لتحقيق ما يصبو اليه من أعمـــال عظيمة أخرى ، وفتوحات واسعة ..

* * *

وقف أعوان الفونسو العـاشر ورجال حاشيته وكبار قواده يودعون حليفهم ، فحياهم أبو يوسف يعقوب برفع يده . وقبل أن يتحرك ركبه ، شقت الصفوف اليه امرأة ملثمة بعباءة عربية ، وخاطبته قائلة :

ــ أيها السيد الهمام ! لم يبق لايزابيلا الآن من سند فى هــذا البلد . فقد مات الرجل الوحيد الذى وقفت له حياتى . ولن يطيب لى عيش من بعده تحت هذه السماء . فخذنى اذن معك الى بلادك ، وعدنى واحدة من بنات العرب المغربيات !

فأشار أبو يوسف يعقوب الى رجاله قائلا :

ــ جواد أصيل للأندلسية الوفية !

وعادت ايزابيلا الى المغرب الذى عاشت فيه من قبـل أسيرة ، على أن تعيش فيه بقية حياتها حرة طليقة ، فى كنف العاهل الذى استجاب لرغباتها ..

كثيرا ما حدث مثل هذا فى أندلس العرب ، حيث كان الاسبانى يستنجد بجاره العربى فينجده ، والعربى يستنجد بجـــاره الاسبانى فينجده ..

عاود أبو يوسف يعقوب الكرة مرة بعد مرة على السواحل والمدن الاسبانية . واجتاز المضيف مرة بعد مرة للفتح والغزو . وفى ســنة ١٢٨٦ ميلادية = ٦٨٥ للهجرة ــ كان فى بلدة الجزيرة الخضراء ، فمات فيها فجأة . ونقل جثمانه الى المغرب ودفن فى بلدة ســلا على مقربة من رباط الفتح .

اقتل أسيرك

البر بالوعد ، والوفاء بالعهد ، من الفضائل التى كانت شائعة فى الاندلس .

فشلت مساعى الصلح والتوفيق التى بذلها أصدقاء الطرفين ، ورجال الدوله الاوفياء المخلصون ، لحل الخلاف الناشب بين الملك وأخيه ، واعادة العلاقات بينهما الى ما يجب أن تكون عليه بين رجلين ينتميان الى أب واحد ، ورضعا من ثدى واحد ..

وأدرك الجميع ان الخلاف بينهما سوف يتطور الى صراع مسلح ، وان حربا أهلية تهدد البلاد بالخراب والدمار .

كان « دون سانكو الرابع » الملقب بالشجاع ، قد اعتلى عرش قشطيلة وليون ، خلفا لابيه الفونسو العاشر ، ففى سنة ١٢٨٤ للميلاد ـ ٦٨٣ هجرية ـ بعد أن كان قد تمرد عليه في حياته ، وحمل السلاح فى وجهه ، واخطره الى الاستعانة بملك المغرب المرينى أبى يوسف يعقوب ، فانجده ملك المغرب .. بجيش من عنده .

كان سانكو الرابع عالى الهمة بعيد النظر . ولكن ما حدث له مع ابيه من قبل ، تكرر حدوثه بعد اعتلائه العرش بينه وبين أخيه فى هذه المرة ، بالرغم مما أظهره فى دراية وحكمة فى معالجة المشاكل المعقدة التى كانت دولة قشطيلة وليون تتخبط فيها .

رزق سانكو فى سنة ١٢٨٥ ولدا فرح به فرحا عظيما واطمأن الى أن الملك سيظل فى سلالته . وجعل يبذل الجهود لمواصلة الحرب فى جبهتين : للسيطرة على الامراء الاسبانيين الوطنيين من ناحية ، ولمنازعة العرب على ملكهم بالاندلس من ناحية أخرى .

وكان أخوه « دون جوان » يطمع فى أن يشاركه الحكم أو أن يخلفه على العرش . ولكن مطامع الشاب صدمت بخيبة الامل ، يوم عنفه الملك على مسمع من رجال الدوله ، وحذره من التمادى فى التآمر عليه . وبلغت خيبة الامل حد اليأس يوم رزق الملك ذلك الابن الذى قطع على عمه الطريق المؤدى الى وراثة العرش ..

وتحققت مخاوف الناس وأعلن دون جوان العصيان على أخيه الملك سانكو ، بل ذهب الامير المتمرد الى أبعد من هذا ، وتحالف مع العرب على أخيه . وكثيرا ما كان الاسبانيون فى ذلك الوقت ينقسمون الى فريقين . والعرب الى فريقين ، فيتناحرون ويتقاتلون فى حروب يقف فيها جيش من العرب والاسبان من جهة ، وجيش من الاسبان والعرب من جهة أخرى ، فتشاهد السهول والجبال معارك عجيبة يقاتل فيها الصديق صديقه ، وينحر فيها الاخ أخاه ..

هذا ما حدث فى أثناء العصيان الذى أعلنه من قبل دون سانكو على ابيه . وهذا ما تكرر فى خلال العصيان الذى أعلنه دون جوان على أخيه ،

فقد حارب فريق من العرب مع الملك للدفاع عن عرشه ، وحارب فريق منهم مع الامير الثائر الطامع فى ذلك العرش !

وكان بين القواد العرب الذين حالفوا الثائرين « يوسف بن حليم النافعى » وهو من أسرة جاءت من القيروان . وبين الذين حالفوا الملك « محمد بن عباس » البصرى ، الذى جاءت أسرته من سوريا .

فى سنة ١٢٩٣ ميلادية ـ ٦٩٣ للهجرة ، ضرب دون جوان الحصار على مدينة « طريفة » الواقعة على شاطىء البحر بمضيق جبل طارق ، لانتزاعها عنوة من أخيه الملك ، وكان يرافقه يوسف بن حليم النافعى .

أما المدينة ، فكان يدافع عنها ، باسم الملك ، القائد الاسبانى « الفونسو بريز دى كزمان » الملقب بالشجاع ، مثل ملكه . وكان يرافقه كمرشد ومستشار القائد العربى محمد بن عباس ..

وكان كل من الرجلين ، الامير الثائر والقائد الموالى للملك ، يصغى لنصائح صديقه العربى ، ولا يقدم على عمل بدون استشارته ..

وفى احدى المعارك التى دارت رحاها بين فريق من رجال الحامية ، وفريق آخر من الجيش المحاصر للمدينة ، وقع ابن القائد « كزمان » الاسبانى أسيرا فى يد دون جوان ..

وطاف جنود الامير الثائر بأسيرهم المكبل بالقيود أمام أسوار « القصبة » وهى قلعة المدينة التى تشرف أبراجها على الباب الغربى الكبير ، والتى جعلها « كزمان » مقرا لقيادته !

* * *

فى الخيمة التى نصبها دون جوان أمام الباب الكبير ، على مقربة من أبراج القصبة ، جلس الامير الثائر فى حلقة ضمت فريقا من معاونيه الاسبانيين والعرب ..

وقال يوسف بن حليم النافعى القيروانى

ـ أود الليلة أن أروى على مسامع من يجهلون القصة ، ما حدث السموءل بن عاديا الازدى الغسانى ، يوم استجار به امرؤ القيس ، الملك الضليل ، فأجاره ثم حفظ له دروعه . فقد وقع ابن السموءل أسيرا فى أيدى أعدائه المحاصرين لقلعته . فخيروه بين أن يسلمهم الدروع أو يقتلوا ابنه الاسير . فحافظ السموءل على الامانة وضحى بابنه فى سبيل الوفاء بالعهد !

وواصل يوسف سرد تفاصيل ذلك الحادث ، وكيف أن السموءل رفض أن ينقذ حياة ابنه بخيانة جاره ، فنفذ حكم الموت بالشاب أمام أنظار أبيه ، الذى كان يرقب ما يجرى تحت أسوار قلعته ..

وقال مخاطبا دون جوان ، الذى أدرك مايريده محدثه قبل أن ينتهى من قصته :

ـ والآن أيهـا الرفيق والشريك ، هل لك أن تقترح على خصمك « كزمان » قائد هذه الحامية ما اقترحه أعداء السموءل عليه فى قلعته . فاما أن يفتح لنا كزمان أبواب « طريفه » فندخلها بأمان ، واما أن نذبح ابنه أمام الاسوار ! ان ما أوصيك به ، وأنصحك بأن تفعله ، لمن الاعمال المنطوية على القسوة والجبروت . هـذا صحيح . ولكن الحروب تقضى أحيانا على القائمين بها بمثل هذه الاعمال الخالية من الرحمة . ونحن فى حاجة الى الاستيلاء على « طريفة » ودخول قلعتها بأى ثمن . فليكن الثمن ما اقترحه عليك ، اذا رضى كزمان بفتح أبواب المعقل لانقـاذ ابنه من الموت ! ..

فسأل دون جوان :

ـ وان رفض ؟

فأجاب يوسف :

ـ قلت لك اننا سنذبح الشاب ، ما دمنا نجعل هذا أساسا للتهديد الذى نوجهه الى الرجل !

وأخذ دون جوان رأى رفاقه ، فوافقوا على ما أوصى به يوسف بن حليم القيروانى ..

★ ★ ★

فى داخل القصبه ، كان « دون الفونسو بيريز دى كزمان » منصرفا الى اتخاذ التدابير لضمان الدفاع عن البلدة وقلعتها ، بعد أن بدأت المؤن تنقص يوما بعد يوم ، وعدد الموتى والجرحى يزداد أيضايوما بعد يوم ، وكان معه صديقه وزميله محمد بن عباس البصرى ، يبذل له النصـح ويبدى رأيه فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحصار ..

وهناك فى تلك الخلوة ، دخل الرسول الموفد من عدوه ليعرض عليه ما اقترحه يوسف بن حليم على الامير دون جوان ..

تكلم الرسول ، وأصغى اليه كزمان بدون أن يقاطعه ، ثم قال :

ـ سأبعث بردى الى دون جوان بعد ظهر اليوم ، وستكون أنت أيضا رسولى اليه كما كنت رسوله الى ..

ولما خرج الرجل ، التفت كزمان الى محمد بن عباس وقال :

ـ ما رأيك أيها الرفيق الوفى ؟

فأجاب البصرى :

ـ حدث مثل هذا يا أخى لصاحب الحصن الابلق فى أرض الشام ، واسمه السموءل بن عاديا ..

ـ ماذا حدث له ؟

فقص محمد بن عباس على الاسبانى كزمان قصة السموءل وكيف

ضحى بابنه فى سبيل وفائه بالعهد الذى قطعه على نفسه . وكما نصح يوسف القيروانى صديقه الاسبانى جوان بأن يتمثل بأعداء السموءل ، نصح محمد بن عباس البصرى صديقه الاسبانى كزمان بأن يتمثل بصاحب الحصن والد الاسير ..

وسأل كزمان :

ـ بماذا أجاب السموءل يامحمد ؟

فقال البصرى :

ـ ارسل رده فى هذه الكلمات :

« اقتل أسيرك انى مانع جارى ! »

فصمت كزمان لحظة . ثم قال :

ـ ولن يكون السموأل العربى أكثر منى تمسكا بما يفرضه عليه الواجب .. فسأرد على العدو بمثل ما رد به صاحب الابلق على عدوه .. بل سأضيف اليه مالم يفكر السموءل فى صنعه !..

ونادى كزمان رسول دون جوان ، وقال له :

ـ عد الى من أوفدك الى ، وقل له أن يوافينى غدا عند الفجر ، الى البرج الغربى ، حيث ترفع الحامية علم الملك . وسأخاطبه من أعلى البرج لاعطيه جوابى على ما يقترحه على .. اذهب ..

وفى صباح اليوم التالى ، جاء دون جوان ومعه كوكبة من الفرسان الى الساحة الممتدة أمام البرج ، تحت صارية العلم . وكان يوسف بن حليم يلازمه كظله ..

وأطل كزمان من فوق السور ، ومعه محمد بن عباس ولفيف من أعوانه ..

ووقف العدوان الواحد تجاه الآخر ، وتبادلا نظرات الحقد والضغينة ..

واستل كزمان سيفه من غمده ، وألقى به من فوق السور فسقط السيف أمام جواد الامير الثائر ..

وصاح كزمان المحصور مخاطبا دون جوان :

ـ اقتل أسيرك بهذا السيف ، سيف أبيه ، لكى يزداد الحقد ضراما فى قلبى ، ولكى أواصل الحرب ضدك حتى اضطرك الى رفع الحصار ، ولو لم يبق لنا ، رجالى وأنا ، غير النعال والحصى نقتات بها .. اقتل أسيرك بسيف أبيه !

وأخذ دون جوان سيف عدوه كزمان ، وقتل به الشاب الاسير !

وتكررت مأساة السموءل على الارض الاسبانية ! ..

ولكن كزمان واصل الدفاع ، وكرر الخروج من وراء أســـوارة لمهاجمة عدوه فى العراء ، حتى اضطره الى رفع الحصار عن المدينة : وهكذا حافظ القائد الشجاع على الامانة التى عهد به اليها ملك قشطيلة وليون ..

وظل الرجل يناضل ويقاتل حتى مات سانكو الرابع فى ســـنة ١٢٩٥ للميلاد ـ ٦٩٥ هجرية ، وخلفه على العرش ابنه وكان قـد بلغ العاشرة من العمر . فاستأنف كزمان النضال والقتال فى ســـبيل الابن وفاء لذكرى الاب !

وقتل ذلك القائد الاسبانى فى سنة ١٣٠٩ للميلاد ـ ٧٠٩هجرية . والسلاح بيده ، أمام صخرة جبل طارق ..

ومن سخريات القدر ، أن يكون القائدان العربيان ، يوسف بن حليم النافعى القيروانى ـ ومحمد بن عبـاس البصرى ، فى تلك المعركة التى قتل فيها دون الفونسو بـيريز دى كزمان ، بـين المدافعين عن القلعة العربية ، ضد الرجل الذى حالفه أحدهما من قبل ، وعاداه الآخر . وقد يكون السهم الذى أصاب القائد الاسبانى قد انطلق من قوس عـدوه السابق ، يوسف بن حليم ، أو قوس حليفه بالامس ، محمد بن عباس !

عرش بين أخوين ..

يبلغ الحقد بين أبناء الاب الواحد ، أحيانا ، مالا يبلغه بين الاغراب

وصل الفارسان الى قاع الوادى حيث ماء الغدير يغرد على الحصى، فى كنف الطبيعة الهادئة، وفى مساء ذلك اليوم، الذى كانت فيه النفوس هائجة فى المدينة، التى غادراها منذ ساعات، وهمـــا لا يعرفان الى أية جهة يدفعان فرسيهما الاصيلتين ..

وترجل كبير الاثنين وساعد رفيقه الشاب على النزول عن ظهـــر فرسه، وهو يرمقه بنظرات تنم عن عطف شديد أقرب الى المحبة الابوية منه الى شعور الصديق نحو صديقه :

ـ أتعب أنت ياهنرى ؟

وجاءه الرد بصوت خافت :

ـ جدا يا خالد .. ولكننى مطمئن الى الغد، وأتحمل التعب بـــلا خوف، لاننى فى صحبتك، ولانك ترافقنى فى هذه الرحلة التى لاأعرف ـ ولا أنت على ما أظن ـ أين تنتهى بنا، ولا متى تنتهى !

ـ اجلس اذن . ولنأخذ قسطا وافرا من الراحة، قبل أن نستأنف السير عند الفجر .. وكن رابط الجأش ثابت الجنان ..

ـ سأكون كما علمتنى أنت دائمـــا أن أكون، بسردك على مسمعى قصص البطوله والفروسية التى كان أبطالهـــا وفرسانها من بنى قومك العرب فى معظم الاحيان، ومن مواطنى الاسبانيين فى بعض الاحيان !

ضحك خالد لسماع هذا النقد الناعم، وقال وهو يربت على كتف الفتى :

ـ أتلومنى لاننى كنت أفضل قصص العرب وأنا منهم، على قصص الاسبان الانك انت منهم ؟

فضحك الشاب أيضا وأجاب :

ـ لا ياخالد . بل انى أشكرك على ما فعلت، لاننى أعتقد أن واجب الفارس، الذى يعد نفسه لحياة الكفاح والحرب، يقضى عليه بأن يكون على علم تام بخصائص القوم الذين قد تدفعه الظروف الى قتالهم ..

ـ هذا صحيـــح ياهنرى .. ولكننى أخشى أن تكون قادما، من ناحيتك، على الاشتباك فى قتال مع الاسبانيين بنى قومك، لا مع العرب بنى قومى أنا ؟ ..

ـ هذا أيضا ما أعتقده ياخالد ..

وهذا فى الواقع ماحدث للشاب الاسبانى «هنرى دى ترانستمارى» ورفيقه العربى « خالد بن نعمان »، فى بلاد قشطيلة الاسبانية ..

لقد وضع الشابان خطة العمل للمستقبل فى تلك الليلة ، التى قضياها معا على ضفاف الغدير ، فى الوادى العميق الهادىء ، فى سنة ١٣٥١ ميلادية ــ ٧٥٢ للهجرة

* * *

كان خالد بن نعمان يتاجر بالحلى والجواهر والحجارة الكريمة ، يأتى ببعضها من الشرق ، ويأتى ببعضها من بلاد الافرنج ، ويقوم بعملية مبادلة ومقايضة بارعة ، بين العرب الباقين فى مملكة غرناطة بجنوب أسبانيا ، ووراء المضيق فى الارض الافريقية ، وبين جيرانهم الاسبانيين الزاحفين ببطء من الشمال ، لاسترجاع البلاد ، التى فتحها العرب قبل ذلك العهد بأكثر من ستة قرون ..

وكان السلم يخيم على أسبانيا حينا ، وتهب عليها عاصفة الحروب الهوجاء أحيانا . وفى الحالتين ، كان التجار من أمثال خالد بن نعمان يظلون منصرفين الى ممارسة تجارتهم الرابحة الرائجة ، العرب منهم يتوغلون شمالا ، والاسبانيون منهم يتوغلون جنوبا ، كل فريق منهم يتكلم لغة الفريق الآخر ، ويحل عنده ضيفا مكرما لا يخاف على حياته وأمواله !

كان ذلك العهد عهدا عجيبا ، يجتمع فيه النقيضان ، ويتسامر العدوان ، ويتجاور الحب والحقد ، والكذب والصدق . والامانة والخيانة !

وكان خالد بن نعمان كثير التردد على قصر ملك قشطيلة وليون الفونسو الحادى عشر . فى طليطلة ، وعلى قصوره وقلاعه فى السهول والجبال وكانت أسرة الملك كلها تثق بالتاجر العربى وتأتمنه على مالها وجواهرها وكان هو جديرا بتلك الثقة ..

ولكن صلة الرجل كانت وثيقة بالغادة الحسناء « اليونورا » بصفة خاصة . تلك الغادة التى حلت فى قلب الملك محل زوجته الملكة ، فأحبها وأحبته ، وبلغ هيامه بها الى حد انه انزلها عشيقته فى قصره ، وأطلق يدها فى شئونه كما تشاء ! ..

هى من أسرة « جزمان » النبيلة العريقة ، وأرملة الشريف « جوان دى فيلاسكو » . فقدته ، وهى دون العشرين ، فى سنة ١٢٣٠ ميلادية ٧٣١ للهجرة فذهبت الى قصر الملك الفونسو الحادى عشر لتطلب منه عونه وحمايته . فأخذ الملك بجمالها الفتان ، وصعق من أول سهم أطلقته عيناها البراقتان ، وتغيرت الحالة فى بلاط قشطيلة بين عشية وضحاها !

أحب الملك الارملة الحسناء حبا أفقده كل اتزان ، ودفعه أحيانا الى تهور لا يليق بمقامه مركزه . واستولى الغرور على العشيقة المدللة ، فراحت تسىء التصرف مع الحاشية والاسرة المالكة وكل من كان يحيط بالملك ، فكرها الناس فى القصر وخارج القصر ، وقامت حرب سافرة

بين الملكة المتوجة «ماري» ابنة البرتغال وزوجة الفونسو ملك قشطيلة وبين الملكة غير المتوجة اليونورا دى جزمان ، العشيقة الحاكمة بأمرها !

وكان خالد بن نعمان العربى يميل الى العشيقه دون الملكه ، والى الفريق المناصر لها ، وهو قلة لا تذكر ، دون الفريق المعادى لها ، وهو كثرة ساحقة .

وذلك لاسباب عديدة ...

منها أن اليونورا الجميلة الساحرة كانت كريمة سخية ، تأخذ المال من عشيقها الملك ملء كفيها ، وتنفقه بلا حساب ولا تدقيق . فيلحق تاجر الجواهر من تبديرها ، أوفر نصيب .

وكانت العشيقه من ناحية أخرى تباهى أمام خالد بن نعمان بان أسرتها « جزمان » كانت على وفاق مع الاسر العربية المالكة فى بعض الاحيان ، وان فى عروقها آثارا لدم عربى بثه فى جسم الاسرة فارس أموى احب جدتها وبادلته الجدة الحب !

ونشأ بين الاثنين : الحسناء عشيقة الملك والعربى تاجر الجواهر علاقه صداقة دعمتها المصلحة ، واختلطت بها العاطفة ، فتحولت فى النهاية الى نوع من الشركة وتبادل المنفعة المعنوية والمادية ، وصار خالد واليونورا صديقين حميمين ، لاكت الالسنة الطويله فى وقت من الاوقات اسميهما وأدعت ان العلاقه بينهما ليست من الطهارة بقدر ما يدعيان ويتظاهران !

فى سنة ١٣٣٣ ميلادية ـ ٧٣٤ للهجرة ، وضعت اليونورا ابنها البكر من الملك الفونسو عشيقها ، وسمته « هنرى » واعترف به الملك وأنعم عليه بلقب « كونت دى ترانستمارى »

وانجبت العشيقة لعشيقها ابناء آخرين ، بلغ عددهم عشرة فى نحو عشرين سنه !

عشرون سنة قضتها الارملة اللعوب فى قصر الملك تشاركه حياته كأنها زوجته . والزوجة فى القصر أيضا مقيمة ، تلد للملك ابناء مثل عشيقته ، وتحيك الدسائس والمكائد لغريمتها الظافرة ، ولكنها كانت دائما تفشل فى هذا الصراع الرهيب ، وتظل الكلمة العليا والاخيرة للخليلة دون الحليله !

أما خالد بن نعمان ، فما كان يهمه من ذلك كله غير رواج تجارته ، واتساع نطاق أعماله ، وتدفق المال الى جيوبه . وخزائنه ؛ فيحمله كلما تضخمت الخزائن والجيوب الى ما وراء الحدود ، ويودعه فى مكان أمين عند شركائه وأسرته فى مدينة غرناطة !

وفجأة ، فى سنة ١٣٥٠ ميلادية ـ ٧٥١ للهجرة هبت العاصفة وانقضت الصاعقة ! .

مات الفونسو الحادى عشر ، ونادى أقطاب المملكة بابنه « بدرو »

خلفا له على العرش ، ورقص قلب الملكة مارى فى صدرها طربا لخلو الميدان من الزوج ، الذى كان يحمى الغريمة من نقمة الزوجة ، ودب الرعب فى نفس اليونورا وانتابتها الرعشة . فمنذ أن نعى الناعى ملك قشطيلة وليون ، ودقت اجراس الكنائس حزنا وجللت جدران القصر بالسواد حدادا على الراحل ، شعرت المرأة الذكية النبيهة ، بأن أعداءها يتأهبون للوثوب عليها وازهاق روحها ، ففكرت فى طريقة للخلاص من المأزق ، وتجنب الخطر .

ولكن الاعداء الذين خشيت بطشهم لم يتركوا لها الوقت الكافى للتفكير فضلا عن الاقدام على عمل ...

دعت اليونورا بعد وفاة عشيقها بأيام التاجر العربى خالد بن نعمان واختلت به فى حجرة نومها ، ووضعت بين يديه كومة من النقود الذهبية والحلى الثمينة والحجارة الكريمة ، وقالت والدموع تنهمر من عينيها :

ـ هذا كل ما أملك الآن وما وصلت اليه يدى يا خالد . وقد أعطيت غيرك من الأصدقاء ما وجدته أيضا فى حجرات أخرى ، فحملوه بعيدا عن هذا المكان ، الى حيث يقيم ابنائى مع الاوفياء المخلصين من رجالى . فخذ هذه البقية الباقية من ثروة اليونورا ، وارحل اليوم عن القصر مع ولدى الكبير « هنرى » وسأحاول ان أفلت من الحصار المضروب حوالى ، والحق بكما الى الحدود الشمالية ، فنجتازها الى بلاد غير هذه البلاد !

وسكتت المرأة لحظة ثم قالت :

ـ قبلنى يا خالد !

وطبع خالد بن نعمان على خد عشيقة الملك الاسبانى قبلة حارة .

وفى اليوم التالى ، ساق زبانية الملكة مارى وابنها الملك بدرو المرأة الغريبة الى قلعة أعدوا لها فيها سجنا مظلما .

وفى ذلك السجن ، خنق بدرو ملك قشطيلة وليون بيد اليونورا دى جزمان عشيقة ابيه ، وأصدر أوامره الى رجاله بأن يطاردوا أبناء الغانية ويأتوه بهم أحياء أو أمواتا ... وكان ذلك فى سنة ١٣٥١ ميلادية ٧٥٢ للهجرة ...

ولكن الام كانت قد مكنت فلذات كبدها من الابتعاد عن مواطن الخطر ، فأرسلت كلا منهم الى ناحية ، مع واحد أو أكثر من الرجال الموالين لها .

وآخر من رحل عن القصر الابن الاكبر هنرى ، ورفيقه خالد بن نعمان التاجر العربى ...

* * *

وعلى ضفاف الغدير ، فى قاع الوادى الهادىء ، اطلع التاجر العربى صديقه الشاب على ماحدث بينه وبين أمه ، وقال فى ختام حديثه :

ـ اننى أضع تحت تصرفك ياهنرى هذه الثروة الطائلة التى دفعتها الى أمك أمانة بين يدى ، فانها كافية لتجنيد قوة كبيرة وتسليحها وتموينها . فان امك ماتت مقتولة ، والدم المسفوك يطلب الثأر ، هذه هى تقاليدنا نحن العرب ، وهذه هى التقاليد التى ورثتموها عنا انتم ايها الاسبانيون ، فهل تقسم على الثأر لدم أمك ؟

ومد الشاب يده وأقسم بأن يثأر لأمه ، ويقتل الرجل الذى قتلها ويجلس مكانه على العرش ...

وما هـذا الرجل غير اخيه من أبيه بدرو بن الفونسو الحادى عشر ، من الملكة مارى البرتغالية .

★★★

كان هنرى فى السابعة عشر من العمر عندما اجتاز حدود بلاده الى فرنسا ومعه خالد بن نعمان ولفيف من الانصار الاوفياء .

وعاد بعد سنوات الى قشطيلة وليون ، على رأس جيش جنده وسلحه بالاموال ، التى وضعها التاجر العربى تحت تصرفه ...

ودارت معارك متوالية متتابعة بين الاخوين ، فى سبيل الثأر ، وفى سبيل العرش .

وفى سنة ١٣٦٦ ميلادية ـ ٧٦٧ للهجرة ـ نادى هنرى بنفسه ملكا على قشطيلة باسم « هنرى الثانى » وواصل الحرب والنضال ...

وفى معركة اشتبك فيها الجيشان فى سنة ١٣٦٩ ميلادية ـ ٧٧٠ للهجرة ـ سقط بدرو صريعا فى الميدان ، ووثب عليه جندى من جنود أخيه فقطع رأسه وحملها الى هنرى .

وتوقف الجنود عن القتال ...

وحمل الاخ المنتصر رأس أخيه الداميه بين يديه ، وتمتم كلمة واحدة « أماه ! ... »

ثم ألقى الرأس على الارض ، وهمز فرسه وانطلق فى طريق طليطلة العاصمة ، ومن ورائه جنوده وجنود أخيه ، الذين التأموا فى جيش واحد حول الملك الواحد !

وكان يسير بجانب هنرى فارس كللت رأسه شعور بيضاء ، وبدا التعب والاعياء على وجهه . وكان طوال الطريق يتمتم : « الحمد لله ! .. الحمد لله ! »

ولما وصل مع الملك الى القصر الذى لم يعد فيه غير سيد واحد . قال الفارس :

ـ الآن أيها الملك أود أن تحلنى من عهدى ، فأنا مشتاق الى أهلى وعشيرتى !

وكان جواب الملك ان فتح ذراعيه ليضمهما على صديقه ورفيقه، متمتما بكلمة واحدة أيضا : «خالد !»

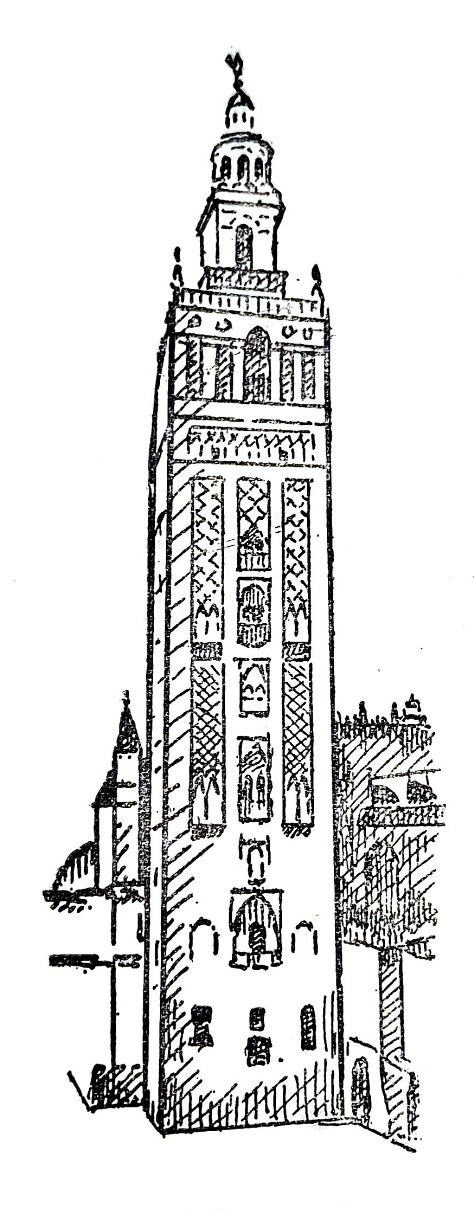
عاد خالد بن نعمان العربى الى غرناطة بعد أن ظل غائبا عنها نحو عشرين سنة ، وبعد ان ضمن العرش لربيبه وابن صديقته ، هنرى الثانى ، ملك قشطيلة وليون ، الذى نشر العدل والرخاء في مملكته ، وظل على عرشها من ١٣٦٩ الى ١٣٧٩ للميلاد = ٧٧٠ الى ٨٨١ هجرية

وذلك بفضل وفاء التاجر العربى الذى أعاد اليه الأموال والحلى التى تركتها أمه أمانة لديه ...

أما الآخرون ، الذين أخذوا بقية الاموال والحلى ، فقد احتفظوا بها لانفسهم واختفوا عن الانظار !

بائعة النعناع

قصة شارع ، وامرأة ، وتمثال وقنديل !



« برج جيرالدا »

من روائع الفن العربى الأندلسى ـ بمدينة اشبيليه

تعال معى : نتجول معا فى ضواحى المدينة التى سماها العرب عروس الحواضر » وعرفها الاسبانيون باسم « ملكة الاندلس » والتى يسمونها اليوم بلغة الغرب « سيفيليا » وبلغتنا العربية « اشبيليه » .. ولنقف لحظة أمام كل أثر من معالم ذلك المجد المندثر ، وتلك العظمة التى ناطحت الثريا ، ثم هوت ، عملا بالسنة القائلة ان كل من لا يسوس الملك فالملك يصرعه !

ان نهر « جوادا لكيفير » يخترق المدينة ويغدق مياهه العذبة على الدور والبساتين وقد طالما تغنى شعراء الاندلس بهذا « الوادى الكبير » ووصفوا تلك المياه بأنها « رحيق الجنة » .

وبساتين البرتقال هذه التى تراها هناك تعانق ما يسمه الاسبانيون « الكازار » هى هى تلك البساتين التى لم تغرس يد الانسان مثلها بعد ، والتى كان الملوك العباديون يتفيأون ظلالها ، يوم أن حلوا فى «القصر» الاشبيلى ، الذى شيده الملوك « الموحدون » بيتا وقلعة .

وذلك البرج الذى يعلوه جهاز « داوار » هو برج « جيرالدا » وكان من قبل مئذنه للجامع الكبير ولا يقل ارتفاعه عن مائة وعشرين مترا .

وأخوة «برج الذهب» يشاركه فى الأصل والمصير . وهذا شأن الابراج الاخرى التى تراها هنا وهناك ، فكلها أو جلها ، كانت مآذن للمساجد فتحولت الى ابراج للاجراس أو مقر لمتحف أو مكتبة ...

***

واتبعنى الآن لنواصل السير فندخل المدينة ونتنقل فى شوارعها وطرقاتها وأزقتها : انك ترى فى كل منها دارا أو جدارا ، وقصرا أو سبيلا ، وقبة أو سورا ، وكلها آثار باقية من ذلك العهد ، فاشبيلية كانت من أمهات المدن الاندلسية ؛ ولاتزال رابعة المدن الاسبانية . وكان يعمل فيها ، يوم أن كان العرب أصحابها ، مائة الف عامل فى مائتى مصنع . وقد حكموها نحو ستة قرون !

ثم اسمع هذه الاسماء التى يتنادى بها الناس اليوم . أن بينها أسماء ليست بالاسبانية الصرفة ، وليست بالعربية الواضحة بنى انجلينو ، بنى سلاريكو ، الفاريز ، ساموا .. الى غير ما هنالك من كلمات تنبئك بأن أصحاب البلاد السابقين قد طبعوا بطابعهم سكان البلاد الحاليين ..

والآن ، نظرة الى هذه اللوحة ، التى تحمل اسم شارع ضيق فى حى من أكثر أحياء اشبيليه ازدحاما : « شارع كنديليخو » . ونظرة أخرى الى هذا التمثال النصفى ، القابع فى كوة أعدت له فى منتصف الشارع ، ولو سألت المارة لقالوا لك : « هذا تمثال الملك بدرو ! .. » .

وللشارع والاسم والتمثال قصة . فاسمعها كما يرويها لك الاشبيليون واذا كان الرواة لا يتفقون جميعهم على التفاصيل ، فالقصة على كل حال هي هي فى معناها على جميع الالسنة ...

فى أواسط القرن الرابع عشر ، جلس على عرش قشـطيلة وليون بأسبانيا ملك لقبه الناس بالملك « القاسى » لانه كان غليظ الكبد سفاحا يطربه أنين الجرحى وتسكره رائحة الدم ، وقد وسع ملكه واستحل فى هذا السبيل كل وسيلة وكل سلاح !

ذلك هو الملك « بدرو » ابن الملك الفونسو الحادى عشر ، والذى ظل على العرش من سنة ١٣٥٠ الى سنة ١٣٦٩ ميلادية = ٧٥١ الى ٧٧٠ للهجرة ، الى أن هزمه أخوه من أبيه وقتله وقطع رأسه واستأثر بالملك من بعده باسم « هنرى الثانى » .

وكان معظم العرب فى ذلك الوقت قد رحلوا عن المدن التى استعادها منهم الاسبانيون واحدة بعد واحدة ، وكانت اشبيلية من تلك المدن التى آلت الى بدرو السفاح . ولكن فريقا من العرب ، معظمهم من المغـاربة ظلوا مقيمين فى المدينة ، وانكمشوا على انفسهم فاستقروا فى ركن من أركانها أطلق عليه الاسبانيون اسم « حارة المغـاربة » اسوة بما جرت عليه العادة من قديم الزمان ، باطلاق مثل هذه الاسماء على الحـوارى التى تلتقى فيها جماعة من جنس واحد أو من دين واحد ، كحارة النصارى وحارة اليهود ...

وانصرف أولئك العرب والمغاربة فى حارتهم باشـبيلية الى مزاولة طائفة من الصناعات اليدوية التى مهروا فيها ، فمرت الاعوام وتتابعت وتركهم الاسـبانيون وشأنهم ، على أمل أن ينقرضـوا مع الزمن أو يندمجوا بالسكان الذين حلوا فى المدينة محل قومهم .

وكان الملك بدرو - أى بطرس - شديد الميل الى تقليد الملوك العرب الذين سبقوه على عروش الدول الاسبانية ، ومما كان يصـنعه من هذا القبيل ، انه كان يخرج فى الليل متخفيا متنكرا ، ويطوف فى المدينـة وضواحيها ، ويختلط بالسكان فى لهوهم ومرحهم ، ويبحث مثل عامـة الشعب عن مغامرة يندفع وراءها ، أو مشاجرة يشتبك فيها ..

* * *

وحدث ذات يوم أن التقى فى ساعة متأخرة من الليل بشاب اسبانى يعزف لحنا عذبا ، وينشد أغنية غرامية ، تحت نافذة حسـناء نافرة ، فاعترضه الملك وأراد أن يزاحمه على حبيبته ، فما كان من الشاب العاشق الا أن امتشق سيفه واستعد للقتال !

وكانت مبارزة أحدثت فى ذلك الكون ضوضاء غير مألوفة ، وصحا الناس على قعقعة السلاح ، وتراجع الشاب أمام الملك شيئا فشيئا ، ودخل حارة المغاربة ...

ولكن الملك أدركه ، وبادره بطعنة ألقته على الارض مضرجا بدمه أمام بيت امرأة عربية يعرفها الناس باسم « نانا » أو بائعة النعناع !

وفتحت المرأة نافذتها ، وأطلت برأسها وأضاءت الطريق بسراجها، فرأت رجلا يقتل آخر ، ثم يعدو هاربا ويختفى فى الازقة الضيقة ...

ولكنها عرفته : فان الملك بدرو كان يشكو من داء غريب ، أحدث له ورما فى ركبتيه . فاذا مشى أو جرى ، يسمع بعظام ركبتيه طقطقة تشبه صوت القباقيب على البلاط !

وفى اليوم التالى عثر رجال الشرطة على جثة القتيل ملقاة أمام باب المغربية بائعة النعناع فسألوا وبحثوا وحققوا ، ولم تتردد المرأة فى قول الحقيقة ، فأقسمت أنها رأت وجه القاتل ، وأنها عرفته من مشيته ، وانه الملك بدرو بعينه !

ووقع رئيس الشرطة فى حيرة !

ان العرف يستحل المبارزة ، ولكن القانون يعاقب القاتل بالقتل ، لا فرق فى ذلك بين من يقتل ليسرق ، ومن يقتل لينتقم أو يدافع عن نفسه ..

فكر الرجل مليا ، ثم استقر رأيه على أمر وخطة . فتذرع بالشجاعة وذهب الى الملك فى قصره ، وهو القصر العربى الذى حل فيه ملوك قشطيلة وليون الاسبانيون .

كان الملك فى ذلك العهد حاكما بأمره ، هو وحده مرجع كل قانون ومصدر كل سلطة ، ينظر فى شئون الدولة جميعا ، كبيرها وصغيرها .

ومثل رئيس الشرطة أمام الملك بدرو وأطلعه على ما جرى : فقد تبارز رجلان فى الطريق ، وقتل أحدهما الآخر !

وسأل الملك :

– والقاتل ؟ هل عرفتموه ؟

– نعم يا مولاى !

– وهل قبضتم عليه ؟

– كلا يا مولاى !

– وهل هناك أمل فى القبض عليه ؟

– نعم يا مولاى !

– ومن هو ذلك القاتل ؟

– سوف تعرف اسمه يا مولاى عندما ننزل به العقاب الذى تراه

– العقاب واحد لا يتغير : فالقاتل يقتل . وعليكم أن تقطعوا رأس الرجل ، اذا ثبت عليه الجرم ، وتعرضوها على الانظار فى المكان الذى ارتكب فيه جرمه !

وسكت الملك لحظة ثم أردف قائلا :

ــ القانون هو القانون ! يطبق على الناس أجمعين ، من الملك الى أدنى رعاياه مقاما : فنفذوا القانون اذن ، وليكن التنفيذ فى مساء هذا اليوم !

* * *

وانصرف رئيس الشرطة . وبات الملك بدرو يرقب تنفيذ القانون كما أمر به ، وقد ظن أن هناك خطأ ، وأن رجال الشرطة قد قبضوا على برىء مسكين ، سوف يقطعون رأسه فى المساء ويعلقونه على وتد ، ويعرضونه على الانظار بدلا من رأس المذنب الحقيقى !

وفى مساء ذلك اليوم ، قصد رئيس الشرطة الى مكان الحادث ، ومعه خمسون من رجاله يشرعون الرماح ويشهرون السيوف ، وفى يده صندوق فتحه أمام الناس ، وأخرج منه تمثالا لرأس الملك صنع من الطين ورفعه على قاعدة فى وسط الطريق ، وخاطب رجاله والجمهور قائلا :

ــ الملك بدرو قتل رجلا هنا مساء أمس . واستحق من أجل ذلك أن تقطع رأسه وتعرض على الانظار . ولكن رأس الملك فى مأمن من كل سوء ، وهى مقدسة فى نظرنا جميعا . ولهذا فقد صنعت للملك بدرو القاتل تمثالا قطعت رأسه تنفيذا لحكم القانون !

وصفق الناس لمهارة رئيس الشرطة فى التخلص من المأزق الحرج . وعلم الملك بدرو بما حدث فصفق كما صفقت رعيته ، وضحك كثيرا ، وكافأ رئيس الشرطة بتعيينه رئيسا لحرسه !

ولكنه سأل عن كيفية الوصول الى معرفة الحقيقة ، وكشف الستار عن المبارزة التى لم يرها أحد ، فعلم أن المرأة المغربية بائعة النعناع هى التى وشت به ، وأنها رأته على ضوء مصباحها ، وعرفته من طقطقة ركبتيه وهو يجرى هاربا من حارة المغاربة !

فذهب الى المرأة فى بيتها ، وأغدق عليها العطاء . وهنأها على فطنتها وذكائها وصدقها . وأمر بأن يطلق على حارة المغاربه منذ ذلك الوقت : وتخليدا لذكرى ذلك الحادث ، اسم « طريق كنديليخو »

وكلمة « كنديليخو » الاسبانية ليست غير تحريف لكلمة « قنديل » العربية ، فالمصباح أو السراج أو القنديل عند الاسبانيين يطلق عليه حتى يومنا هذا اسم « كنديليخو » .

* * *

تلك قصة ذلك الشارع الذى لا تزال لوحته تحمل هذا الاسم : « شارع كنديليخو » أى شارع القنديل ...

وتلك قصة التمثال النصفى الذى لايزال قائما الى الآن فى ذلك الشارع ، وفى المكان الذى وقعت فيه المبارزة بين الملك والشاب العاشق ، والذى يمثل الملك بدرو السفاح ، وقد تحطم التمثال الاصلى الذى صنعه

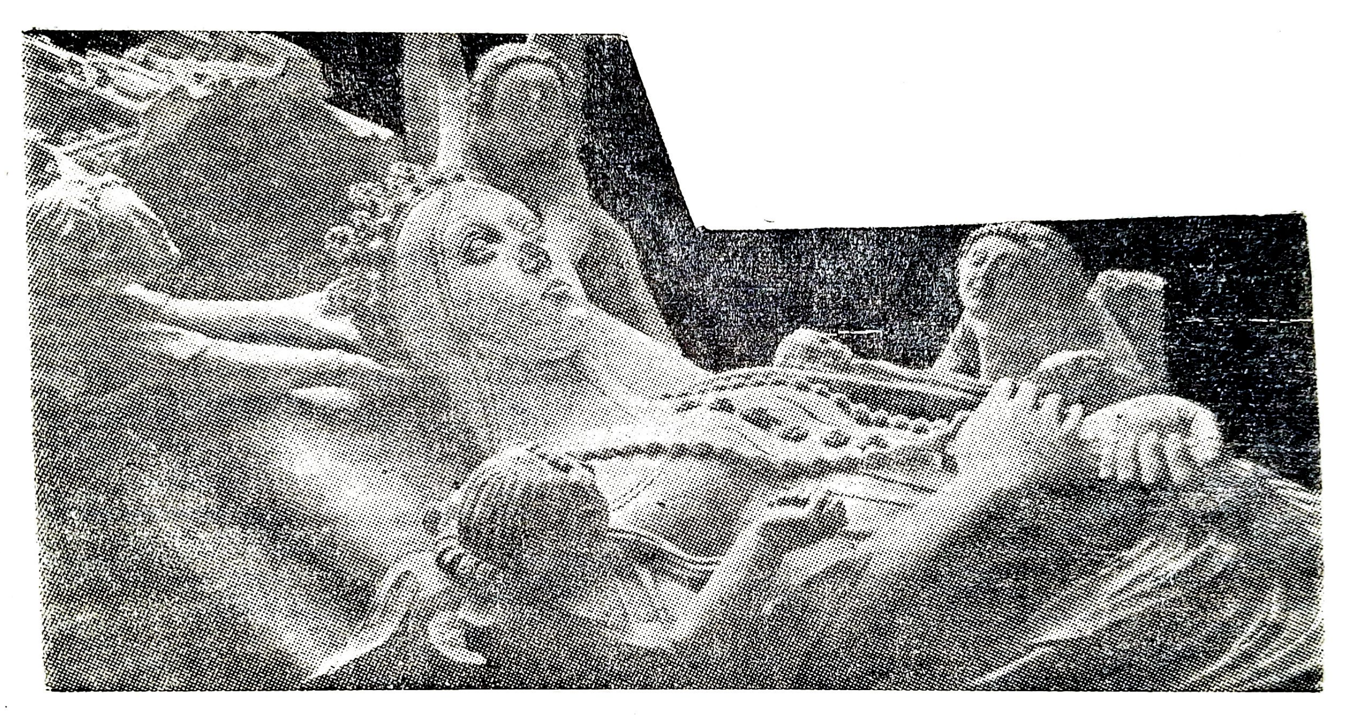
رئيس الشرطة فى القرن الرابع عشر ، ولـكن تمثالا من الحجر قد حل الآن محله ...

وتلك قصة المغربية نانا ، بائعة النعناع فى أشبيلية !

ولم يكن الملك بدرو ، ولا أحد من رعاياه ، يظن فى ذلك الوقت ، ويوم صنع رئيس الشرطة تمثالا لرأس الملك رفع على وتد ، ان هـذه التمثيلية سوف تنقلب الى حقيقة واقعة ، وان الملك سـيهزم فى حربه مع أخيه هنرى ، فيقطع أحد الجنود رأسه ويحملها الى عدوه !

الجثة المتوجة

أرادها ان تكون ملكة فى حياتها ، ففشل . ثم جعل منها ملكة بعد موتها !



تمثال الملكة اينيس ممدودة على ضريحها لم تضع التاج على رأسها في حياتها فوضعه له زوجها الملك وهي جثة هامدة

في حديقة قصر « كويمبرا » الغناء ، وفي ظلال الأغصان الوارفة المتدلية من أشجار البرتقـــال ، جلست الأميرة « اينيس دي كاسترو » تشكو همومها الى وصيفتها ، وتفضي اليها بما يختلج في صدرها من مخاوف فقالت انها رأت في منامها حلما ازعجها ، فنهضـــت من نومها مذعورة مضطربة ، تتشاءم من ذلك اليوم الذي أشرقت شمسه فهي تعتقد انـــه خاتمة أيامها .

حاولت الوصيفة ان تهدىء من روعها ، وتعيد الطمأنينة الى نفسها ، ولكن الاميرة الحزينة القلقة ظلت مستسلمة لافكارها السوداء ، فمالت برأسها على صدر الوصيفة الحنون ، وقالت بلهجة تخنقها العبرات :

ـ لا ، لا يا ساما .. انني يائسة من الحياة ، ونفسي تحدثني بأن حبلها سينقطع اليوم ، فالراهب الذي رأيته في المنام يرش الماء المقـدس على وجهي ، قد انذرني بهذا حيث قال : « صلي ايتها المسكينة واستغفري ربك وتوبي اليه ، فهذه صلاتك الاخيرة ! »

ـ هذا حلم ياسيدتي ..

ـ نعم ، ولكن كثيرا ما تصدق الاحلام ! فاذكريني يا ساما اذا امتدت الى يد السوء ورحلت عن هذا العالم قبل الاوان ..

ـ اذا حدث شيء من هذا لا ســـمح الله أيتها السدة المحبوبة ، فسوف ينتقم لك الامير بدرو ، وسيكون لي نصيب في الانتقام !

* * *

جرى هذا الحديث في صيف عام ١٣٥٥ ميلادية = ٧٥٦ للهجرة ـ بين الاميرة ووصيفتها . أما الاولى فأسبانية ، وأما الثانية فعربية . وقد شاءت الظروف أن تجمع بينهما في حديقة ذلك القصر البرتغالي .

كان يجلس على عرش البرتغال في ذلك الوقت ملك يستحل كل شيء في سبيل غايته ، وهي توسيع حدود مملكته على حســـاب جيرانه الاسبانيين والعرب على السواء : ذلك هو الملك « الفونسو الرابع » ، الذي خطب لابنه وولي عهده الامير « بدرو » ، الفتاة « كونستانزا » ابنة أمير مرهوب الجانب من امراء الجلالقة . وكان لهذه الفتاة ابنة عم بارعة الجمال تدعى «اينيس» ، سمح لها أبوها « بدرو فرنانديز دا كاسترو» في سنة ١٣٤٠ ميلادية ـ ٧٤١ للهجرة ـ بأن تصحب خطيبة ولي العهد الى البرتغال ، وتبقى في معيتها .

وحدث في تلك السنة أن نازل « الفونسو » جيشا عربيـا فانتصر عليه في معركة « طريفة » وعاد الى عاصمته بأسلاب وفيرة وأسرى كثيرين وكان بين هؤلاء الاسرى رجل مغربي مات متأثرا بجراحه ، تاركا ابنـــة صبية ، قالت ان أمها اسبانية وانها ماتت بعد ولادتها ببضعة أيام . فأشفق الملك على اليتيمة وانزلها في قصره مع من كان فيـه من النساء . وكثيرا ماكان يحدث مثل هذا في ذلك العهـد ، فيتبنى الاسـبانيون والبرتغاليون شبانا وفتيات من العرب ، ويتبنى العرب شبانا وفتيات من الاسبانيين والبرتغاليين ..

مدت الموائد فى بهو القصر الملكى ، واستوى المدعوون فى أماكنهم حولها ، وتلالات القلائد فى اعناق الاشراف ، والعقود على نحور النساء . واحتل جانبا من المائدة الملكية عشرون رجلا وامرأة ، لا يمتون بسبب الى الاسر النبيلة ، تتوسطهم « سمحاء » العربية : اولئك هم حاشية الاميرة « اينيس دى كاسترو » وخدمها ووصيفاتها ، فى قصر « كويمبرا » حيث عاشت وماتت ، فقد اراد الملك أن يكون لهم من المأدبة نصيب ، وان يمتعوا عيونهم بالمشهد الرهيب الذى اعده لعظماء مملكته ونبلائها فى ذلك اليوم

نفخ الحراس ابالأبواق ، وضرب الموسيقيون على أوتارهم ، وارتفعت اصوات المغنين بالاهازيج والاناشيد ، وطافت النساء بالقماقم العربية ترش الطيب على المدعوين ، وتراكمت على الموائد أكداس الاطعمة المنـــوعة والفاكهة اللذيذة ، وامتلأت الكئوس بالخمور المعتقة ، فأكل ضيوف الملك وشربوا ، ودعوا للعاهل الكريم وهللوا ، وتمنوا ألا يكون لتلك المأدبة الفاخرة ختام ...

وخاطب الملك مدعويه قائلا :

ـ ياقوم ! .. تذكرون أولئك الاشرار الثلاثة الذين اغتالت ايديهم الأثيمة حياة أحب الناس الى ، ومزقت خناجرهم صدر المرأة الوحيدة التى احببتها فى هذه الدنيا ، والتى اعددتها لتشاركنى الملك وتجلس بجانبى على هذا العرش ... لقد فر أولئك القتلة يا سادة الى بلاد «قشطيلة» فطلبت من ملكها تسليمهم الى .. وقد سلمهم أخى وسميى « بدر الاول » ملك « قشطيلة » وأرسلهم الى مكبلين بالحديد . غير أن واحدا منهم ، وهو « دييجو لوبيز » تمكن من الافلات واختفى ، وبقى رفيقاه فى قبضتى : « بدرو كويلهو » و « الفارو كونزاليس » .. فأى عقاب تنصحوننى بأن انزله بهما ؟ ..

فانطلقت بعض الاصوات صائحة : « الموت ! الموت ! » ورددت افواه المدعوين فى جوانب البهو كالصدى : « الموت ! الموت ! » واستطرد الملك قائلا :

ـ سيموت « كويلهو » ويموت « كونزاليس » ، ويكون موتهما عبرة لامثالهما من الخونة السفاكين !

وشهد المدعوون منظرا اقشعرت له ابدانهم ، وارتعدت فرائصهم ، واصطكت ركبهم : فقد تفنن الجلادون فى تعذيب القاتلين ما سمح لهــم التفنن فجدعوا انفيهما وقطعوا آذانهما ، وحرقوا اطراف اصـــابعهما وصبوا على الجراح الدامية زيتا فائرا .. وكان الملك فى اثناء ذلك يضحك ويمزح ويبالغ فى اكرام ضيوفه !

وبعد أن روى حقده من عدويه ، وملأ عينيه من مرأى تعذيبهما ، صاح بالجلادين قائلا :

ـ والآن مزقوا الصدرين بالخناجر فقد مزق هذان المعينان اجمل صدر لاجمل امرأة .. وانزعوا قلبيهما من بين الضلوع والقوهما طعمة للكلاب !

وامتثل الجلادون لامر سيدهم ففتحوا صدر « الفارو » وانتزعـوا قلبه .. ثم فتحوا صدر « كويلهو » فصاح بهم الملك وهم يبحثون عن القلب :

ــ ابحثوا ناحية اليسار من الخلف ، فستجدون فى صدر هذا الرجل قلبا يحاكى قلب الثور فى ضخامته ! .

وخاطب الملك« سمحاء» سائلا :

ــ اترين فى هذا العقاب شيئا من القسوة يا ساما ؟

فأجابت الفتاة ولم يكن حقدها على القاتلين دون حقد الملك عليهما :

ــ مهما تبلغ بك القسوة يا مولاى ، فانك لن تجارى قسوة الاشرار الثلاثة ، عندما تكالبت خناجرهم على صدر امرأة ضعيفة ، والتقت اطراف نصالهم فى قلبها

ــ اذن ، لقد نفذنا العهد يا ساما وتم لنا الثأر والانتقام !

* * *

وبعد ايام دعا الملك « بدرو » عظماء مملكته الى الاجتماع مرة أخرى فى قصر كويمبرا ، وكان فى هذه المرة يرتدى أفخر الثياب ، وعلى رأسه التاج وعلى كتفيه طيلسان ارجوانى ، ولما التأم حوله جمع الاشراف والنبلاء والقواد ورجـال الحرس ، اطلعهم على سـبب الدعوة وطلب منهم أن يقسموا يمين الولاء له ولذكرى الملكة الميتة ، ففعلوا ..

ثم نهض وقال :

واكب الملك على تلك البقيه الباقية من المرأة التى كان جمالها يبهر الانظار ويخلب الالباب ، وجعل ينتحب ويذرف الدموع

ثم نهض وقال :

ــ ياقوم ! .. كانت اينيس دى كاسترو زوجتى الشرعية امام الله .. ولكننى لم اضع التاج على رأسها وهى على قيد الحياة ، فاردت اليوم ان اتوجها جثة هامدة !

ونزع الملك « بدرو الاول » تاج الملك عن رأسه ، ووضعه على رأس الملكة الميتة !

وأمر بأن يؤتى بأمهر الصناع ، لكى يشيدوا لجثة الحبيبة المتوجة ضريحا لائقا بها ، وان يعدوا له قبرا آخر بجانب قبر الملكة ..

ونفذت أوامر الملك . وقضت « سمحاء » العربية بقيه حياتها فى قصر « كويمبرا » ، تعنى بقبر سيدتها وتنثر عليه أزهار البرتقال وتزينه بأغصان الرياحين !

* * *

حكم الملك بدرو الاول بلاد البرتغال عشرة اعوام أخرى ، فكـان يحاسب الاشراف على مظالمهم ، وينتقم منهم للمظلومين ، ويرفع الضيم عن ابناء الشعب ، وكان رعاياه يقولون : « لقد انتقم الملك للملكة من قاتليها

بقسوة ، وهو اليوم ينتقم لشعب من اسياده بقسوة ايضا . فليحفظ الله الملك القاسى ! » وعرف بدرو الاول منذ ذلك الوقت باسم « القاسى ! »

ومن غرائب الصدف ، ان ملك قشطيلة المعاصر له -وصديقه - الذى سلمه القاتلين لكى ينزل بهما العقاب ، كان ايضا يدعى « بدرو » ويلقب بالقاسى بسبب سلوكه الخالى من الرحمة والشفقة !

وكان بدرو البرتغالى يزور ضريح الملكة كل يوم أكثر من مرة ، ويحبس نفسه من وقت الى آخر فى خلوة فى حديقة القصر سماهـــا « بيت الدموع ! »

ومات فى سنة ١٣٦٧ ميلادية - ٧٦٨ للهجرة ولم يتجاوز السابعة والاربعين ...

وفى دير مشهور فى « كويمبرا » اليوم ضريحان يضمان رفـــات الملك « بدرو الاول » ، والملكة « اينيس دى كاسترو »

وقد وضع النعشان فيهما متلاصقين من الطرف الاسفل ، بحيث تقابل قدما الملك قدمى الملكة ...

ويشرح لك الناس هذا الوضع قائلين :

- عندما تدق الساعة ، وينفخ الملائكة فى الابواق ، ويهب الاموات من القبور يوم الدينونة ، فان العاشقين المتوجين سينتصبان على أقدامهما فيلتقى وجهاهما ، وتشتبك شفاههما فى قبلة شاءت الاقدار ان تقطعهـا عليهما فى الحياة قبل الاوان ، لكى يستأنفاها فى الاخرة !

اندلسية عند الاحباش !

اندلسيه مغامرة ٠ وبرتغالى مغامر : جمعت بينهما الظروف فى بلاد الاحباش ، وماتا ودفنا فيها :

ارسل النجاشي اسكندر ، ملك الاحباش ، فى طلب السيدة المكلفة بالاشراف على خدم القصر وعبيده ، فلما مثلت بين يديه قال لها :

ـ أنت تعلمين يا كريمة ان عظيما من البرتغال فى طريقه الينا . فقد اطلعتك على ما دار بينى وبين البرتغاليين من مخابرات بشأن المساعدة التى أنتظرها منهم ، ولم يبق الا أن نحدد نوع المساعدة وكيفية بذلها . وذلك ماسوف يتم الاتفاق عليه مع الضيف الذى نرتقب حضوره . وسيصل هذا الضيف غدا او بعد غد . ورجائى اليك أن تعدى له فى القصر مكانا لائقا به ، وان تلبى جميع طلباته ، وتسهرى على راحته ، فانى ثقتى بك لا حد لها كما تعلمين

وانحنت « كريمة » أمام الملك ، واجابت بصوت هادىء ولهجة الواثق من نفسه :

ـ لم يحدث يا مولاى ان قصرت فى اداء واجب على منذ تشرفت بالدخول فى خدمتك . ولن يحدث منى فى المستقبل تقصير فهل لمولاى أن يفضى الى باسم ذلك البرتغالى العظيم ، فانى ، كما يعلم مولاى ، لا أجهل أسماء الأسر البرتغالية النبيلة ، بعد أن أقمت فى البرتغال عشرة اعوام او اكثر ...

فقال الملك :

ـ اعلم ذلك ياكريمة، فقد أطلعتنى على ما حدث لأسرتك فى الاندلس والبرتغال . ولهذا ، فاننى لا اشك فى ان ضيفنا « كوفيلان » سيكون سعيدا بأن يجد عندنا من يخاطبه بلغة قومه ..

ـ كوفيلان ؟ .. بيريز كوفيلان يامولاى ؟

ـ هذا هو الاسم الذى قاله الرسول القادم من عدن ...

ـ اذن ثق يا مولاى بأن البرتغال لن ترفض لك طلبا ، ولن ترد لك رغبة ، ولن تساومك على شىء ، ما دام سفيرها اليك هو صاحب هذا الاسم : بيريز كوفيلان !

***

وصل السفير المنتظر الى مدينة « غندار » عاصمة الاحباش ومقر ملكهم اسكندر . فقوبل فيها من الشعب ومن الحكام بالترحيب والتهليل ، وسار الناس خلفه فى موكب كبير الى قصر النجاشى حيث حل ضيفا مكرما . ولكن قلبه لم يخفق فرحا لذلك الاستقبال الرائع ، ولا للهتاف المتصاعد حوله ، ولا لقبلة السلام والوئام التى طبعها الملك اسكندر على جبينه ، ولا لنزوله ضيفا فى أفخم قاعات القصر الملكى ، بقدر ما خفق عندما وقعت عيناه على « كريمة » ، رئيسة الخدم وقهرمانة الدار ..

فقد جاءته مرحبة بدورها ، بعد ان خلا الى نفسه وانصرف من حوله المستقبلون والزائرون ، فلم يصدق الرجل ان المرأة الواقفة أمامه هى هى تلك الصديقة الوفية ، والرفيقة الامينة ، التى عرفها قبل ذلك ببضعة أعوام ، وعاش معها فى بيت واحد ، فى بلدته الصغيرة ببلاد البرتغال !

فتح كل منهما ذراعيه للآخر ، وتعانقا طويلا ، وبدل ان يأوى البرتغالى المنهك تعبا الى فراشه ليأخذ من الراحة نصيبا استحقه بعد مشقة طريق طويلة وعرة ، جلس على وسادة أمام نافذة حجرته ، وجلست « كريمة » بجانبه ، وراح كل منهما يروى للآخر ماتوالى عليه من حوادث، منذ ذلك اليوم الذى افترقا فيه على ساحل بلد فى الغرب ، الى هذا اليوم الذى التقيا فيه بدون سابق انذار فى قلب بلد افريقى !

***

وتساقطت الدموع من عيونهما ، ولكنها دموع فرح وغبطة .. ! .

كان « بيريز دى كوفيلان » فى شبابه ميالا الى الطعن والنزال . وكانت بلاده والبلدان المجاورة لها ميدانا لحروب متواصلة ، فالتحق بالجيوش البرتغالية التى كانت فى ذلك الوقت تخوض غمار القتال ، تارة ضد الاسبانيين الطامعين فى توسيع ملكهم على حساب البرتغاليين ، وتارة ضد العرب طمعا فى توسيع ملك البرتغال على حسابهم ، وكان الاسبانيون منقسمين بعضهم على بعض ، والعرب مثلهم فريسة للتناحر والفوضى ، فاستغل البرتغاليون تلك الظروف وكانوا الرابحين فى قتال هـؤلاء واولئك ..

واصيب « بيريز دى كوفيلان » فى احدى المعارك بطعنة رمح اسبانى اقعدته عن استئناف القتال ، فنفر من حياة الجندية وانصرف الى الاعمال التجارية ، واستقر مدة من الزمن فى البلدة التى ولد فيها وحمل اسمها « كوفيلان » ... وهناك ، وفى تلك الفترة من حياته ، لعبت المصادفات معه دورا كان له فى تكييف تلك الحياة أثر بعيد . فقد لجأت الى « كوفيلان » اكثر من اسرة عربيه هربت من الاقاليم الاندلسية التى استولى عليهـا الاسبانيون . وكان العرب فى ذلك الوقت يؤثرون جيرة الاسبانيين . وكانت الاسر الهاربة الى البرتغال خليطا من العرب والبربر ، المسلمين والمسيحيين على السواء ، فحلت فى بلدة « كوفيلان » اسرة عربية نصرانية من اصل شامى ، عرفت بآل الدباغ منذ ان رحل افرادها من الشام ، فى القرن الرابع عشر ، لاستيطان قرطبة تلبية لدعوة حكامها . واسـم « الدباغ » أطلق على عشرات من الاسر الشامية التى هاجرت الى الاندلس خلال قيام الحكم العربى فيها .

وانصرفت تلك الاسرة الشامية الى تحسين الصناعة التى برعت فيها ، وهى الدباغة ، فاشتهرت قرطبة بفضل آل الدباغ وغيرهم من مهرة الصناع والتجار ، بجلودها المتينة الفاخرة ، فأطلق اهل الغرب على الجلد اسم « كردوانى » ، ثم اصبحت صناعة الاحذية الجلدية فى الغـرب تعرف باسم « كوردونيريا »او كردونرى» او غير ذلك من الالفاظ المحورة من الاصل القرطبائى !

أما آل الدباغ الذين حلوا فى بلدة « كوفيلان » فى اواخر القرن الخامس عشر ، فهم البقية الباقية من الاسرة العريقة التى مات افرادها واحدا بعد واحد ، حتف انوفهم او فى ميادين القتال ، فرحل الاحياء

منهم الى البرتغال واستقروا فى تلك البلدة الصغيرة ، وهم « يوسف بن ابراهيم الدباغ » ، وولده « حنا » ، وابنتـــــه « كريمة » • وأولئك هم الذين عرفهم « بيريز دى كوفيلان » ، لأنهم نزلوا فى دار يمكلها ، مكونة من منزلين ، اخلى لهم منهما واحدا ، واقام مع اسرته فى الآخر ...

وكان ثمن المنزل تعهـدا من « يوســـف الدباغ » وابنه « حنا » وابنته « كريمة » بأن يعلموا المالك صاحب الدار اللغة العربية قراءة وكتابة • وما مرت سنتان على ذلك التعاقد، حتى كان « بيريزدى كوفيلان »، الجندى السابق ، والتاجر المحظوظ ، قد أتقن اللغة العربية التى أحبهـــا ايما اتقان ، فنبتت فى رأسه فكرة عمد الى تحقيقها فى الحال ..

سافر من البرتغال فى رحلة للتجارة ، واصطحب معه الشاب « حنا الدباغ » فزار المغرب والقيروان ومصر • ثم قفـل راجعا الى وطنه وقد ربح مع رفيقه أموالا طائلة • وكرر الرحلة مرة بعد مرة ، وانقضت أعوام زار الرجل وصاحباه يوسف وحنا خلالها جميع البلدان الواقعـــة على السواحل الافريقية الشمالية • ولكن « كوفيلان » عاد من احدى تلك الرحلات وحده : فقد قضى « يوسف » نحبه فى مصر ، ولحق به ابنه « حنا » فى جزيرة صقليه • وحمل « بيريز دى كوفيلان » الى الفتاة « كريمة » ، خبر المصيبة التى حلت بها ، ووضع بين يديها المال الذى ائتمنه عليه الفقيدان وهما على فراش الموت !

* * *

بقيت « كريمة » ابنة الدباغ مقيمة فى منزلها تنفق من المال الذى ورثته عن ابيها واخيها ، مطمئنة الى حماية جارها الصديق الوفى ، الى ان حلت سنة ١٤٨٧ ميلادية = ٨٩٢ للهجرة وحل معها الفراق •

كان البرتغاليون فى ذلك الوقت قد اطمأنوا الى قيام دولتهـــم على اسس ثابتة ، فراحوا يتطلعون الى الكشف عن اقطار مجهولة لجـــلب محصولاتها ومنتجاتها والاتجار بها ، فعهد ملكهم « جوان » الى التاجـــر الرحالة « بيريز دى كوفيلان » بأن يبحث عن اقرب طريق توصل الى الهند الغنية ، التى يقال انها تنبت الخيرات بلا قيد ، وان انهارها تدر لبنا وعسلا وحجارة كريمة !

وفى صيف سنة ١٤٨٧ ، ابحر « بيريز دى كوفيلان » ومغامر آخر يدعى « بايفا » ، من ثغر لشبونة ، الى الشرق المجهول ، حتى وصـــلا الى سيناء ، وتمكنا بعد جهد وعناء من الوصول بحرا الى ميناء عـــدن ، فى أقصى جنوب الجزيرة العربية ، وهناك افترقا ، فذهب « بايفا » الى الحبشة حيث انقطعت اخباره وواصل « بيريز » السفر الى الهند ..

وكان الاحباش فى ذلك العهد يعانون الامرين من جيرانهم ، فتارة يهاجمهم ملك هرز ، وتارة يغزوهم حكام الاقاليم الساحلية ، فبحثوا عن عون يأتيهم من الخارج ، وساقت الاقدار اليهم جماعة من البرتغـــاليين المغامرين ، عرضوا عليهم مساعدة ملكهم وبلادهم ، ودارت بين الفريقين

مراسلات ومخابرات استغرقت ثلاثة اعوام ، كان « بيريز دى كوفيلان » فى خلالها قد زار الهند وتجول فى أقاليمها الساحلية ، ثم عاد الى عـدن حيث أرسل الى مليكه مع بعض الرفاق من المغامرين أمثاله،كل ما استطاع الحصول عليه من معلومات وارشادات عن الهند والطريق الموصلة اليها٠

وكان ما افضى به « بيريز دى كوفيلان » الى الملك جوان البرتغـالى اساسا للرحلات التى قام بها فيما بعد المكتشف الشهير « فاسكو دى غاما » ، والتى اسفرت عن فتح طريق الهند بالطواف حول القارةالافريقية، وتجاوز طرفها الجنوبى عند رأس الرجاء الصالح ، سنة ١٤٩٨ ميلادية = ٩٠٣ للهجرة ٠

أما بيريز دى كوفيلان » ، فقد عهد اليه بأن يذهب الى الحبشة ، ويعقد معاهدة مع ملكها ، فرضخ الرحالة المغامر للامر ، واوفد رسله الى « غندار » عاصمة الأحباش وبعد أن زار جزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربى ـ وعلم منها بوجود جزيرة مدغشقر التى يؤمها التجار العرب ، ابحر الى ساحل البحر الاحمر ، وشق لنفسه طريقا الى مقر النجـاشى اسكندر فى « غندار » ٠٠٠

وهناك التقى بكريمة الاندلسية ابنة يوسف الدباغ ٠٠٠

★ ★ ★

قص الرجل قصته على صديقته ، واستمع اليها وهى تروى له كيف انتقلت من البلدة البرتغالية الى العاصمه الحبشيه

ضاقت بها الدنيا بعد وفاة ابيها واخيها ، ورحيل جارها وصديقها، فوزعت جزءا من ثروتها على اللاجئين والهاربين من عرب الاندلس ،وتركت بيتها لأسرة « بيريز دى كوفيلان » وفاء منها لفضل الأسرة عليها ، ورحلت من البرتغال الى المغرب ، ثم ابحرت من هناك فى سفينة عربية القـت مراسيها بالاسكندرية ٠٠٠

وأقامت فى مصر خمسة شهور عرفت خلالهـا جماعة من التجار ، كانوا يستعدون للسفر الى الحبشة فى قافلة مرابطة فى أسيوط ٠ فخطر ببالها ان تنطلق هى ايضا فى مغامرة مجهولة العواقب ٠ ووصلت القافلة بعد أن قاست الأهوال فى الطريق بضعة شهور سالمة الى « غندار » ، حيث لم يجد التجار صعوبة فى تصريف ما كانوا يحملونه من بضائع ٠ وشاءت الاقدار ـ وللاقدار حكمتها ـ أن تنشأ علاقة صداقة بين « كريمة » ابنه الدباغ وبعض النساء من الاسرة المالكة ، واذا بالاندلسية المغامرة تصبح ، بين عشية وصباح ، موضع ثقة الملك وامينة القصر المسموعـة الكلمه ٠٠٠٠ وهناك التقت بالبرتغالى « بيريز دى كوفيلان » صديـق اسرتها ورسول ملك البرتغاليين الى ملك الاحباش !

وفى قصر الملك ، جلس الصـديق والصديقة يتبادلان الأحاديث والخواطر والذكريات ، وقد اشتد بهما الحنين الى الربوع البعيدة الق ترعرعا فيها !

★ ★ ★

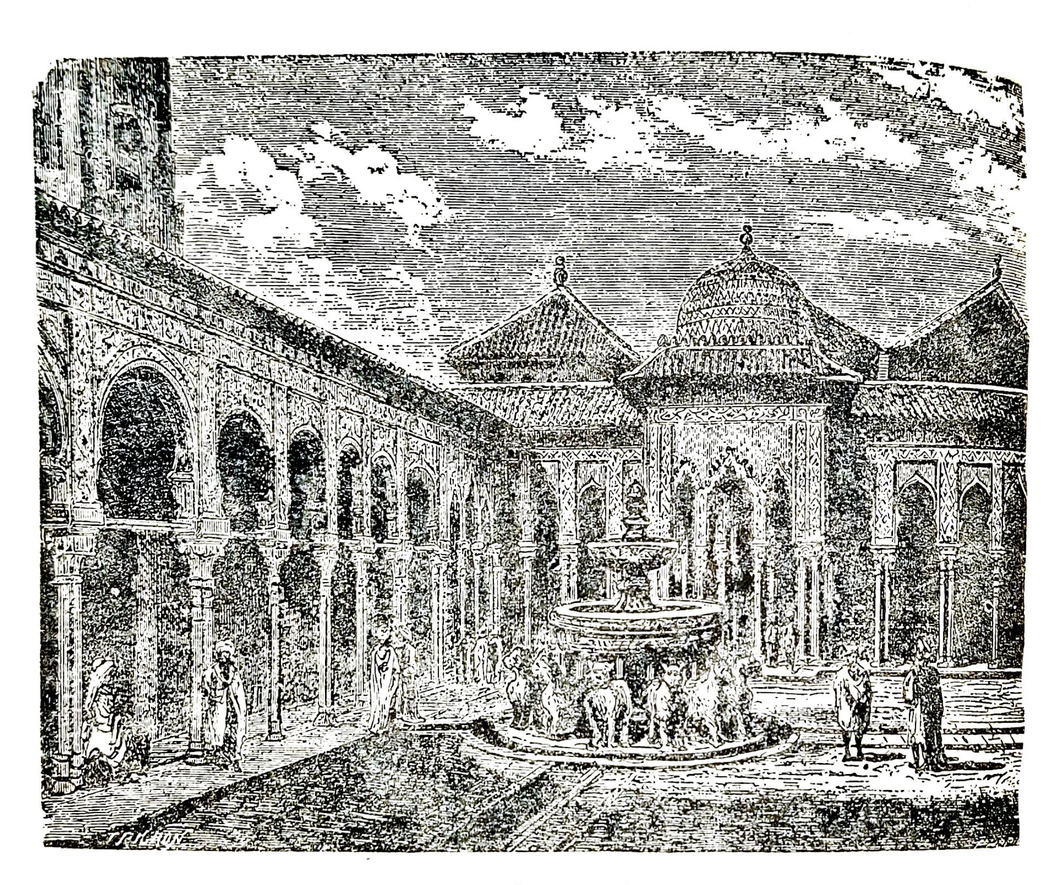
كان « بيريز دى كوفيلان » فى مطلع العقد الخامس من العمر عندما حل فى « غندار » موفدا من ملكه وكانت « كريمة » الاندلسية فى نهاية العقد الثالث . فاعتزما العودة معا الى البرتغال لاستئناف حياة الراحة والهدوء فيها . ولكن الملك اسكندر حال دون تحقيق هذه الامنية ، وأغدق نعمه على ضيفيه الغريبين ، وطلب منهما البقاء فى بلاده ، وظل يرجو ويلح فى الرجاء ، ويعطى ويسرف فى العطاء ، حتى اقتنع البرتغالى وصديقته بأن الاقامة فى الحبشه خير لهما من الرحيل ، فرضيا بأن تكون « غندار » خاتمة المطاف ، وأن يبدلا وطنا بوطن ، وأهلا بأهل ، وخلانا بخلان !

ووفق « بيريز دى كوفيلان » فى أداء المهمة التى عهد بها اليه فى الحبشة كما وفق من قبل فى رحلته الى الهند . فعقد البرتغاليون على يده معاهدة مع الاحباش ، وتبادل الفريقان المنافع ، وشيد ملك البرتغال لملك الحبشة قصرا فخما فى « غندار » لا تزال بقاياه قائمة حتى الآن .. وفى سنه ١٥١٥ ميلادية = ٩٢٠ للهجرة تجددت المعاهدة وأضيفت اليها بنود تتلاءم مع تطور الحوادث واتساع نطاق التجارة بين الشرق والغرب . وكان التجار العرب فى اليمن ومدغشقر وزنجبار وهرر والصومال يلجأون الى « بيريز دى كوفيلان » لعقد صفقات رابحة مع البرتغاليين والاحباش على السواء ..

وعاشت « كريمة » التى عرفها العرب باسم « بنت الدباغ » وسماها الاحباش « السيدة الاندلسية » الى ما بعد سنة ١٥٢٠ ميلادية = ٩٢٦ للهجرة ، وماتت فى « غندار » ويغلب على الظن أن « بيريز دى كوفيلان » البرتغالى اتخذها زوجة له ، فربط كل منهما مصيره بالآخر ربطا قضت به العشرة الطويلة ، والمحبة المتبادلة والمنفعة المشتركة ...

وبموت « كريمة » انقرضت أسرة آل الدباغ الشامية الاندلسية... وأما « بيريز دى كوفيلان » ، فقد عمر طويلا ، والشائع فى الحبشة أنه جاوز المائة من السنين . ففى سنة ١٥٤٥ ميلادية = ٩٥١ للهجرة - سافر الى بلاد الاحباش مواطن له يدعى « رودريجيزدى لاما » مندوبا من ملك البرتغال كسفير لدى النجاشى ، فالتقى هناك بالمغامر الشيخ ، الذى كان أهل البلاد يحوطونه بمظاهر التكريم والاجلال ، ويعدونه عالما بين العلماء ، وحكيما بين الحكماء ولا يعرف تاريخ موته .

والمعروف فقط أنه انطفأ كسراج نضب معين زيته ، ودفن فى الحبشة فضمت تربتها رفاته ورفات المرأة الاندلسية التى عاشت معه فيها .



الصحن الأسود
في قصر الحمراء بغرناطة

الفردوس المفقود

عامل العرب عدوهم بنبل يوم تغلبوا عليه ، فلم يعاملهم بالمثل يوم تغلب عليهم !

رحل كثيرون ، وأبى الرحيل كثيرون ! فليس من السهل على الانسان أن يهجر جوا عاش فيه ، وأرضا ضمت رفات أب أو آباء ، وجد أو أجداد .

عشرة أعوام دامت الحرب بين الاسبانيين والعرب فى مرحلتها الاخيرة ، أى من سنة ١٤٨٢ الى سنه ١٤٩١ للميلاد = ٨٨٧ الى ٨٩٧ للهجرة . وكانت « غرناطة » رهانها : الملك فرديناندو الاسبانى يروم الاستيلاء عليها للقضاء على آخر معقل للعرب فى الاندلس ، وبنو الاحمر أصحابها يدافعون عنها ويحاولون انقاذ تلك البقية الباقية من الدولة العربية التى طوت فى وقت من الاوقات جميع الاقاليم الاسبانية بين حدودها !

لم تكن القوى متكافئة من الناحيتين . وفى الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ ميلاديه ، أعلن أبو عبد الله محمد الحادىعشر الملقب بالصغير ، الكف عن الدفاع واستعداده لتسليم عاصمته الى خصمه فرديناندو . وفى الرابع من شهر يناير سنة ١٤٩٢ ، تم اللقاء بين الملكين وسلم العربى الى الاسبانى ، الذى كانت تصحبه زوجته ايزابيلا - مفاتيح غرناطة !

وخرج أبو عبد الله - الذى يسميه الافرنج « بوابديل » - من المدينة الجميلة ، ومعه حاشيته ، وفى صحبته أمه « عائشة » وسار الى هضبة قريبة لا يزال الاسبانيون الى الآن يسمونها « صخرة العربى » ووقف يلقى نظرة أخيرة على ملكه الضائع ، وتنهد وتمتم قائلا « الله أكبر » ونفرت الدموع من عينيه . فقالت له أمه عائشة بلهجة فيها عتاب ، وفيها شفقة ، وفيها تأنيب : « ابك الآن بكاء النساء على ملك لم تعرف ان تحتفظ به احتفاظ الرجال ! »

وابتعد المغلوبون ، ودخل الغالبون المدينة . وأقام فرديناندو الخامس وزوجته ايزابيلا مدة من الزمن فى قصر الحمراء . أما أبو عبد الله ، فقد بقى بعض الوقت فى الاندلس ، حيث ترك له الاسبانيون مزرعة يمتلكها ، ثم رحل الى المغرب حيث قتل فى حرب سنة ٩٤٠ هجرية = ١٥٣٣ للميلاد .

وفتح الاسبانيون أبواب قصر الحمراء لفريق من أشرافهم وقوادهم فأقاموا فيه ، ولم يحترم القوم شروط الصلح التى تم بموجبها تسليم غرناطة وخضوع الباقين من العرب فى أسبانيا لحكم الاسرة الاسبانية المالكة .

نقض فرديناندو الخامس تلك الشروط . وأمعن خلفه كارلوس الخامس - شارلكان - فى مخالفة نصوصها ، وفعل مثله من بعده خلفه فيليب الثانى .

طورد العرب ، فهرب منهم من هرب ، واعتنق منهم الدين المسيحى من اضطر الى اعتناقه ، واختفى فى الجبال من اختفى ، وبقى فى غرناطة وغيرها من المدن فريق من الناس ذاقوا الامرين من ألوان الذل والهوان ...

ونشبت فى بعض أنحاء الاندلس ثورات أضرم نارها ذوو البأس والهمة العالية من أبناء الاسر العربية التى شتت وصودرت أملاكها .

عشرات السنين تتابعت وشراذم الثوار العرب تثير للاسبانيين المتاعب .

وكانت أشد الثورات خطرا على الحكم الاسبانى ، تلك الثورة التى قادها « فرديناندو دى فالورين » فى عهد الملك فيليب الثانى . ولم يكن فرديناندو دى فالورى غير أمير عربى من سلالة ملوك قرطبة الأمويين أرغمه الاسبانيون فى طفولته على اعتناق المسيحية وغيروا اسمه من « محمد بن أمية » الى الاسم الاسبانى الذى عرف به !

فى سنة ١٥٦٨ ميلادية = ٩٧٦ للهجرة ، كانت الثورة قد اتسع نطاقها اتساعا لم يكن الاسبانيون يحسبون له حسابا ، ولكنهم تمكنوا من قمعها بعد مقتل محمد بن أمية ، الذى يقال انه سقط فى الميدان وهو يحاربهم ، ويقال أيضا ان بعض أنصاره اغتالوه لما شكوا فى بقائه على الولاء للثورة التى قادها .

وخلفه فى القيادة « عبد الله بن أمية » ولكنه قتل أيضا وعلق الاسبانيون رأسه على أحد أبواب غرناطة ، لمدة ثلاثين سنة ! وكان ذلك فى سنة ١٥٧٠ للميلاد = ٩٧٨ هجرية .

ولما توفى فيليب الثانى فى سنة ١٥٩٨ وخلفه فيليب الثالث ، كانت كل مقاومة عربية قد اخمدت فى جميع انحاء اسبانيا ، وذلك بعد أكثر من ثورة كاملة لسقوط غرناطة !

***

سلب ونهب واضطهاد وتعذيب ومطاردة لا هوادة فيها ، أو ارهاب وارهاق وارغام على العمل فى خدمة الغالبين : هذه هى السياسة التى طبقها الاسبانيون تجاه العرب بعد انتصارهم عليهم : عاملوهم بغير ما عاملهم به العرب من تسامح وعدل ، خلال قيام الدولة العربية فى أسبانيا . بل ان الاسبانيين الذين تحلوا بصفات نبيلة وشمائل تدعو الى الاعجاب ، فى أثناء هزيمتهم ومحنتهم ، لم يتحلوا بمثلها من صفات وشمائل بعد أن كتب لهم النصر واستردوا بلادهم من العرب !

***

فى غرناطة ، يتولى شئون قصر الحمراء النبيل القشطيل « دون جوان الفاريز والكالا » الحائز على ثقة الملك فيليب الثانى ، والمعروف بعدائه لكل ما يمت بصلة الى العرب ، والعامل على محو كل أثر لحكمهم فى الاندلس .

انه غليظ أحمق . يعارض حتى فى بقاء من تخلف من العرب وسلالتهم فى مدينة غرناطة . وقد حدث مرة أن انتهره عربى قائلا :

ــ انزع عن نفسك أولا الاسم الذى تحمله ، ثم حاسب أبناء العرب على أسمائهم وسلوكهم وأعمالهم !

وكان ذلك العربى يقصد ، بقوله هذا ، الى تنبيه الشريف الاسبانى الى ما تناساه وتذكيره بأن كلمة « الفاريز » ماهى الا تحوير لكلمة « الفارس » وان كلمة « الكالا » ما هى الا تشويه لكلمة « القلعة ! »

وفى قصر الحمراء ، كانت تعيش فى ذلك الوقت فتاة يتيمة الابوين ، تبناها شيخ اسبانى وعنى بتربيتها ، ثم مات وتركها وحيدة فى القصر ، تحوم حولها انظار الشبان ؛ ولا تجد عطفا وحنانا الا من الرجل العجوز الذى عهد اليه بأن يعنى بالازهار والرياحين فى حدائق القصر

اسمها « سوليداد » أما البستانى فيعرفه الناس باسم « يعقوب القيروانى » ويعرفون انه عربى يعتنق المسيحية ..

بعد وفاة الرجل الذى عاشت فى كنفه ، شعرت سوليداد بالوحدة والوحشة . وأصبحت مكروبة النفس كسيرة القلب ، لا يحلو لها عيش ولا يلذ لها مقام ، تنظر الى الحياة نظرة اليائس منها . لا تطلب من غدها الا أن يصطحب الموت المنقذ فيحصدها منجله ويجرفها تياره ·

ومما كان يزيد عيشها مرارة وحياتها غصة ، تألب الاشراف الاسبانيين حولها وتقربهم اليها ، ومحاولتهم اغراءها بالوعد حينا وبالوعيد أحيانا ·

وكان أكثر الطامعين فيها جرأة وأشدهم رعونة وقحة جوان الفاريز ، الذى ضيق عليها الخناق وسد عليها المنافذ الى حد لم تعد قادرة معه على التخلص من ذلك المراود العنيد ·

أبصرت ذات يوم وهو يجتاز اروقة القصر مقبلا عليها فغادرت حجرتها مسرعة وهرولت الى حدائق القصر تختبىء فيها عن الانظار ·

جلست كعادتها كل يوم على صخرة امام نافورة ماء فشردت أفكارها فى عالم المخاوف والاوهام · وبينما هى كذلك اذا بها تسمع وقع أقدام على الحصى ، فرفعت طرفها منتفضة ورأت البستانى يعقوب مقبلا عليها

بادرها الرجل قائلا :

– كنت آتيا الى هنا ، وكنت عالما بأننى سأجدك عند هذه النافورة ، على حافة حوض الماء هذا ، حيث جلس ملوك وأمراء من قبل ··· ملوك وأمراء كان أبوك يمت اليهم بالنسب !

فارتسمت على وجه الفتاة أمارات الدهشة · وسألت الشيخ :

– ماذا تعنى يا يعقوب .. اى ملوك ، واى امراء ؟ اننى لا أعرف شيئا عن نسبى · وما أنا غير يتيمة ··· وقد أكون لقيطة ··· أشفق على ذلك الرجل الطيب الذى اتخذنى ابنة له !

– أزفت الساعة التى ينبغى على أن أمزق الصمت الذى لزمته الى الآن فأفضى اليك بالسر الذى أحمله دفينا فى صدرى !

– تكلم يا يعقوب · انك تخيفنى !

– سوليداد ، لقد بلغت أمس العشرين من عمرك !

ـ أجل

ـ والاسم الذى يناديك به الناس هنا ليس اسمك الحقيقى ٠

ـ وماذا أدعى اذن ؟

ـ آمنة ٠٠ !

ـ هذا اسم عربى

ـ والدم الذى يجرى فى عروقك عربى أيضا ٠٠ !

ـ أفصح !

ـ أنت ابنة الامير « محمد بن أمية » الذى أكرهه الاسبانيون على اعتناق النصرانية وأطلقوا عليه اسم « فرديناندو دى فالورى » ، وقد انتقض عليهم وأضرم فى البلاد نيران الثورة ، فتبعته جموع العرب ولقى العدو من بأسه وبطشه أهوالا كثيرة ..!

ـ وبعد ؟

ـ سقط أبوك فى حومة القتال شهيد الواجب فى سبيل الدين والوطن !

ـ وأنا ؟

ـ كنت فى ذلك الوقت طفلة رضيعة ٠ فاخذك الاسبانيون ووضعوك فى دير حيث عنيت نساؤهم بالسهر عليك ٠ ومن هناك أخذك الرجل الذى حل بالنسبة اليك محل الاب ، وكان رحمه الله شهما نبيلا !

كان اسمك « آمنه » فسموك « سوليداد ! »

ـ وانت ؟ كيف علمت ذلك ؟

ـ كنت من رجال أبيك

ـ انت اذن مسلم ؟

ـ أنا يهودى من أبناء هذه البلاد وادعى « يعقوب القيروانى » لان جدى قدم الى الاندلس من القيروان. كان العرب يعاملون أهلى وعشيرتى بالحسنى لكن الزمن تبدل حالا بحال عندما انهزم العرب امام الاسبانيين فأساء الحاكم الجديد الينا ، واضطهدنا فى عاداتنا وديننا ، فاقفلت هياكلنا أو تهدمت ، وشردت عشائرنا فى طول البلاد وعرضها ٠ نظرت الى الوراء ، الى الماضى ، الى رغد الحياة الذى كنا ننعم فيه من قبل ، الى الحرية التى كنا نتمتع بها فى عهد ملوك العرب . فأردت أن تعود تلك الايام ولكن كيف تعود ؟ لو لم يهجر بنو قومنا هذه البلاد ويهربوا الى بلاد المغرب بافريقية ، أو يتظاهروا باعتناق دين الغالبين ، لما بقى منهم أحد فى هذه الديار . أنا يا آمنة مسيحى فى الظاهر ، يهودى فى قرارة نفسى . واحمل للعرب فى صدرى المحبة والاحترام وعرفان الجميل وأرجو من الله ألا ينسى بنو قومى مالاقوه فى الاندلس العربية من معاملة حسنة ، ومن عدل وانصاف . ومالاقوه بعد وقوع المحنة على العرب ، من كرم هؤلاء المغلوبين ، ومن رعاية بنى قومهم فى المغرب

للهاربين الشاردين منا . ان العرب عاملونا بالحسنى ، واذا حدث فى مستقبل الايام ان لقى عربي من يهودى ، كائنا من كان ، معاملة سيئة وخيانة ولؤما ، فان لعنة الله سوف تحل على ذلك اليهودى ناكرالجميل .. فعلى اليهود فى كل أن وزمان ، ان يحفظوا للعرب حسن صنيعهم وأن يذكروا أفضالهم عليهم . فلولا العرب لما بقى منا هنا حى يسبح ربه

– انك تحدثنى يا يعقوب عن أشياء أجهلها !

– ومن أين لك أن تعرفها ، وقد نشأت فى جو غير الجو الذى ولدت فيه !

– وانت ... اخبرنى .. كيف عدت الى هنا .. وأقمت فى هذا القصر ؟

– دفعنى الوفاء نحو العرب الى ان أهجر بلدتى ، والتحق بالثوار الذين كان يقودهم ابوك محمد بن امية : قاتلت معه ، ثم قاتلت مع مولاى عبد الله بعد مقتل أبيك ثم .. ثم انهزمت مع المنهزمين ، وشردت مع المشردين وقد عثرت على أثرك ، وما دخلت متخفيا فى خدمة العدو وأقمت فى هذا القصر الا لانك فيه تقيمين يا آمنة .

فألقت الفتاة بنفسها بين ذراعى ذلك الجندى المخلص الامين وبكت فأخذ يعقوب رأسها بيديه ووضع قبلة على جبينها ، ومن عينيه اللتين حبست فيهما الاهوال العبرات زمنا طويلا ، سقطت دمعتان على غدائر آمنة السوداء

* * *

– يعقوب ! يعقوب !

– من المنادى ؟

– آمنة . انهض .. أسرع !

– ماذا جرى ؟

– قتلته

– من هو ؟

– جوان الفاريز ! هاجمنى فى حجرتى ، فأغمدت فى صدره خنجرى !

– الويل لنا !

– أينبغى أن القى عليك درسا فى الشجاعة ورباطة الجاش وأنت من جنود أبى ؟

– ماذا تريدين أن أصنع ؟

– أن تهرب معى بعيدا عن هذه الديارقبل أن يطلع الفجروينكشف أمرى !

– هيا بنا اذن ! ..

هربت الفتاة القاتلة المنتقمة من غرناطة بصحبة صديقها الشيخ فقطع الاثنان المفاوز الشاسعة محترسين من المرور فى المدن ، مفضلين

اجتياز الطرق الوعرة والمناطق الجبلية ، ووجهتهما شاطىء الجنوب .
لكن الاسبانيين أطلقوا على اثرهما شرذمة من رجالهم ، ولم يكن من الصعب عليهم معرفة من ارتكب الجريمة فى القصر ، وقد عثروا على جثة القتيل فى حجرة الفتاة .

***

جبل طارق ...

يا للذكريات التى تثير الشجون فى الصدور !
من هنا دخل العرب فاتحين بقيادة طارق بن زياد ، ومن هنا غادرت فلولهم الاندلس بعد زوال ملكهم !

وهناك .. على ذلك الشاطىء الذى يعلوه جبل شاهق من الصخر الاصم ، أدرك الجنود الاسبانيون آمنة ورفيقها وألقوا القبض عليهما ، فأعادوهما الى غرناطة حيث طرحا فى سجن مظلم .

وفى يوم من أيام الصيف ، سنة ١٥٨٧ للميلاد = ٩٩٦ للهجرة — نفذ الحكم الذى قرر الاسبانيون أن يعاقبوا به الفتاة العربية القاتلة ، والرجل الذى ساعدها على الهرب ..

فى حديقة قصر الحمراء ، أمام نافذة الحجرة التى قتلت فيها آمنة الاموية — أو سوليداد الاسبانية — رجلا حاول الاعتداء عليها ، أعدت محرقة صعدت اليها الفتاة رافعة الرأس ثابتة الجأش .

أحرقت آمنة وهى تترحم على أبيها الشهيد ، وتلعن القوم الظالمين فصعدت روحها الى خالقها ، بين السنة النيران الحمراء ، فى حديقة قصر الحمراء !

وأحرق معها يعقوب القيروانى ، ونثر رماد الجثتين فى الهواء !

ولم يكن قد بقى فى ذلك الوقت من العرب فى الاندلس غيرالقليل فقد رحل معظمهم الى المغرب ، ورحل معهم نحو ربع مليون من اليهود الذين عاشوا مطمئنين فى حمى الاندلسيين والمغاربة !

وما كان الاندلسيون والمغاربة يعلمون ، ولم يكن فى وسعهم ان يتنبأوا ، بأن أحفاد أولئك اليهود الذين أنقذوهم من الهلاك ، سوف يقلبون للعرب ظهر المجن ، ويقابلون الاحسان بالاساءة ، والوفاء بالخيانه والاخلاص بالغدر ، بعد أربعة قرون ونصف فيحولون أرض « فلسطين » الى « اندلس جديدة ! » ويسرقون من العرب وطنا ، ليجعلوه وطنا لهم !

مفاتيح الاندلس

رحلوا ... وأخذوا معهم مفـــاتيح البيوت ، على آمل أن يعودوا اليها ، في يوم من الايام !

عرفت مصطفى الوهرانى الجزائرى سنة ١٩١٧ . فقد التقيت به للمرة الاولى فى صحراء الحجاز ، على مسافة عشرين كيلو مترا أو اقل من « العقبه » وكان الرجل فى ذلك الوقت يطوف أنحاء الجزيرة العربية متنقلا بين القبائل والعشائر ، ينزل ضيفا على الحجازيين تارة ، وعلى النجديين او عربان بادية الشام تارة اخرى ، وقد ظل يجوب الفيافى ويضرب فى القفار ويطرق الابواب فى المدن والقرى ، ثلاث سنوات كاملات . ثم رأيته للمرة الاخيرة سنة ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب العظمى أوزارها ، وكان فى ذلك الوقت عائدا الى الجزائر ، لكى يتوغل من جديد فى الصحراء الكبرى ، ويعود الى قبائل « الطوارق » الضاربة فى تلك المجاهل ...

وكانت أحاديث الرجل - وقد جاوز السبعين - مليئة بالمفاجآت بالنسبه الى ، فكنت أدون ما يرويه على مسامعى ، أو أحفظه فى طيات الذاكرة ، لما فيه من طلاوة وفائدة ...

وفيما يلى ، واحد من أحاديث ذلك الرحالة العربى ، الشيخ مصطفى الوهرانى :

***

- انى أنتسب الى أسرة عربية عريقة ، وجدنا الاكبر يدعى « يزيد بن خالد بن محمد العسقلانى » نسبة الى عسقلان بفلسطين . وقد هجرنا ديار الشام مع من هجرها من أنصار الامويين على أثر قيام الدولة العباسية . وعندما أعاد صقر قريش عبد الرحمن الداخل الى بنى أمية عزهم ومجدهم ، ونصب نفسه أميرا أمويا على الاندلس ، كان يسير وراءه خمسون فارسا من أحفاد يزيد بن محمد العسقلانى ! وكان منهم فيما بعد الزعماء والقواد والحكام والقضاة . وظل أبناء الاسرة محافظين على تقاليدهم الاموية ، وشمائلهم العربية ، واتخذوا غرناطة وقرطبة وأشبيلية مقاما لهم ، فبنوا فيها القصور وشيدوا لموتاهم الأضرحة والقباب ...

سكت الشيخ لحظة ثم استطرد يقول :

- ان الذكرى لتثير فى الصدر الشجون ، مهما كانت بعيدة عنا .. ولكن دعنا من الكلام الذى لا طائل تحته ، واصغ الى قصة أسرتنا ما دمت ترغب فى الاطلاع عليها . فقد أدى تخاذل العرب وانقسامهم وتحزبهم الى تلك النتيجة المحزنة التى تعرفها والتى لايجهلها كل من كان له المام بالتاريخ . فان الاسبانيين تغلبوا على ملوك العرب وأمرائهم وانتزعوا منهم الاندلس ، وعندما استولى الملك فرديناندو الخامس ، الذى يلقبه قومه بالكاثوليكى ، على مدينة غرناطة ، الدرة اليتيمة والمعقل الاخير ، رحل عنها من استطاع الرحيل من أبناء العرب . وكان أجدادى بين الذين غادروا المدينة الزاهرة وودعوها الوداع الاخير ...

- وهل حملوا معهم شيئا من أموالهم وكنوزهم كما فعل غيرهم ؟

- كلا ! لم يحملوا معهم شيئا لانهم خرجوا من منازلهم رجالا ونساء

الى ميادين القتال ، ولم يعودوا الى المدينة بعد ان دخلها فرديناندو الاسبانى ، ورحل عنها الملك أبو عبد الله مع أنصاره وفلول جيشه .
لكن أرباب الاسر العربية ـ ومن بينهم أرباب أسرتنا ـ لم ينسوا شيئا واحدا وهم يبتعدون عن الديار : المفاتيح !

لم أدرك معنى هذا فسألت الشيخ مستفهما :

ـ المفاتيح ؟

ـ اغلق كل من أعيان القوم داره ، وعلق مفتاحها الحديدى أو الخشبى فى عنقه ، وخرج من المدينة يتبعه أهله وذووه وخدمه .

ـ وما معنى هذا ؟

ـ كان كل واحد من أبناء الاندلس يعتقد ان الاحتفاظ بمفتاح الدار فأل حسن ، وأنه لا بد أن يأتى يوم يبتسم النصر فيه للعرب كما ابتسم لاعدائهم ، فيعود كل من أصحاب القصور الى قصره !

ـ لو كان يكفى للمرء أن يعتقد شيئا لكى يحدث ذلك الشىء ، لما كانت الدنيا فى الحالة التى نراها فيها الآن !

ـ صدقت يا بنى . ولكن صدقك هذا لا يمنع أن العرب كانوا يعتقدون ذلك ، وأن معظم الذين رحلوا عن الاندلس واجتازوا البحر ثانية الى افريقية ، فى نفس المكان الذى اجتازه من قبل طارق بن زياد من أفريقية الى الاندلس ، معظم أولئك ، قد حملوا معهم مفاتيح القصور والمنازل الاندلسية ، على أمل أن يعودوا اليها ثانية !

ـ وما كان مصير تلك المفاتيح ؟

ـ لو طفت الآن فى أنحاء الجزائر والمغرب وتونس ، وتوغلت فى الصحراء الكبرى ، ونزلت فى الجبال والسهول التى تضرب فيها القبائل مضاربها لوجدت فى كثير من البيوت والقصور والمرابط ،مفاتيح حديدية أو خشبية ، يعلوها الصدأ أو ينخرها السوس ..

ـ وتلك المفاتيح ؟

ـ هى مفاتيح المنازل والقصور الاندلسية . أما الاسر التى تحتفظ بها فى تونس والجزائر والمغرب والصحراء ، فهى سليلة الاسر الاندلسية العريقة ، التى طردها الاسبان من الاندلس واستولوا على ديارها .

ـ وهل تحتفظون أنتم بمفتاح داركم ؟

ـ نعم : وهو مفتاح من الحديد ، حمله جدى الاكبر من غرناطة الى وهران بالجزائر ، حيث أقام هو وأخوته وأبناؤه .

ـ ولذلك أطلقوا عليكم اسم الوهرانى ؟

ـ نعم فهى كنية أطلقها علينا أبناء البلاد وكانت أسرتنا قد نمت وكثرت من جديد ، وعندما غزا الفرنسيون القطر الجزائرى فى سنة

۱۸۳۰ ، ورفع الامير عبد القادر بن محيى الدين لواء الجهاد . ودعا أبناء قومه الى الحرب والكفاح ، لبى نداءه وأجاب دعوته ثلاثة وستون فارسا من أحفاد العسقلانى ! ولكن الامير عبد القادر الشجاع لم يتمكن من انقاذ وطنه ، فاضطر الى التسليم !

– وأنتم ؟ ماذا حل بكم ؟

عندما ذهب الامير عبد القادر الجزائرى الى فرنسا اسيرا منفيا تبعه اثنان من أسرتنا . أما الباقون فقد رحلوا عن الجزائر ، بعد أن صارت الى الافرنج ، وساروا بنسائهم وأموالهم ومواشيهم فى الصحراء الواسعة الى الواحات التى تحيط بها الجبال الجرداء احاطة السوار بالمعصم ، والتى يقيم فيها شعب أبى تعرفونه انتم ويعرفه الافرنج باسم « الطوارق »

– وماذا حدث لكم بعد أن غادر عبد القادر بلاد فرنسا واختار دمشق الفيحاء لاقامته ؟

– لم يذهب معه أحد من أبناء أسرتنا الى دمشق . بل عاد الاثنان اللذان كانا معه فى فرنسا الى الجزائر ، ومن هناك لحقا ببقية الاسرة ، وأقاما فى كنف قبائل الطوارق . ومن ذلك الوقت لا نزال جميعا هناك معززين مكرمين ، وقد اندمجنا بالقوم وصرنا منهم . نحيا حياة البداوة كأجدادنا الاقدمين . نخرج ملثمين وتخرج نساؤنا سافرات ، اذ أن العادات والتقاليد عند قبائل الطوارق تقضى بأن يغطى الرجل وجهه وتكشف المرأة عن وجهها ! ..

وصفوة القول يا بنى اننا نعيش الآن سعداء ، وكل سنة يرحل واحد منا الى ديار الغربة فيطوف فى الاقطار الافريقية ، ويذهب لاداء فريضة الحج فى الحجاز ، ثم يعود الى مضارب الحى هناك ، فى تلك الصحراء الحرة الواسعة !

– والمفتاح ؟

– مفتاح دارنا فى الاندلس ، اننا نحتفظ به وسنظل محتفظين به الى أن يقضى الله أمره !

وسكت الشيخ من جديد . ثم قال :

– من يدرى ! قد يخبىء لنا الغيب ما ليس فى حسباننا !

***

هذا ما قصه على مصطفى الوهرانى الجزائرى من أسرة العسقلانى فى احدى ليالى الشتاء سنة ۱۹۱۷ ، فى خيمة صغيرة صنعتها ايدى النساء البدويات من وبر الجمال والماعز فى صحراء الحجاز ..

وذلك هو السر في وجود تلك المفاتيح التي يتحدثون عنها ، في دور العرب ومنازلهم بالشـــمال الافريقي ، والتي يسمونها « مفاتيح الاندلس ! »

وفي رحلاتي العديدة الى تلك الاقطار العربية ، الى تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، سألت ، وبحثت ؛ وتحريت ؛فعلمت ان ما قاله لي محدثي الشيخ في ذلك الزمن ، يطابق الحقيقة والواقع . وان قصـــة المفاتيح ليست اسطورة كما يدعي بعض المؤرخين ...

وقد رأيت في المغرب واحدا من « مفاتيح الاندلس ! » والمغـرب أكثر بلدان العرب وفاء لذكرى الدولة التي ازدهرت على مقربة منـه ؛ وارتبط تاريخها بتاريخه ، واختلطت حوادثها بحـوادثه ، وانتهت اليه في الختام البقية الباقية من تراثها : تراث « أندلس العرب » .

« تمت »

طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا

راجعه : أ . ح . ق



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥